روايات مختارة

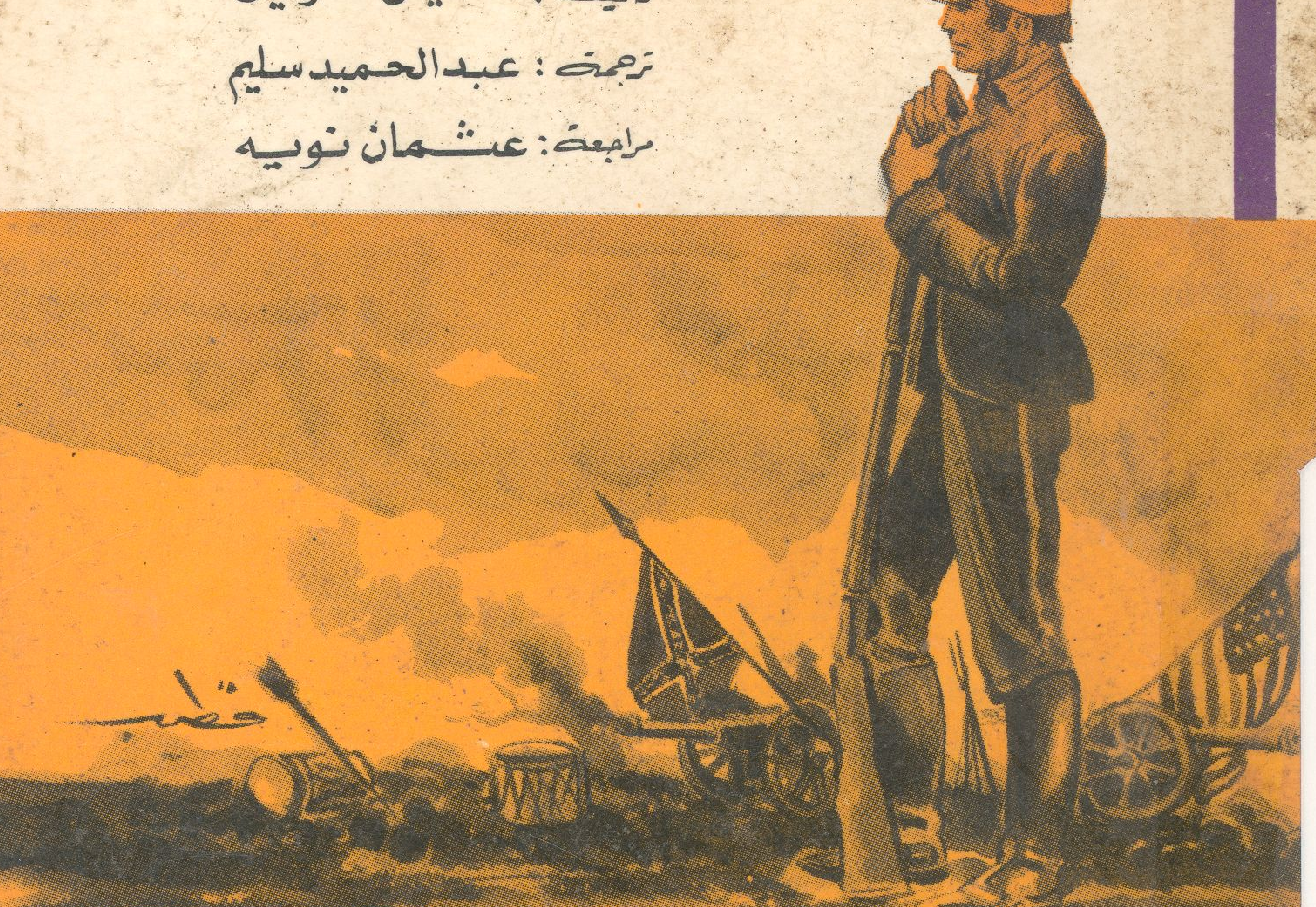
# وسام الشجاعة الأحمر

## وقصص مختارة

تأليف : ستيفن كرين

ترجمة : عبد الحميد سليم

مراجعة : عثمان نويه



# إهـــــــداء2006

ورثة الكيميائي/ محمد فاروق الفران

روايات مختارة

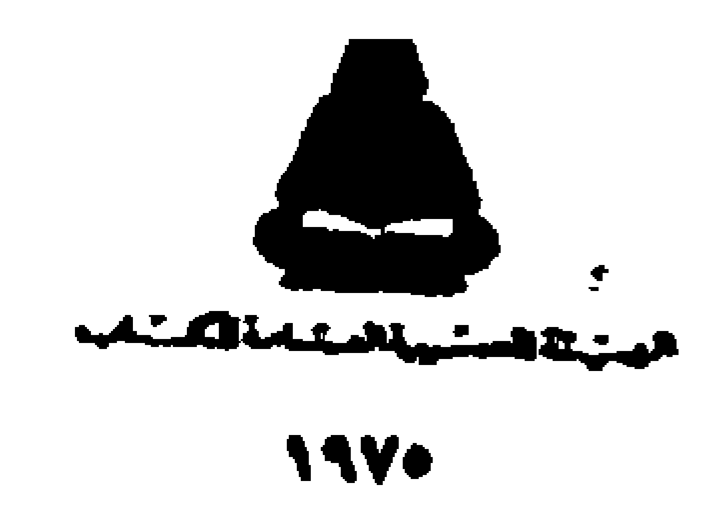
# وسام الشجاعة الأحمر

## وقصص مختارة

تأليف : ستيفن كرين

ترجمة : عبد الحميد سليم

مراجعة : عثمان نويه



الهيئة المصرية العامة للكتاب

١٩٧٥

هذه هى الترجمة العربية الكاملة لكتاب :

**THE RED BADGE OF COURAGE**

**and Selected Stories**

by

**STEPHEN CRANE**

**With an Introduction by**

**R.W. STALLMAN**

THE NEW AMERICAN LIBRARY

A Signet Classic, 1964.

# المحتويات



# عن ستيفن كرين

عاش ستيفن كرين ، الحاد الطبع المتقلب المزاج ، الواضح الصريح ، عاش هذا الرجل عيشة قاسية مكرسا نفسه في حماس عارم للبحث عن تجارب تصلح موضوعا لكتاباته •

ولد في نيو آرك بولاية نيوجرسى فى أول نوفمبر سنة ١٨٧١ ، وكان الطفل الرابع عشر لقس متجول من دعاة المذهب الميثودى • وقد تلقى علومه فى معهد نهر هدسون في كلافيراك بكلية لافاييت . وحضر نصف سنة دراسية بجامعة سيراكيوز ، وبينما كان فى دار الاخوة « دلتا أوبسيلون » بسيراكيوز كتب أول مسودة لرواية « ماجى : فتاة الشوارع » • وفى سنة ١٨٩٥ نشر المؤلف الشاب الذى لم يشهد أية معركة ـ رواية « وسام الشجاعة الأحمر » التى تعتبر تصويرا مذهلا فى صدقه لعقلية المجند الجديد وروحه • وكانت هذه الرواية سبب شهرة كرين وذيوع صيته كمراسل حربى ، فبعثت به نقابة « ايرفنج باشيلر » الى كوبا

لتغطية انباء حملة القراصنة. وبينما كان في جاكسونفيل في فلوريدا في انتظار الرحلة التي سيقوم بهـــا في قارب ، التقى ب « كورا هـوارث » المضيفة وصـاحبة « فندق الأحـلام » ووقعت هي وستيفن في غــرام ، وتزوجها وعاشت معه في انجلترا خلال سنواته الثلاث الأخيرة . وفي راس السنة الجـديدة في ١٨٩٧ كان كرين من غرقى السفينة التي كان ستقله الى كوبا ، وهي كارثة جددها في قصته « القارب المكشوف » . وبعد ذلك استدعى عمله ان يتوجه الى اليـونان ليغطي انباء الحرب في تركيا ، والى كوبا لكتابة تقرير عن الحرب الأمريكية الاسبانية في أبريل سنة ١٨٩٨ ، ولما عاد الى انجلترا مع كورا في منتصف ينـاير ١٨٩٩ وجـد نفسه مهددا بالافلاس ، وبذل جهد المستميت ليتخلص من الدين عن طريق الكتابة، ولكنه لم يفلح على الاطلاق، وداهمه مرض الســل فانهار في اوائل ابريل ســنة ١٩٠٠ ، ومات في بادنفايلر بالمانيا في ٥ مايو ســنة ١٩٠٠ .

# مقـــدمـــة

أعتقد أن أهم شيء يقال عن ستيفن كرين هو انه كاتب ذو أسلوب عظيم ، يستخدم اللغة استخداما شعريا أى أنه يستخدمها فى انعكاس رمزى • واذا كان مفهومه عن الجندى ككل ، يقرر وجود صلة بين «وسام الشـــجاعة الأحمر » ( ١٨٩٥ ) والروايات الحديثة التى تناولت الحرب ، ونظراته الطبيعية فى « ماجى : فتاة الشوارع » ( ١٨٩٣ ) التى كانت بداية اتجاه الأدب الطبيعى فى أمريكا تربطه بالروايات الحديثة التى تتناول الحياة فى الأحياء القذرة ، فان أهميته تبقى مع ذلك ، فى حقيقة لا تتمثل فى أنه أتى بموضوعات جديدة فى القصص بل فى أنه كان من المجددين فى تقنينه القصة كما كان صاحب أسلوب فريد • اننا نلاحظ هذا الوضع نفسه مع هنرى جيمس Henry James وجوزيف كونراد Joseph Conrad اذ أنهما فى الأسلوب والتكنيك تخطيا عصرهمـــا ، وكان هنرى جيمس يقول : « ابتكر لنفسك أسلوبا ، فان فى ذلك نجاتك » •

ويرتبط كرين برباط وثيق بكونراد وهنرى جيمس ، أســـاتذة المدرسة الانطباعية • كان هـــدف ثلاثتهم جميعا خـــلق « انطباع مباشر للحياة » ودستورهم يعلنه كونراد فى مقدمته الشهيرة لكتابه « الزنجى النارسكى » : أن « قوة الكلمة المكتوبة تمكنك من أن تسمع وتتيح لـــك أن تحس ــ وهى قبل كل شيء ، تتيح لك الرؤية » • لقـــد كان هدفهم أن يغمر القارىء فى الخبرة الخلاقة حتى يحدث تأثيرها عليه فى نفس الوقت الذى تكتشف فيه على يد الأشخاص أنفســـهم • وبدلا من المناظر الشاملة

لساحة القتال لا يصور كرين المنظر كله بل أجزاء منه غير مترابطة ــ كل من له مشاركة في عمل من الأعمال أو مشاهد لمشهد يمكن أن يدخله فى اعتباره فى أية لحظة • وكان كرين أستاذا فى خلق أوهام الحقيقة عن طريق نقطة محدودة للرؤية ، فجملة : « لم يكن فى استطاعة واحد منهم أن يتعرف على لون السماء » ــ تلك الجملة الافتتاحية المشهورة فى قصته « القارب المكشوف » ( ١٨٩٧ ) ــ تحدد نقطة محصورة للرؤية للرجال الأربعة فى القارب الذى جرفته الأمواج ، انها أيضا تقرر حال الأمل واليأس الذى كان عليه الرجال ، ويكرر المشهد الختامى حالة التناقض نفسها • وقد اتبعت الطريقة نفسها التى تتناول أنماط الحالة المزدوجة فى رواية « وسام الشجاعة الأحمر » • وتعد « وسام الشجاعة الأحمر » و « القارب المكشوف » متماثلتين من ناحية الموضوع فى أنماط تداعى الخواطر وفى الخيال ، وكذلك فى الشكل •

ويلاحظ فى كلتا الروايتين أن مفتاح كل شىء هو فى حالة من التوتر: نجده فى « القارب المكشوف » حتى فى حديث الرجال الذين أغرقتهم السفينة ، حديث مفاجىء يتكون من « جمل غير مترابطة » • وأسلوب كرين فى حد ذاته مكون من جمل مفككة وانطباعات مفككة . صور ملونة تظهر بها واقعية التجربة بكل ما فيها من سرعة موضوع الساعة ، كما تميزت رواية «وسام الشجاعة الأحمر» بالسلاسة والتغيير ؛ والموضوع والأسلوب مفهومان أصلا من الناحية البنائية ، وموضوع التغيير مقترن بالأسلوب السلس الذى أظهره • والأسلوب الذى قدر له أن يخلق انطباعات الحركة المختلطة والتغيير ، مفكك عمدا ويبدو مضطربا • ويدخل كرين تفاصيل مفككة ، استدلال لا منطقى non sequitur يذوب فى آخر ، والمشاهد والأشياء يحس بها مشوشة ، تبدو تحت ضباب أو بخار أو سحاب ، ومع ذلك فكل شىء له علاقته ويعالج فى أنماط متناسقة من اللون ومن المعنى ذى الدلالات المختلفة •

و « وسام الشجاعة الأحمر » تمرين أدبى فى اللغة فى تنميط الكلمات وتقابل الموضوعات والاستعارات والألوان • لقد قال كرين :

« كانت معظم كتاباتى النثرية ترمى الى الهدف الذى يوصف جانب منه بتلك الكلمات التى أسيء فهمها واستعمالها وهى الواقعية » · ولما كانت رواية « وسام الشجاعة الأحمر » قد ظهرت فى زمن كانت لا تزال فيه الحرب تعالج أساسا كموضوع رومانسى ، لذا فقد كانت أول رواية غير رومانسية تناولت الحرب الأهلية وأحرزت شعبية على أوسع نطاق · كم أثارت رواية « وسام الشجاعة الأحمر » من جدل وكم أشعلت من نقد للحروب ! لقد كان البريق والعاصفة والصدمة والاثارة ، والاحساس الذى أحدثته ، كانت فى وقت واحد أمورا « لم يسبق اليها ولا سبيل الى مقاومتها » · لقد دوت فى آذان الشعب كما قال كونراد : « كأنها انفجار قنبلة شديدة الانفجار » · ان ما سبب الانفجار وبخاصة بين قرائه الأكثر وعيا ، هو الأسلوب المتفجر فى الكتاب ، ما كان يلقيه كرين نفسه من قنابل التشبيه والاستعارات والألوان · لقد حكم النقاد على الكتاب بأنه أعظم رواية واقعية تناولت الحرب ، وذاعت شهرة كرين أكثر من أى كاتب أمريكى آخر ، ككاتب واقعى عن الحرب · ولكن كرين فى الجوهر لم يكن واقعيا — ولا حتى فى « القارب المكشوف » اذ أن الواقعية لا تسجل الا ظواهر الأشياء · وكان كرين فنانا رمزيا ما أمكنه ذلك ( والرمزية لا تنكر الواقعية — فهى تعمل على امتداد الواقعية ) وليست رواية « وسام الشجاعة الأحمر » مجرد سرد خيالى لفترة من الحرب الأهلية — فهى ذلك وأكثر من ذلك · وليس العمل الفنى هو ما يبدو أن يكون عليه · ويختلف تكنيك كرين فى رسم الكلمة عن تكنيك الواقعيين الآخرين ، فهو لا يأخذ فى اعتباره التفاصيل الاضافية التى يتناولها الواقعيون أمثال نوريس Norris ودرايزر Dreiser ودوس باسوس Dos Passos وفاريل Farrell بل يظهر نثره الانطباعى تشابها بلوحات المصورين الفرنسيين الانطباعيين الذين يعرفهم حق المعرفة · وأسلوبه ، كما أوضحت فى مكان آخر (١) هو الانطباعية النثرية ·

---

(١) « فى ستيفن كرين : الأمنيبوس ١٩٥٢ ، ص ص ١٨٥ — ١٨٧ )

كتب كرين بعاطفة الشاعر المشبوبة ، العاطفة المكبوتة التى تنفجر فى صورة رمز وتناقض ظاهرى · لقد قال جيمس : « ابرد أولا ـ ثم اكتب بعد ذلك · فالأخلاقيات ساخنة ـ ولكن الفن كالجليد ! » ، وعلى شاكلة جيمس . كرس كرين نفسه للصياغة الأدبية · وكانت السخرية هى الأداة الفنية الرئيسية التى استخدمها كرين ـ فهى مفتاح فهمنا للرجل ولأعماله · أما التناقض الظاهرى فهو يشكل أحسن أعماله كلها ويحدد علاقة الواحد منها بالآخر · ويعالج كرين دائما التناقض الظاهرى للانسان ، تناقض عهوده : ففى قصته « العروس تصل الى يلوسياى » ( ١٨٩٨ ) يمثل بوتر Potter العالم المثالى للقيم الروحية التى تتجلى قوتها فى براءتها ، بينما يمثل ويلسون Wilson العالم الواقعى بما فيه من حقائق فظة · ان مثل هذا الصراع ، الصراع بين المثل والحقائق ، هو الذى يقود جهاد كرين كفنان ، ويضفى على حياته وفنه كل ما يسودهما من سخرية قاسية ·

ولقد كتب همنجواى Hemingway : « ان الكتاب المجيدين هم : هنرى جيمس Henry James وستيفن كرين Stephen Crane ومارك توين Mark Twain · ليس هذا هو ترتيب جودتهم ، فهم كتاب ممتازون دون حاجة الى أن نرتبهم » · والأدب الأمريكى الحديث له بداياته فى « مارك توين » و « ستيفن كرين » · أما بالنسبة لتأثيرهما المعترف به على « همنجواى » فيتمثل فى روايتيهما : « وسام الشجاعة الأحمر » لكرين ، ورواية « هكلبرى فن Huckleberry Finn » لتوين ـ فكلتاهما تتميز بفصول ساخرة ، كما تذكرنا بمقدمة « وداعا للسلاح » لهمنجواى · والموضوعات الرئيسية للروايات الثلاث جميعا هى موضوعات الموت أو الخديعة أو الخيانة · وفى كل الروايات الثلاث تنتهى تربية البطل كما بدأت بالخداع الذاتى ، وثلاثتها فى مجموعها أعمال سيكولوجية ، رمزية زاخرة بالطقوس تتناول أبطالا يبحثون عن ذاتهم أو هويتهم · ان الدافع القوى فى « وداعا للسلاح » وهو ان كل فرد عليه أن « يهبط من الجبال » يعود ثانية ـ ومن خلال موضوع « وسام الشجاعة الأحمر » :

موضوع الاشتباك والانسحاب ـ يعود الى « هكلبرى فن » ؛ أما قصة توين « لا تستطيع أن تتمنى أكذوبة You can't pray a lie » فتتأرجح كموضـــوع خداع بين كل من « وداعا للســلاح » و « وسام الشــجاعة الأحمر » ٠

و « وسام الشــجاعة الأحمر » صــورة انطباعية تتميز بالابداعية الجريئة فى التكنيك والأسلوب ، وقد استطاع كرين فى قصته « القارب المكشوف » التى تمزج بين الواقعية الانطباعية فى رواية «ماجى» والواقعية الرمزية فى رواية « وسام الشجاعة الأحمر » ، استطاع أن يثبت قدمه كأحد البارزين فى تصميم تكنيك القصة الحديثة ٠

**ر ٠ و ٠ ستولمان**

# وسام الشجاعة الأحمر

## حقبة من الحرب الأهلية الأمريكية

# الفصل الأول

ولى البرد فى مضض عن الأرض ، وتكشف الضباب المتراجع عن جيش متناثر فوق التلال ، يستريح . وما ان تحول المنظر الحلوى من اللون البنى الى الأخضر حتى استيقظ الجيش ، وبدأ يرتعد فى لهفة لصوت الشائعات . لقد حول أنظاره الى الطرق التى كانت تتحول من أحواض طويلة من الطين السائل الى طرق عمومية منتظمة . وكان أحد الأنهار فى لون الكهرمان من ظلال شاطئيه ، له خرير عند أقدام الجيش ، وبالليل ، عندما لف النهر سواد حزين ، كان فى استطاعة المرء أن يرى عبره الشعاع الأحمر ، كشعاع العين ، لنيران مخيمات الأعداء المقامة فى الحافات المنخفضة للتلال البعيدة .

وتوجه ذات مرة جندى فاضل مديد القامة ، ليغسل قميصه . وعاد مسرعا من عند النهر يلوح برداثه كما لو كان لواء . لقد امتلأ زهوا لقصة سمعها من صديق يوثق به رواها عن أحد الفرسان الصادقين ، عن أخيه الأمين الذى يعمل « مراسلة » فى مقر قيادة احدى الفرق العسكرية . فاتخذ سمت النذير الذى يرتدى الزى الأحمر والمذهب .

وقال فى عظمة لمجموعة فى شارع البلوك : « سنتحرك غدا بكل تأكيد » واستطرد قائلا : « سننطلق الى النهر ، نخترقه ونستدير خلفهم » .

ورسم لمستمعيه المنصتين له خطة محكمة لحملة غاية فى البراعة . وعندما انتهى تفرق الرجال من ذوى الزى الأزرق الى مجموعات صغيرة

تتجاور وتتجادل بين صفوف الأكواخ البنية المنخفضة ، بعد أن انفضوا من حول راع زنجي كان يرقص على صندوق بارود يشجعه أربعون جنديا طروبا • جلس الجندي المديد حزينا ، وكان الدخان ينصرف في كسل عن عديد من المداخن غير المألوفة •

وقال نفر آخر : « انها أكذوبة ! ان هذا كله محض افتراء ! » فاحمر وجهه الناعم ، وفي تجهم دس يديه في جيبي بنطلونه • لقد أخذ الأمر كما لو كان اهانة له ، واستطرد : « انني أعتقد أن الجيش العتيق اللعين لن يتحرك فعلا • نحن باقون • لقد تأهبت للتحرك ثماني مرات في الأسبوعين الأخيرين ولم نتحرك بعد » •

وأحس الجندي المديد القامة أن عليه أن يدافع عن صدق الشائعة التي نقلها هو نفسه ، وكان هو والجندي ذو الصوت الجهوري على وشك أن يتعاركا حول هذا الأمر •

وبدأ «أونباشي» يقسم أمام الجمع أنه ركب لتوه أرضية خشبية غالية في داره • وكان قد كف في أوائل الربيع عن ادخال الكثير من وسائل الراحة في داره ، لأنه كان يحسب أن الجيش قد يتحرك في أية لحظة ولكنه أحس أخيرا أنهم يقيمون في معسكر دائم •

واشترك كثير من الرجال في حوار حي ، فأخذ أحدهم يلخص في أسلوب واضح فريد كل خطط القائد العام ، وعارضه رجال آخرون يقولون ان هناك خططا أخرى للمعركة • وصاح كل واحد بالآخر : انهم يحاولون عبثا أن يجذبوا اليهم أنظار الناس • وفي تلك الأثناء كان الجندي الذي أبلغ الشائعة يسير مختالا وهو يشعر بأهميته الكبرى اذ كانت تنهال عليه الأسئلة بدون انقطاع •

« ما الخبر يا جيم ؟ » •

« سيتحرك الجيش » •

« آه ، عم يتحدث ؟ كيف تعرف أنه سيتحرك ؟ » •

« حسن ، اما أن تصدقنى أو لا ، كما يحلو لك • اننى لا أعير ذلك أهمية . اننى أحيطكم علما بما أعرفه ـ تستطيعون أنتم أن تأخذوا به أو لا تأخذوا • كيفوا أنفسكم • ان الأمر سواء عندى » •

كان هناك المزيد من البواعث على التفكير فى الطريقة التى رد بها • وأوشك أن يقنعهم عن طريق ترفعه عن تقديم الأدلة والبراهين ، فصاروا أكثر شوقا بالنسبة لهذا الأمر •

وكان هنـاك « نفر » ينصت بأذنين متحمستين الى كلمـات الجندى المديد القامة والى تعليقات زملائه المختلفة • وبعد أن استمع الى مناقشات كافية عن التحركات والهجمات توجه الى الكوخ فزحف خلال فجوة معقدة كانت تقوم مقام الباب • لقد أراد أن يكون وحيدا مع بعض أفكاره الجديدة التى تلقاها حديثا •

ورقد على سرير كسرير قمرة السفينة ، ممتد عبر نهاية الحجرة ، وفى الطرف الآخر كانت صناديق البارود قد استخدمت كأثاث وتجمعت حول المدفأة وعلى الجدران التى شيدت من كتل الخشب ، صورة منزوعة من احدى المجلات الأسبوعية المصورة ، كما كانت قد شجبت ثلاث بندقيات متـوازية ، وعلقت المعـدات على نتوءات قريبة ، وكانت بعض الأطبـاق القصديرية ملقـاة على كومة صغيرة من خشب الوقود ، وكانت خيمـة مطوية مستخدمة كسقف ، جعلها ضوء الشمس فى الخارج تتوهج بلون أصفر فاتح • وكانت هناك نافذة تلقى بمربع مائل من ضوء أكثر بياضا على الأرضية المكومة بلا ترتيب • وكان الدخان المتصاعد من النار يهمل أحيانا المدخنة الفخارية ويتسرب الى الغرفة ، وكانت هذه المدخنة الرقيقة من الفخار والعصى تشـكل تهديدات لا نهـاية لها لايقاد النار فى المكان بأسره •

كان الفتى فى شبه غيبوبة من الدهشة • اذن سيتوجهون أخـيرا للقتال • وفى الغد ، ربما كانت هناك معركة وقد يشترك فيها • كان مضطرا ، الى حين ، أن يبذل جهدا ليصدق ذلك • انه لا يمكنه أن يتقبل

بكل توكيد النذير بأنه على وشك أن ينخرط فى حدث من تلك الأحداث العظيمة التى تجرى على ظهر الأرض ·

كان بطبيعة الحال قد حلم بمعارك طوال حياته ــ عن صراعات غامضة ودموية أثارته بأحداثها المكتسحة وبنيرانها · وفى تأملاته رأى نفسه فى نضالات عديدة · لقد تخيل شعوبا تعيش فى أمان مستظلة بقوة مراسه ، ولكنه فى يقظته كان يعتبر المعارك بقعا حمراء داكنة على صفحات الماضى · لقد طرحها بأفكاره الخيالية كأشياء من الماضى عن التيجان الثقيلة والقصور الشاهقة · كان هناك جانب من تاريخ العالم يعتبر زمنا للحروب ، ولكنه كان زمنا قد ولى منذ أمد طويل وراء الأفق واختفى الى الأبد ·

ومنذ نعومة أظفاره كان ينظر بعين الريبة للحرب الدائرة فى بلاده · لابد أنه ضرب من اللعب · لقد يئس طويلا من مشاهدة نضال أشبه بالنضال الاغريقى · لقد قال انه أمر قد ولى · أما الآن فالناس أفضل أو لعلهم أكثر جبنا · فالتربية الزمنية والدينية قد استأصلتا غريزة ازهاق الأرواح عن طريق خنق الأعداء باليد ، أو لعل التمويل الحازم قد كبح جماح العواطف العدوانية ·

لقد تحرق شوقا مرات عديدة ليتطوع فى الجيش · ان قصصا عن التحركات العظيمة قد هزت البلاد ، ربما لم تكن هومبرية بصورة واضحة ولكن يبدو أن بها الكثير من المجد · لقد قرأ عن مسيرات وحصارات وصراعات وكان مشوقا ليراها جميعها · كان ذهنه المشغول قد رسم له صورا كبيرة مفرطة فى لونها ، مكفهرة مصحوبة بأعمال باهرة ·

ولكن كانت أمه تثبط من همته · لقد اعتادت أن تتطلع الى تشوقه للحرب والى وطنيته ببعض الاستهزاء المفتعل · كان فى استطاعتها أن تجلس فى هدوء وأن تسوق له فى سهولة واضحة مئات من الأسباب التى تجعل وجوده أبلغ أهمية للمزرعة عن وجوده فى ساحة القتال · لقد كانت لها أساليب معينة فى التعبير توحى له بأن عباراتها عن الموضوع نابعة عن اعتقاد راسخ · وفضلا عن هذا فقد كان يؤمن ، من ناحيتها ، بأن دافعها الأخلاقى فى الجدل لا مجال للتغلب عليه ·

وبرغم هذا ، فقد قام أخيرا بتمرد حازم على هذا الضوء الأصفر الملقى على ألوان طموحه ، لقد أثارته الصحف وحـــديث القرية وتصويراته الشخصـية لدرجة لا حــد لها • لقـــد كانوا يحـــاربون هنا ، فى الحقيقـة ، ببســالة ، وكل يوم تقريبا كانت الصـحف تنشر أنباء عن نصر حاسم •

وذات ليلة بينما كان راقدا فى السرير ، نقلت له الريح صلصلة جرس الكنيسة كما لو كان أحد المتحمسين يهز الحبل فى جنون لينقل النبأ المزور عن معركة كبيرة • لقد جعله هذا الصوت ، صوت الناس الفرحين فى المساء ، يرتعد فى نشـــوة اثارة طويلة • وبعد ذلك هبط الى غرفة أمه وتحدث اليها على هذه الصورة : «أماه ، سأتوجه لتسجيل اسمى•» •

وأجابته أمه : « هنرى ، لا تكن أبله » وكانت قد غطت وجههـــا باللحاف ، ووضعت حدا للموضوع فى تلك الليلة •

وبرغم ذلك ، فقد توجه فى الصـباح التالى الى المدينة التى كانت مجاورة لمزرعة أمه وسجل اسمه فى الفرقة التى كانت تشكل هناك ، وعنـدما عاد الى الدار كانت أمه تحلب البقرة المخططة بلون داكن ، وكان أربعة آخرون واقفين فى الانتظار ، وقال لأمه فى ثقة : « أماه ، لقد سجلت اسمى » • ومرت فترة صمت قصيرة ، وأجابت أخيرا : « على بركة الله يا هنرى » ثم استأنفت حلب البقرة المخططة بلون داكن •

وعندما وقف عند البوابة وملابسه العسكرية على ظهره ، وفى عينيه ضوء من الاثارة والرجاء يكاد يهزم وميض الأسف على الروابط الأسرية ، لمح عبرتين تركتا آثارهما على وجنتى أمه المندوبتين •

ومع ذلك فقد خيبت أمله لأنها لم تقل شيئا أيا كان عن عودته بدرعه أو محمولا عليه • كان يعد نفسه خصيصا لمشهد جميل • لقد أعد عبارات معينـة فكر أنه يمكن أن يسـتخدمها ليكون لها تأثيرها العميق • ولكن كلماتهـا حطمت خططه • وقشرت البطاطس فى عناد وكلمته على الوجه التالى : « احترس يا هنرى ، اعتن بنفسك جيدا فى مهمة القتال هذه ـ

احترس واعتن بنفسك جيدا . لا تظن أنك تستطيع أن تضرب الجيش المتمرد بأسره فى البداية ، لأنك لا تستطيع . انك مجرد فتى واحد صغير بين مجموعة كبيرة وعليك أن تلزم الهدوء وافعل مايطلبونه منك . أنا أدرى بحالك يا هنرى . » .

« لقد حكت لك ثمانية أزواج من الجوارب يا هنرى ، ووضعت لك أحسن قمصانك جميعها لأننى أريد أن يحس ابنى بالدفء والراحة تماما كأى فرد فى الجيش . وحالما وجدت بها ثقوبا أريدك أن تبعث بهـا الى مباشرة حتى أستطيع أن أتولى اصلاحها . » .

« وكن دائما حريصا فى اختيار صحبتك . هناك أعداد كبيرة من الرجال الفاسدين فى الجيش يا هنرى . ان الجيش يحيلهم وحوشا وهم لا يحبون شيئا خيرا من أن يفسدوا شابا مثلك لأنك لم تتغيب قط عن الدار كثيرا وأمك دائما فى رفقتك ، ويعلمونه كيف يشرب ويسب . ابتعد تماما عن هذه الفئة يا هنرى . اننى لا أريدك أن تقترف شيئا قط يا هنرى قد يخزيك أن أعرفه . فكر دائما كما لو كنت أراقبك . اذا وعيت ذلك دائما ، فاننى أعتقد أنك ستسلك السبيل المستقيم . » .

« ان الشبان فى الجيش يصبحون شـديدى الاهمال فى مظهرهم بصورة رهيبة ، لأنهم ابتعدوا عن دورهم ولا يجدون من يرعاهم . اننى خائفة عليك . انك لم تعتد قط أن تعمل شيئا لنفسك ، ومن ثم فيجب أن تداوم على الكتابة لى لتعرفنى اذا كانت ملابسك متينة . » .

« يجب أيضا أن تتذكر دائما أباك ؛ يا ولدى ؛ وتذكر أنه لم يشرب قط قطرة من الشراب فى حياته ونادرا ما أقسم بقسم باطل . » .

« ليس لدى شىء آخر أحدثك عنه يا هنرى ، اللهـم الا أنك يجب ألا تحتال قط للهرب ، من أجلى يا ولدى . اذا فكرت مرة فى الخلاعة أو فى أن تقترف عملا دنيئا ، فما بالك يا هنرى لا تفكر فيما هو مستقيم من الأمور ، لأن هناك كثيرا من النساء ممن تشجعن على مثل هذه الأمور فى هذه الأيام وسيرعانا الله جميعـــا . لا تنس أن تبعث لى بجواربك فى

اللحظة التي تجد فيها ثقوبا ، وهنا نسخة صغيرة من الانجيل أريدك أن تأخذها معك يا هنرى · انني لا أعتقد أنك ستتوافر على قراءته اليوم بطوله يا ولدى ، ولا شيئا من هذا · لا شك أنك فى أوقات كثيرة ستنسى أنه معك . ولكن سيكون هناك أيضا وقت كثير يا هنرى ستكون فيه فى حاجة الى نصيحة يا ولدى ، وكل ما شابه ذلك ، وربما لن يكون معك من أحـــد تتحدث اليه ، فاذا ما قرأته ، يا ولدى ، اكتشفت الحكمة فيه ـ الحـــكمة فيه يا هنرى ـ ببحث قليل أو بدون بحث · لا تنس الجوارب والقمصان يا ولدى ، لقد وضعت وعاء من مربى التوت مع متاعك لأننى أعلم أنك تحبها أكثر من أى شىء آخر · وداعا يا هنرى ، احترس وكن ولدا صالحا » ·

كان قلقا ، بطبيعة الحال ، من عذاب هذا الحديث · لم يكن تماما مثلما كان يتوقعه ، لقد تحمله مع روح منفعلة وانصرف وهو يحس براحة غامضـــة ·

ومع ذلك فقد تطلع وراءه من عند البوابة ، لقد شهد أمه تركع بين قشر البطاطس وكان وجهها الأسمر المرفوع مبللا بالدموع وجسمها النحيل يرتعد ، فأحنى رأسه وتابع سيره وهو يحس فجأة بأنه خجل لأنه حقق مآربه وخلف أمه وراءه ·

ومن داره توجه الى المدرسة ليودع الكثير من أقرانه فى الدراسة · لقد تجمعوا حوله فى دهشة واعجاب · لقد أحس الآن بهوة بينه وبينهم وانتفخ بكبرياء هادئة · وكان هو وبعـض اخوانه الذين ارتدوا الملابس الزرقاء قد انهالت عليهم الامتيازات طوال مساء يوم من الأيام ، انه أمر يبعث على شدة السرور · لقد كانوا يتبخترون زهوا ·

وكانت هناك فتـــاة شقراء الشعر تمزح فى مرح خفيف الظل من روحه العســكرية ، فى حين كانت هناك فتاة أخرى أكثر سمرة من الأولى ، كان يتطلع اليهـــا بثبات ، خيل اليه انهـــا رزينة وحزينة لرؤيتها زيه الأزرق وأزراره النحاسية · وبينما كان يسير فى الممر بين صفوف أشجار

البلوط ، أدار رأسه واكتشف وجودها عند نافذة ترقبه وهو يغيب - وعنــدما شاهدها كانت قد بدأت تتطلع لتوها عبر فروع الشجرة الباسقة الى السماء • لقد شهد الشيء الكثير من الاضطراب والسرعة فى حركتها وهى تغير من وضعها • انه كثيرا ما فكر فى هذا •

وفى طريقــه الى واشنطون ارتفعت روحــه المعنوية • كانت الفرقة تطعم والناس يعانقونها فى محطة تلو محطة حتى ظن الشاب أنه بطل - كان هناك اسراف فى النفقات على الخبز واللحوم الباردة والقهوة والطرشى والجبن • وبعــدما أدفأته ابتسامات الفتيات وربت عليه الكهول وحيوه ، أحس بأنه تنمو فى داخله قوة لينجز أعظم الأعمال العسكرية •

وبعد رحلات معقدة توقفوا فيها عدة مرات ، مرت أشهر من الحياة الرتيبة فى المعسكر • لقد كان عنده اعتقاد أن الحرب الحقيقية سلسلة من نضالات الموت مع وقت قصير بين بين للنوم والوجبات ، ولكن منذ أن قدمت فرقته الى الميدان لم يفعل الجيش شيئا سوى الجلوس ساكنا ، ومحاولة للبقاء دافئا •

وعاد تدريجيــا الى أفكاره القــديمة ــ لن تكون هناك نضــالات كالنضالات الاغريقية • كان الرجال اما أفضل أو أكثر جبنا • ان التربية العلمانية والدينية قد محت غريزة المقاتلة أو لعل الاهتمام الزائد بالمال قد كبح جماح العواطف •

لقد شب ليعتبر نفسه مجرد جزء من مظاهرة ضخمة زرقاء • كان على ولايته أن تهيىء له ، قدر المستطاع ، راحته الشخصية • وفى فترات الراحة كان يلوى ابهاميه ويتفكر فى الأمور التى لابد أن تثــير اضطرابه أذهان القــواد • لقــد درب أيضــــا ودرب ثــم امتحن ، ودرب ودربه ثم امتحن •

ان الأعداء الوحيدين الذين شاهدهم كانوا بعض المراقبين على طول شاطىء النهــر • لقــــد كانوا أشخاصا لوحتهم الشمس ، مجمـــوعة

متفلسفة ، وكانوا أحيانا يصوبون طلقاتهم عمدا على المراقبين المرتدين الملابس الزرقاء · فاذا ما حدث ووجه اليهم اللوم بعد ذلك ، كانوا عادة ما يعبرون عن أسفهم ويقسمون بآلهتهم بأن البنادق قد انطلقت دون اذن منهم · وتجاذب الشاب ، وكان فى نوبة حراسة ذات ليلة ، الحديث عبر جدول الماء مع واحد منهم ، كان رجلا يكاد يكون رث الثياب ، يبصق بمهارة بين حذائيه ويمتلك رصيدا ضخما من الاعتداد الصبيانى ، وكان الشاب يحبه شخصيا ·

وقال له الآخر : « أيها الأخ ، أنت شاب طيب فعلا · » انتقل اليه هذا الشعور الرقيق على موجات الأثير الهادئة ، وجعله يأسف على الحرب مؤقتـا ·

لقد قص عليه عدد مختلف من المحنكين فى الحروب قصصا ، فحدثه البعض عن عصـابات ذات ذقون رمادية كانت تتقـدم وهى تلعن لعنات لا رحمة فيها ، وتمضـغ التبغ بشجاعة لا توصف ، هياكل ضـخمة من الجنود المتوحشين كانت تكتسح الطريق مثل الهون the Huns وتحدث آخرون عن رجال مهلهلى الثياب ، جوعى على الدوام كانوا دائما يطلقون بارودا كئيبا ، وقيل له : « سيطلقون نار جهنم ليحصلوا على مؤنة جندى ، ولكن مثل هذه الشهية لا تدوم طويلا · » ومن القصص تخيل الشـاب العظام الحمـراء الحية بارزة خـلال شـقوق طويلة فى الزى الباهت ·

ومع ذلك فلم يكن فى استطاعته أن يضـع ثقته كاملة فى قصـص المحنكين فى الحروب لأن المجندين كانوا ضحاياهم · كانوا يتحدثون كثيرا عن الدخان والنار والدم ولا يستطيع أن يعرف مدى ما بها من أكاذيب · لقد كانوا يصيحون دائما عليه قائلين : « سمكة جديدة ! » ولم يكن من الحكمة الوثوق بهم ·

ومع ذلك فقد كان يدرك الآن أن الأمر لا يهم كثيرا أن يعرف أى نوع من الجنود سيقاتل طالما أنهم سيقاتلون ، وأية حقيقة لا يجادلها أحد ·

كانت هناك مسألة أكثر أهمية · لقد رقد فى سريره يفكر فيهـا · لقد حاول أن يبرهن لنفسه رياضيا أنه لن يهرب من معركة ·

لم يحس قط من قبل أنه مضطر الى أن يفكر جديا تماما فى هذه المسألة · لقد سلم فى حياته بأمور معينة ولم يتزعزع ايمانه قط فى احراز نجاح نهائى ، وكان قلقا بعض الشيء من الأساليب والطرق · ولكن كان يواجهه هنا أمر من أمور الساعة · لقد بدا له فجأة أنه ربما هـرب اذا ما دخل معركة · لقد اضطر أن يعترف فيما يتصل بالحرب أنه لا يعرف شيئا عن نفسه ·

من وقت كاف فيما مضى لم يسمح للمشكلة أن تثير اهتمامه . ولكنه أحس الآن بأنه مضطر لأن يوجه اليها اهتماما كبيرا ·

أخذ شيء من الذعر يستولى على عقله ، واذا ما اتجه خياله الى القتال، رأى الاحتمالات المخيفة · كان يفكر فى مخاطر المستقبل الكامنة ، وفشل فى محاولته ليرى نفسه يقف بجرأة وسطها · لقد استرجع تخيلاته عن المجد الجريح ، ولكن فى ظل الضوضاء المحدقة تشكك فى انها لا يمكن أن تكون صورا حقيقية ·

ونهض من سريره وبدأ يذرع الغـرفة فى عصـبية جيئة وذهابا ، وقال بصوت عال : « يا الهى الطيب · ماذا حل بى ؟ » ·

لقد أحس فى هذه المحنة بأن نواميس حياته لا فائدة منها · ان كل ما خبره عن نفسه صار هنا عديم النفع · لقد كان كما مجهولا · لقد رأى أنه ربما اضطر ثانية الى أن يخضع لتجربة كما اضطر الى ذلك فى بداية شبابه · يجب أن يجمع بيانات عن نفسه وفى الوقت نفسه قرر أن يبقى ملتزما بحراسته خشية أن تلك الصفات التى يجهلها قد تفضحه على الدوام، وكرر فى فزع : « يا الهى الطيب ! » ·

وبعد مدة تسلل الجندى المديد القامة بمهارة عبر الفجوة وفى أعقابه « النفر » ذو الصوت الجهورى ، وكانا يتشاجران ·

وقال الجندى المديد القامة وهو يدخل : « لا بأس بكل هذا » ولوح بيديه معبرا واستطرد « تستطيع أن تصدقنى أو لا تصدقنى ، كما يتراءى لك ، ان كل ما عليك أن تفعله هو أن تجلس وتنتظر فى هدوء ما وسعك ذلك ، ثم بعد وقت قريب جدا ستجد أننى كنت على صواب • » •

وزمجر زميله فى عناد ، وللحظة بدا أنه كان يبحث عن رد هائل ، ثم قال أخيرا : « حسن ، أنت لا تعرف شيئا فى العالم ، أليس كذلك ؟ » •

ورد عليه الآخر بحدة : « أنا لم أقل انى أعرف كل شىء فى العالم » وبدأ يرتب أشياء فى جعبته فى أناقة •

وتوقف الفتى فى مشيته العصبية وألقى نظرة على الشخص المنهمك وتساءل : « أتكون هناك معركة بصورة مؤكدة يا جيم ؟ » •

وأجاب الجندى المديد القامة : « هناك معركة بلا ريب ، هناك معركة بلا ريب • انتظر قليلا حتى غد وستشهد معركة من أضخم المعارك التى شوهدت • انتظر فقط • » •

وقال الفتى : « يا الهى ! » •

وأضاف الجندى المديد القامة : « آه ، ستشهد قتالا هذه المرة يا بنى ، ستكون حربا نظامية مستمرة » • قالها بهيئة الرجل الذى كان على وشك أن يعرض معركة لصالح أصدقائه •

وصاح الرجل ذو الصوت الجهورى من أحد الأركان : « هه ! » •

وعلق الفتى قائلا : « حسن ، أرجو ألا تصبح هذه الرواية مجرد رواية كسابقتها • » •

وأجاب الجندى المديد القامة وهو مغيظ : «لن تكون مثلها تماما•»• واستطرد : « لن تكون مثلها تماما • ألم تبدأ الخيالة كلها فى التحرك هذا الصباح ؟ » قالها وهو يتطلع حواليه • ولم ينكر أحد عبارته ،

واستمر قائلا : « بدأت الخيالة فى التحرك هذا الصباح · يقولون انه يندر أن تجد فارسا متبقيا فى المعسكر ، سيتوجهون الى « ريتشموند » أو مكان آخر ، على حين سنحارب كل الشباب · انها حيلة مثل هذه · لقد تلقت الفرقة تعليمات أيضا · لقد قال لى شخص منذ فترة وجيزة انه رآهم يتوجهون الى القيادة · انهم يشعلون النيران فى المعسكر بأسره — ان أى فرد يستطيع أن يرى ذلك · » ·

وقال الرجل ذو الصوت الجهورى : « هراء ! » ·

وظل الفتى صامتا للحظة وتحدث أخيرا الى الجندى المديد القامة وقال: « جيم ! » ·

« ماذا ؟ » ·

« ماذا تظن الفرقة فاعلة ؟ » ·

« آه ، أعتقد أنهم سيقاتلون كما ينبغى بعد أن دخلوها » · قالها الآخر فى حكم بارد ، واستخدم ضمير الغائب استخداما طريفا وقال : « لقد انهالت عليهم أكوام من المزاح لأنهم جدد ، وكان هذا هو كل شىء بطبيعة الحال ، ولكنى أعتقد أنهم سيقاتلون كما ينبغى · » ·

وقال الفتى فى اصرار : « ألا تعتقد ان واحدا من الأولاد سيهرب ؟ » ·

فقال الآخر فى تساهل : « آه ، قد يهرب قلة منهم ولكن هناك فئة منهم فى كل فرقة خاصة عندما يدخلون المعركة لأول مرة · » واستطرد قائلا فى تسامح : « وقد يحدث بطبيعة الحال أن يبدأ كل الحشد فى الهروب لو أن قتالا كبيرا بدأ ، ثم مرة أخرى قد يبقون ويحاربون كما لو كانوا يمزحون · ولكنك لا تستطيع أن تجزم بشىء ، وهم لم يسبق لهم ، بطبيعة الحال ، أن شهدوا قتالا قط من قبل ولا يحتمل أن يضربوا جيش الثوار دفعة واحدة فى أول الأمر ، ولكنى أظن أنهم سيحاربون أفضل من البعض ، ان لم يكن أسوأ من الآخرين · هذا هو ما أتصوره ·

انهم يطلقون على الفرقة «السمك الطازج» وما شاكل ذلك ، ولكن الأولاد من أصل طيب ومعظمهم يحاربون مثل الخطيئة بعد أن يكونوا قد اعتادوا مرة على التصويب · » كان هذا ما أضافه بتوكيد فيه حزم على الكلمات الأربع الأخيرة ·

وبدأ الجندى ذو الصوت الجهورى يقول فى ازدراء : « آه ، تظن أنك تعلم ·· ·· » ·

وتطلع اليه الآخر فى وحشية ، ودخلا فى شجار سريع وأخذا يلصقان ببعضهما مختلف النعوت الغريبة ·

وأخيرا أوقفهما الفتى وقال متسائلا : « هل تظن قط أنك نفسك قد تهرب يا جيم ؟ » وعندما ختم جملته ضحك كما لو كان يقصد أن يوجه نكتة فضحك الجندى ذو الصوت الجهورى مستهزئا هو الآخر ·

ولوح «النفر» المديد القامة وقال فى عمق : حسن ، لقد ظننت أنه يحمى وطيس المعركة على نحو لا يحتمله «جيم كونكلين» ، واذا بدأت مجموعة الأولاد كلها وهربت ، فاننى أعتقد أننى قد أبدأ فى الهروب ، واذا بدأت مرة فى الهروب فساهرب كالشيطان ولا خطأ فى هذا · ولكن لو ظل كل فرد ثابتا ، يحارب ، اذن سأقف وأحارب · ويحك ، سأفعل · أراهن على هذا » ·

وقال الجندى ذو الصوت الجهورى : « هه ! » ·

وأحس الفتى بطل هذه الرواية بالعرفان بالجميل لهذه الكلمات التى تفوه بها صديقه · لقد كان يخشى أن يكون كل الرجال غير المحنكين عندهم ثقة عظيمة وصحيحة · لقد صار الآن مطمئنا الى حد ما ·

# الفصل الثانى

اكتشف الفتى فى الصـــباح التالى أن صـديقه المديد القامة كان أسرع ناقل للخطـــأ . لقد نال الزميل المديد : الكثير من سخرية من كانوا بالأمس أقوى أنصـــار وجهات نظره ، بل ناله شىء من الاستهزاء من الرجال الذين لم يؤمنوا قط بالشائعة . وتشاجر الرجل المديد القامة مع رجل من « شاتفيلد كورنرز » وضربه ضربا مبرحا .

ومع ذلك فلم يحس الشاب بأن مشـكلته قد زال عبـؤها عنـه بصورة ما . كان هناك ، على العكس ، امتداد للقلق . لقد خلقت فيـه القصة قلقا بالغا على نفسه . والآن ، وقد طرأ على ذهنه سؤال وليد، اضطر الى أن يعود ثانية الى وضعه القديم كجزء من مظاهرة زرقاء .

ولأيام اخذ يقدر تقديرات لا نهـاية لها ولكنها كانت جميعها غير مرضية بصورة عجيبة . لقـد وجد أنه لا يسـتطيع ان يقرر شـيئا . واخيرا وصل الى نتيجة مؤداها أن السبيل الوحيد ليبرهن على وجوده هو نفسه هو أن يذهب الى اللهيب ثم يشاهد ، مجازا ، ساقيه ليكتشف ما فيهما من مزايا وعيوب . لقد سلم فى تردد بانه لا يستطيع ان يجلس ساكنا ويستخلص جـوابا ؛ لأنه كى يفوز به يجب أن يواجه لهيبا ودما وخطرا ، بل ويكون ككيماوى يطلب هذا وذاك وغيره ، لهذا كان يتحرق شوقا الى فرصة تتاح له .

وفى الوقت نفسه حاول باستمرار أن يقيس نفسـه بأصدقائه ، فمثلا الجندى المديد القامة كان يمده بجانب من الثقة : ذلك أن ما يتصف

به هذا الرجل من رصانة ولا مبالاة قد أمده بقدر من الثقة لأنه كان يعرفه منذ طفولته ، ومن معرفته الوثيقة به لم ير كيف يستطيع أن يكون قادرا على أى شىء كان بعيدا عنه . ومع ذلك فقد فكر فى أن صديقه ربما كان مخطئا فى ذلك هو نفسه ، أو ، من ناحية أخرى . قد يكون رجلا كتب له أن يعيش حتى الآن مغمورا فى سلام ولكن معدنه سيتلألأ بريقه فى الحرب .

ربما أحب الفتى أن يكتشف شخصا آخر كان يتشكك فى نفسه ، اذ قد يتملكه الطرب فى حالة المقارنة العاطفية للملاحظات الذهنية .

لقد حاول من وقت لآخر ان يسبر غور صديق ذى عبارات مغرية ، وتطلع حواليه ليكتشف رجالا فى حالة نفسية طيبة . لقد فشلت كل المحاولات لكى يكتشف أية عبارة تبدو فى أية صورة كاعتراف بتلك الشكوك التى أحس بها سرا بينه وبين نفسه . لقد خشى من أن يقدم اعترافا جريئا ازاء ما رأى من مكابرة عالية والا كان محلا للسخرية .

وفيما يتصل بالزملاء ، كان ذهنه مترددا بين رأيين طبقا لحالته ، فكان احيانا يميل الى اعتبارهم جميعهم ابطالا ، وفى الحقيقة كان عادة يعترف سرا بتمتع الآخرين بصفات أسمى من صفاته . كان يستطيع أن يتصور رجالا يجولون فى العالم بلا معنى حاملين عبء شجاعة غير مرئية ، وعلى الرغم من انه قد رأى كثيرين من أقرانه أثناء طفولتهم ، فقد بدأ يخشى من أن حكمه عليهم كان حكما أعمى . ثم ، فى لحظات اخرى ، كان يسخر من هذه النظريات ويؤكد لنفسه أن اصدقاءه يتملكهم الادعاء والعجب .

لقد جعلته عواطفه يشعر بأنه غريب ازاء رجال تحدثوا فى اثارة عن معركة منتظرة كما لو كانوا يتحدثون عن مسرحية كانوا على وشك مشاهدتها ، ولا يظهر على وجوههم شىء سوى التلهف والتطلع ، وغالبا ما كان يتشكك فى انهم كانوا كاذبين .

لم تمر به قط هذه الخواطر دون أن يلوم نفسه لوما قاسيا · وكان يحس فى أوقات بطنين اللوم . كان يتهم نفسه بكثير من الجرائم المشينة ازاء آلهة التقاليد .

وفى قلقه البالغ كان قلبه فى صخب على الدوام على ما اعتبره كسل القواد الذى لا يحتمل . يبدو انهم كانوا راضين بأن يقبعوا هادئين على شاطىء النهر ويتركوه يطاطىء رأسه من عبء مشكلة كبيرة · لقد ارادها أن تسوى فى الحال . لقد قال انه لا يمكن أن يحتمل طويلا مثل هذا العبء . كان غضبه من القادة يصل فى بعض الأحيان مرحلة حادة ، وكان يعلن عن تذمره فى المعسكر كما لو كان واحدا من المحنكين .

ومع ذلك ، فقد وجد نفسه ذات صباح فى صفوف فرقته التى كانت مستعدة · وكان الرجال يتهامسون بتأملات ويسترجعون الشائعات القديمة · وفى الحلكة قبل بداية اليوم كان زيهم الرسمى يتوهج بلون أرجوانى داكن · ومن خلال النهر كانت العيون الحمر ما زالت تتطلع اليهم · وفى السماء الشرقية كانت هناك بقعة صفراء مثل سجادة القيت لتسطع عليها الشمس الجديدة ، وفى مواجهتها بدت صورة ضخمة للمقدم وهو يمتطى صهوة جواد ضخم ، بدت صورة سوداء على هيئة تمثال .

ومن بعيد سمع فى الظلمة وقع أقدام . كان الفتى يستطيع ان يرى من وقت لآخر ظلالا سوداء تتحرك مثل الوحوش . وتوقفت الفرقة بلا حراك لمدة بدت له طويلة · وصار الفتى نافد الصبر ، وكانت الطريقة التى تباشر بها هذه الأمور طريقة لا يمكن احتمالها ، وكان يتعجب : الى متى سيظلون منتظرين ·

ولما تطلع حواليه وفكر فى الظلمة الغامضة ، بدأ يعتقد أن المسافة المشئومة قد تشتعل فى أية لحظة ، وبلغت أذنيه أصوات قعقعة معركة ، وتطلع مرة الى العيون الحمراء عبر النهر وادرك انها تزداد

كبرا كدوائر صف من حيوانات التنين تتقــدم . والتفت الى المقــدم وراه يرفع ذراعه الضخمة ، وفي هدوء يمسح شاربه .

واخيرا سمع عند سفح التل وقع حوافر حصان تجرى على طول الطريق . لابد ان تكون قد وردت أوامر ، ومال الى الأمام وهو لا يكاد يتنفس . وبدا صوت حوافر الجواد المثيرة ، وقد صار أعلى وأعلى . كأنما تدق على روحه . وفي تلك الأثنــاء اذا بفارس بعتاده العســكرى الذى يخشخش ، يجذب لجام جواده ليوقفه أمام مقدم الفرقة . وتبادل الاثنان حوارا قصيرا حادا بكلمات ، واشرأبت أعناق الرجال في مقدمة الصفوف.

ولما اســتدار الفارس بجواده ، وركض بعيــدا التفت ليصيح من فوق كتفه « لا تنس ذلك الصندوق ، صندوق السيجار ! » ورد عليه المقدم في تمتمة . وتعجب الفتى ، ما دخل صندوق سيجارة في الحرب .

وبعد ذلك بلحظة كانت الفرقة تسبح في ظلام دامس . لقد صار الآن مثل واحد من تلك الوحوش المتحركة التى تمضى فى سبيلها ولها عــدة أقدام . وكان الجــو ثقيلا وباردا بما فيه من ندى ، واذا ما سرت فوق مجموعة من الكلأ المبلل سمعت حفيفا كحفيف الحرير .

ومن وقت لآخر كان ياتى وميض وضياء الصــلب من خلف كـل هـــذه الأفاعى الضــخمة الزاحفة ومن الطريق أتت أصـــوات صريف ودمدمة كما لو كانت بعض المدافع القاتمة تسحب بعيدا .

كان الرجال لا يزالون يتحـــدثون في همهمة عن التــأملات . كان هنالك جدال رقيق . مرة سقط رجل وبينما كان يحاول الوصول الى بندقيته اذا برفيق يدوس على يده دون أن يراه ، فلما آلمته أصــابعه جعــل يسب ويشــتم فى مرارة . وسرت بين زملائه ضحكة خافتــة مكتومة .

لقد مروا فى الحــال بطريق المركبات وســاروا أماما فى خطوات

سهلة وتحركت فرقة سوداء امامهم ، وجاء من الخلف أيضا صوت عتاد عسكرى على ظهور المشاة .

وسطع على ظهورهم اللون الأصفر المتدفق لليوم الذى أخذ فى البزوغ . ولما اخذت أشعة الصباح تسقط أخيرا كاملة وفى رقة ، رأى الفتى أن المنظر الخلوى كان مخططا بعمودين طويلين رفيعين أسودين اختفيا على حافة جبل فى الأمام وتلاشت مؤخرة الجيش فى غابة . لقد كانا مثل ثعبانين يزحفان من مغارة الليل .

ولم يكن النهر على مدى البصر . وانفجر الجندى المديد القامة في مديح حين ظن أنه يبين مدى قوى ادراكه : « لقد قلت لكم هذا ، ألم أقل ذلك ؟ » .

وصاح بعض اخوان الجندى المديد القامة بتأكيد أنهم ، أيضا ، اذاعوا نفس الشيء وانهم هنأوا أنفسهم على ذلك ، ولكن كان هناك آخرون قالوا ان خطة الرجل المديد القامة لم تكن سليمة بالمرة . لقد تمسكوا بنظريات أخرى . وكان هناك نقاش عنيف .

ولم يشترك الفتى فى واحد منها ، وبينما كان يسير على طول فى صف مهمل ، انشغل بجدله الشخصى الأبدى . لم يستطع أن يمنع نفسه من أن يعيش عليه . كان قانطا ومكتئبا ، ينقل نظراته حواليه ، ويتطلع الى الأمام وغالبا ما يتوقع أن يسمع عن تقدم قعقعة الضرب .

ولكن الثعابين الطويلة أخذت تزحف ببطء من تل الى تل دون صخب أو دخان . وسبحت بعيدا الى اليمين سحابة من الرماد داكنة اللون وكانت السماء فوق رأسه زرقاء صافية .

أخذ الفتى يتفحص وجوه اخوانه وكان يراقبهم دائما ليكتشف عواطفهم التى تشبه عواطفه . لقد قاسى من خيبة أمل . كانت بعض نسمات الهواء التى جعلت القادة المحنكين يتحركون فى طرب ـ بل كادوا

يغنون ـ قد سرت فى الفرقة الجديدة . لقد بدأ الرجال يتحدثون عن النصر كما لو كانوا يتحدثون عن شيء عرفوه . وتلقى الجندى المديد القامة ، أيضا ، ما يؤيد قوله . كان عليهم بكل تأكيد أن يلتفوا خلف العدو . لقد أعربوا عن شفقتهم على ذلك الجانب من الجيش الذى خلفوه على شاطىء النهر ، مهنئين انفسهم بأنهم صاروا جزءا من جيش عاصف .

أما الفتى الذى كان يعتبر نفسه منفصلا عن الآخرين ، فقد احزنته الأحاديث البهيجة المرحة التى تنفلت من صف الى صف ، وبذل كافة الماجنين فىالفرقة أحسن مساعيهم لاشاعة المرح واستحالت حال الفرقة الى حد الضحك .

وغالبا ما كان الجندى الصاخب يهز كافة الطوابير بسخرياته اللاذعة التى كانت موجهة الى الرجل المديد القامة .

ولم يمض وقت طويل حتى بدا أن الرجال جميعهم قد نسوا مهمتهم وضحكت كافة الألوية متحدة ضحكا فاترا ، كما ضحكت الفرق العسكرية .

وحاول جندى بدين نوعا ما أن يسلب جوادا من باب حظيرة ، وكان قد دبر أن يحمل جعبته عليه . وما كاد يهرب بغنيمته حتى اندفعت فتاة من المنزل وامسكت عرف الجواد واعقب ذلك مشاجرة ، ووقفت الفتاة بوجنتيها الحمراوين وعينيها البراقتين ، مثل تمثال شخص باسل .

واذا بفرقة المراقبة التى كانت تقف بلا حراك فى طريق المركبات، تصيح على الفور وتدخل وكلها حماس ، الى جانب الفتاة . واستغرق الرجال استغراقا شديدا فى هذه المسألة حتى أنهم توقفوا تماما عن أن يتذكروا حربهم الكبرى ، وسخروا من «النفر» القرصان ووجهوا أنظارهم الى مختلف العيوب فى مظهره الشخصى ، وكانوا شديدى الحماس فى تأييدهم للفتاة .

وبلغتها من بعيد نصيحة تنطوى على الشــجاعة : « اضربيــه بعصــا • » •

واذا بتهليلات وصيحات السخرية تنهال عليه وهو يعود بدون جــواد • وفرحت الفرقة لفشــله وانهالت على الفتـــاة التهانى صاخبة وصارخة وكانت الفتاة تقف لاهثة تتطلع الى الفرقة العسكرية فى تحد .

وعند حلول الليل انقسم اللواء الى فرق وتوجهت المجموعات الى الساحات الى المعســكر • وكانت المخيمات قائمة مثــل النباتات الغريبة ونيران المعســكر مثــل الأزهار الحمراء الغريبة ، بدت بمثابة نقط على صفحة الليل .

وامتنع الفتى عن مخالطة اخوانه كلما سنحت له الظروف . وفى المساء كان يتجول بضع خطوات فى الظلمة . ومن هذه المسافة البسيطة كانت للنيران العديدة تأثيرات سحرية وشيطانية بما اتخذته من أشكال سوداء للرجال فى غدوهم ورواحهم أمام الأشعة الضاربة فى الحمرة •

ورقد الفتى على الكلأ وأوراقه تضغط برفق على وجنتيه • وكان القمر مضــيئا ومعلقا فى قمة الشــجرة ، أما ســكون الليل الذى كان يغلفه فقد جعله يحس بشفقة شديدة على نفسه ؛ وكان هنــاك دلال فى الرياح الناعمة ، وظن أن حالة الظلمة الحالكة بأسرها تواسيه فى قلقه •

كان يرغب ، بدون تحفظ ، أن يعود لداره ثانيــة ليقوم بجولات لا نهاية لها من الدار الى الجرن ، ومن الجرن الى الحقول ومن الحقول الى الجرن ومن الجرن للدار . لقد تذكر أنه غالبا ما لعن البقرة المحططة بلون داكن ، كما لعن أقرانه ، وأحيانا كان يرمى بكراسى الحلب ، ولكن من وجهــة نظره الراهنة كانت هناك هالة من الســعادة حول رأس كل منهم ، ولربما ضحى بكل الأزرار النحاسية الموجودة على القــارة حتى يتمكن من العودة اليهم • لقد قال لنفسه انه لم يخلق ليكون جنديا ، وكان يفكر جديا فى التباين الأســاسى بين نفســه وبين أولئك الرجال الذين كانوا يتحركون بسرعة مثل الشياطين حول النيران •

وبينما كان يفكر كذلك سمع حفيف الكلأ ولما أدار رأسه اكتشف الرجل ذا الصوت الجهورى وصاح به : « ويلسون ! » .

واقترب الأخير وخفض ناظريه وتساءل : « ويحك ، أهلا ، هنرى ، أهذا انت ؟ ماذا تفعل هنا ؟ » .

فقال الفتى : « أفكر » .

وجلس الآخر وفى عناية أشعل غليونه وقال : « لقد صرت أزرق يابنى . تبدو كما لو كنت صعقت . أى سوء حل بك ؟ »

فأجاب الفتى : « لا شىء . » .

ثم دخل الجندى ذو الصوت الجهورى فى موضوع الحرب المرتقبة : « لقد ظفرنا بهم الآن ! » وبينما هو يتحدث كان وجهه الصبيانى قد أحاطت به ابتسامة مرحة وفى صوته رنة نصر ، واستطرد قائلا : « لقد ظفرنا بهم الآن ، وأخيرا بالقصف الخالد سنضربهم ضربا مبرحا ! »

وأضاف : « لو عرفت الحقيقة » أضافها وهو أكثر رزانة ثم استطرد : « لقد ضربونا كل مرة تقريبا حتى الآن ولكن هذه المرة - هذه المرة - سنضربهم ضربا مبرحا ! »

وقال الشاب ببرود : « أظن أنك كنت تحتج على هذه المسيرة منذ برهة وجيزة . »

وشرح الآخر قائلا : « آه ، لم يكن ذاك ، اننى لا أبالى بالسير اذا كان هناك قتال فى نهايته - أن ما أبغضه هو هذا التحرك هنا والتحرك هناك بلا نتيجة طيبة ، هذا هو أقصى ما أستطيع أن أراه ، سوى أقدام محتقنة وتموين لعين ناقص . »

« حسن ، يقول جيم كونكلين اننا سنجد قتالا كثيرا هذه المرة » .

« انه على صواب لمرة واحدة ، على ما أعتقد ، على الرغم من اننى لا أستطيع أن أرى كيف حدث ذلك . فى هذه المرة سندخل معركة

كبيرة وقد حصلنا على أحسن نتيجة لها . هذا أمر مؤكد . يا الهى ! كم سنضربهم ضربا مبرحا ! »

ونهض وبدأ فى ذرع المكان جيئة وذهابا وهو فى انفعال . ان نشوة الحماس قد جعلته يسير بخطوة مرنة . لقد كان طروبا ، ذا عزم ، متقدا فى ايمانه بالنجاح وكان يتطلع الى المستقبل بعين صافية فيها عزة وكان يتكلم بلهجة الجندى القديم .

وراقبه الفتى للحظة فى سكون وعندما تحدث أخيرا كان صوته مرا كالعلقم ، وقال : « ستقومون بأعمال عظيمة ، على ما أعتقد ! »

ونفث الجندى ذو الصوت الجهورى سحاب دخان من غليونه ينم عن تفكير ، وعلق فى كبرياء : « لا أعرف » واستطرد : « لا اعرف ، أعتقد اننى سأفعل كما سيفعل الآخرون . سأحاول أن أعمل كالرعد » وكان واضحا أنه يمتدح نفسه مع تواضع عبارته .

وتساءل الفتى : «كيف تعرفون أنكم لن تهربوا اذا ماحل الوقت؟ » .

فقال صاحب الصوت الجهورى : «نهرب؟» واستطرد ضاحكا : « نهرب ؟ كلا ، بلا شك ! »

واستمر الفتى قائلا : « حسن ، لقد فكر كثير من الرجال أنهم سيقومون بأعمال عظيمة قبل القتال ، ولكن عندما حل الوقت لاذوا بالفرار » .

واجاب الآخر : « اعتقد ان هذا كله صحيح » واستطرد : « ولكننى لن أهرب .. ان الشخص الذى يقامر على أننى سأهرب سيفقد رهانه ، لا شك فى هذا . » وأومأ فى ثقة .

فقال الفتى : « هراء ! » « انك لست أشجع رجل فى العالم ، أليس كذلك ؟ »

وقال الجندى ذو الصوت الجهورى متعجبا فى غضب : « كلا ، لست أشجع رجل فى العالم ولم أقل انى كذلك بل قلت اننى سأقوم بواجبى فى القتال ـ هذا ما قلته . على أية حال ، من أنت ؟ أنت تتحدث

كما لو كنت تظن انك نابليون بونابرت . » وسدد الى الفتى نظرة للحظة ثم خطا بعيدا عنه .

وصاح الفتى فى صـــوت موحش على رفيقه : « لا داعى لجنونك من قولى هذا ! » ولكن الآخر استمر فى طريقه ولم يجب .

أحس بالوحدة فى الفضاء لما اختفى رفيقه الجريح . انه لم يستطع كشف أى تشابه صغير فى وجهات نظرهما فأدى ذلـــك الى شـــعوره بمزيد من التعاسة . ويبدو أنه لم يكن هناك من أحد يصارع مثل هـذه المشكلة الشخصية الرهيبة . لقد كان منبوذا عقليا .

وتوجه فى بطء الى خيمته ومدد نفسه على بطانية بجانب الجندى المديد القامة . وفى الظلمة رأى رؤيا تنم عن الخوف الشديد الذى قد يلاحقـه ويدفع به الى الهروب فى حين كان الآخرون يبـاشرون فى برود أعمال البلاد . لقد اعترف بأنه لا يستطيع أن يتصدى لهذا الوحش . لقـد احس بأن كل عصب فى جســده قد يســتحيل الى أذن تســمع الأصوات بينما قد يظل الرجال الآخرون صما وأغبياء .

ولما تصبب عرقا من أوجاع هـذه الأفكار كان فى اســتطاعته أن يسمع كلمات خفيضة هادئة : « سأطلب خمسة » « اجعلها ســتة » « سبعة » « سبعة لا مانع » .

وتطلع الى انعكاس النـــور الأحمر المرتعش على الجـدار الأبيض للمخيم حتى غط فى النوم ، وقد أنهكه التعب لشدة ما عاناه من ملل وآلام .

# الفصل الثالث

وعندما حل ليل آخر ، اصطفت الألوية ، وقد تحولت الى خطوط ارجوانية ، عبر جسرين عائمين . وصبغت النار المتوهجة مياه النهر بلون النبيذ ، واشعتها المضيئة فوق كتل الفرق المتحركة تصدر هنا وهناك أومضة مفاجئة فى لون الفضة أو الذهب . وعلى الشاطىء الآخر كانت سلسلة داكنة وغامضة من التلال منحنية قبالة السماء ، وكانت أصوات حشرات الليل تغنى فى خشوع .

وبعد هذا العبور أكد الفتى لنفسه أنهم فى أية لحظة قد يهاجمهم العدو فجأة وبصورة مخيفة من الكهوف فى الغابات المنخفضة . لقد أخذت عيناه ترقبان الظلام .

ولكن فرقته توجهت فى غير ما ضيق الى مكان لتعسكر فيه ، ونام جنودها أعمق نوم ينامه رجال مجهدون . وفى الصباح أوقظوا فى نشاط مبكرين وأسرعوا على طول طريق ضيق مضى متغلغلا فى الغابة .

وخلال هذه المسيرة السريعة فقدت الفرقة كثيرا من علامات القيادة الجديدة .

وبدأ الرجال يعدون الأميال على أصابعهم واشتد بهم التعب وقال الجندى صاحب الصوت الجهورى : «كل مافى الأمر أقدام محتقنة ونقص لعين فى التموين . وكان هناك عرق وتذمر ، وبعد وقت بدءوا

يلقون بجعباتهم وأخذ البعض يلقيها أرضا بلا اكترات وآخرون أخفوها فى عناية مؤكدين العودة اليها فى الوقت المناسب . وتخلص الرجال أنفسهم من القمصان الثقيلة . وفى الحال لم يحمل قلة منهم شيئا فيما عدا ملابسهم الضرورية والبطانيات ومؤوناتهم وزمزمياتهم والأسلحة والذخيرة . قال الجندى المديد القامة للفتى : « تستطيع الآن أن تأكل وتشرب وتنام وتطلق النار» واستطرد قائلا : «هذا هو كل ماتحتاج اليه . ماذا تريد أن تفعل ـ أتريد أن تحمل فندقا ؟ » . كان هناك تغيير مفاجىء من مشاة ثقيلة جدا وفقا لنظرية الى مشاة خفيفة وسريعة وفقا لتجربة . والفرقة ، وقد تخلصت من حملها ، تلقت قوة دافعة جديدة ، ولكن كانت هناك خسارة كبيرة فى الجعبات الغالية وبوجه عام القمصان الممتازة .

ولكن الفرقة لم تكن قد اتخذت بعد مظهر الحنكة . والفرق المحنكة فى الجيش من المحتمل ان تكون مجموعات صغيرة جدا من الرجال . وذات مرة ، عندما جاءت القيادة الى الميدان لأول مرة لاحظ بعض المحنكين المتجولين طول طابورهم ، بادروهم بالكلام على هذه الصورة : «هيه ، أيها الرفاق ، اى لواء ذاك ؟» وعندما اجاب الرجال انهم قد شكلوا فرقة ولم يشكلوا لواء ، ضحك الجنود القدامى وقالوا : «ياالهى !»

كان هناك أيضا تشابه كبير جدا فى القبعات ، فقبعات الفرقة يجب أن تمثل بانتظام تاريخ غطاء الرأس لفترة من السنين ، وفضلا عن هذا لم تكن هناك حروف من الذهب الباهت تنطق من الألوان . لقد كانت جديدة وجميلة وكان حامل العلم من الطبيعى أن يدهن الصارى .

وفى الحال جلس الجيش ثانية ليفكر ، وكانت رائحة أشجار الصنوبر الساكنة تتخلل خياشيم الرجال . وكان صوت ضربات الفأس الضخم ترن خلال الغابة ، وكانت الحشرات وهى منحنية فوق مجاثمها تدندن مثل النسوة المسنات ، وعاد الفتى الى فكرة المظاهرة الزرقاء .

ومع ذلك ، ففى فجر أغبش ، رفسه الجنـــدى المديد القـــامة فى ساقه ، ثم ، قبل أن يستيقظ تمام الاستيقاظ ، وجد نفسه يجرى فى نغمة توقيعية رتيبة وكان جراب مؤونته يتذبذب فى رقة وكانت بندقيته تقفز قليلا من كتفه عند كل خطوة وجعلت قبعته تحس بعدم استقرارها فوق رأسه .

كان فى استطاعته سماع الرجال وهم يهمســـون بجمل مهتزة : «أقول ــ كل هذا ــ ماذا وراءه ؟ » «ياالهى ــ نحن نهرب بهذا الأسلوب ــ لماذا ؟ » «ابعـد عن قدمى يابيللى . أنت تجرى كالبقرة .» وأمكن سماع صوت الجندى صاحب الصوت الجهورى وهو يجلجل . «بحق الشيطان فيم هذه العجلة ؟ »

وظن الفتى أن الضباب المبلل فى الصباح البـاكر قد تحرك من تدفق الهيكل الضخم للفرق العســكرية ، ومن بعيد جاء رذاذ طلقات نارية مفاجئة .

وكان فى حيرة اذ بينما كان يجرى مع أقرانه حاول أن يفكر بجرأة ولكن كل ما عرفه هو أنه اذا ســقط فان أولئك القــادمين خلفــه قد يدوسونه . يبدو أنه كان فى حاجة الى كل قواه العقلية لكى تقوده الى تخطى العوائق ؛ وأحس أنه مسوق الى السير بحشد من البشر .

ونشرت الشمس أشعتها الكاشفة ؛ وأخذت الفرق تبدو للعيــان واحدة بعد الأخرى وكأنها ولدت لتوها من الأرض ، وأدرك الفتى أن الوقت قد حان . كان على وشك أن يختبر ، وبدا طفلا فى مواجهة هذه الصعاب الكبرى ، وأخذ يشعر بالخــوف . وانتهز الفرصــة ليتدبر موقفه .

ولكنه رأى فى الحال أنه قد يستحيل عليه أن يهرب من الفرقة . لقد كان ضمنها وكانت هناكِ قوانين تقليدية من حديد والقانون محيط به من جوانب أربعة وكأنه فى صندوق متحرك .

ولما أدرك هــذه الحقيقة خطر له أنه لم يرغب قط أن يأتى الى الحرب . انه لم يسجل اسمه بمحض اختياره ، لقــد جرته حكومته التى انعدمت شفقتها الى ذلك جرا ، وهم يقتلعونه الآن ليكون مآله الذبح .

وانحدرت الفرقة مع انحدار الشاطىء وغاصت عبر جدول ماء صغير ، وكان التيار الحزين يتحرك فى بطء ، ومن الماء ، وكان ظله اسود ، تطلعت الى الرجال بعض عيون فقاعات بيضاء .

وبينما كانوا يصعدون التل على الطرف البعيد بدات المدفعيــة تهدر بشدة . وهنا نسى الفتى امورا كثيرة اذ أحس بباعث مفاجىء لحب الاستطلاع ، وتسلق زاحفا الشاطىء بسرعة لا يمكن أن يفوقه فيها الرجل المتعطش للدم .

لقد توقع مشهد معركة .

كانت هناك بعض الحقول الصغيرة تكتنفهــا أو تعتصرها غابة . كان فى استطاعته أن يرى فوق الكلأ وبين جذوع الشجر ، تجمعــات منتشرة وصفوفا متحركة من المنــاوشــين الذين كانوا يتحركون هنــا وهناك ويصوبون النار الى الأرض الخالية . وكان هناك خط قتــال داكن يقع على أرضية خالية لفحتها الشمس تلمع بلون برتقــالى . وكان هناك علم يرفرف .

وصعدت الشاطىء فرق اخرى وتشكل اللواء فى خط قتــال ، وبعد سكون بدأ ببطء خــلال الغابات فى مؤخرة المناوشــين المتقهقرين الذين كانوا يذوبون باستمرار فى المشــــهد ليظهروا مرة أخرى بعيــدا جدا . كانوا دائما مشغولين كالنحل ومنهمكين انهماكا عميقا فى معاركهم القليلة .

وحاول الفتى أن يشاهد كل شىء . انه لم يبال مقاومة الأشجار والفروع وكانت قدماه المنسيتان تضربان باســتمرار على الصخور أو تتشابكان فى النبات المتسلق . ورأى هذه الكتائب وهى تتحرك أشبه بخيوط

حمراء أقحمت على النسيج الوادع الهادىء للأرض الخضراء • لقد بدا ان من الخطأ أن يكون هذا المكان ميدان قتال .

وقد أعجب بمنظر المناوشين الذين كانوا فى المقدمة . لقد تحدثت اليه طلقاتهم فى الأدغال وفى الأشجار البارزة البعيدة ، عن مآس خفية وغامضة وخطيرة •

والتقى الطابور مرة بجسد جندى ميت . كان راقدا على ظهره متطلعا الى السماء مرتديا حلة غريبة ذات لون بنى مائل الى الصفرة . وكان فى استطاعة الفتى أن يرى أن كعب حذائه قد تآكل حتى صار فى رقة ورقة الكتابة ، ومن شق كبير فى احدى فردتى الحذاء برزت القدم الميتة فى حالة يرثى لها • لقد بدا كما لو كان القدر قد فضح حال الجندى . لقد اظهر لأعدائه فى موته ذلك الفقر الذى ربما حاول أن يخفيه عن أصدقائه فى حياته .

وفتحت الصفوف خفية لتتفادى أن تدوس الجثة . لقد شق الرجل الميت العتيد طريقا لنفسه . تطلع الفتى بحدة الى الوجه الذى كان فى لون الرماد ، ورفعت الريح اللحية الصفراء . لقد تحركت كما لو كانت يد تمر عليها . لقد كان يرغب فى غموض أن يطوف ويطوف حول الجسد ويتطلع اليه : استجابة لهذا الدافع الذى يحفز الانسان الحى الى محاولة قراءة جواب لسؤاله فى عينى الميت .

وأثناء المسيرة اذا بالرائحة التى كان الفتى قد اكتسبها عندما ابتعد عن منظر الميدان قد تلاشت سريعا الى لا شىء . كان اشباع فضوله من أيسر الأمور . لو أن المشهد القاسى قد تملكه بهزته الوحشية وهو يصعد قمة الشاطىء فلربما أخذ فى الزئير . كان هذا السبق على الطبيعة هادئا جدا . لقد كانت لديه فرصة ليتأمل . كان لديه وقت ليتعجب فيه من نفسه ويحاول أن يسبر غور أحاسيسه •

وتملكته خواطر غريبة . لقد ظن انه لم يتمتع بالمنظر الخلوى . لقد هدده . وسرت برودة فى ظهره ، وكان حقيقيا أن أحس بأن سرواله لا يناسب ساقيه على الاطلاق .

وبدا له منزل قائم في سلام في الحقول البعيدة منظرا شؤما ۰ لقد كانت ظلال الغابات ظلالا مخيفة ۰ لقد كان واثقا أنه في هذا المنظر تختبىء عيون جيش مخيفة ۰ ان أسرع خاطر طرأ على ذهنه هو أن القواد لا يعرفون ما هم قادمون عليه ۰ ان كل ما في الأمر أنه فخ ، وفجأة لا تلبث تلك الغابات القريبة أن تظهر غضبها برصاص البنادق ۰ وقد تظهر ألوية كالحديد في المؤخرة . سيصبحون جميعهم ضحية . لقد كان القادة حمقى . في الحال سيبتلع العدو القيادة بأسرها ، وتلفت حواليه متوقعا أن يشهد مقدم موته الخفي .

وظن أن عليه أن يهرب من الصفوف وان يخطب في أقرانه . يجب الا يقتلوا بالمرة مثل الخنازير ، لقد كان واثقا من ان هذا سيحدث ما لم يحاطوا علما بهذه المخاطر ۰ لقد كان القادة بلهاء اذ بعثوا بهم في مسيرة الى حظيرة منتظمة . لم يكن في الجثة الا زوج من العيون ، قد يخطو الى الأمام ويلقى حديثا ، وقد تجمعت على شفتيه كلمات مجلجلة وعاطفية ۰

أما الطابور ، وقد انقسم الى أقسام في المنطقة ، فقد مشى في هدوء عبر الحقول والغابات ۰ وتطلع الفتى الى الناس الأقربين اليه ، وشاهد ، في الغالبية ، تعبيرات عن اهتمام عميق ، كما لو كانوا يتحرون عن شيء قد فتنهم . وخطا واحد أو اثنان في مزيد من رباطة الجأش كما لو كانا قد انغمسا فعلا في الحرب ، وسار آخرون كما لو كانوا يسيرون على طبقة رقيقة من الثلج ، أما الجانب الأكبر من الرجال الذين لم يوضعوا موضع اختبار ، فقد بدوا هادئين ومنهمكين . كانوا يتطلعون الى الحرب ، الحيوان الأحمر — الحرب ، الاله المنتفخ بالدم . كانوا مستغرقين استغراقا عميقا في هذه المسيرة .

وحبس الشاب صيحة كادت تنطلق من حنجرته ۰ لقد رأى أنه حتى لو كان الرجال يترنحون من الخوف فمن المحتمل أن يضحكوا من تحذيره ۰ واذا كان مخطئا في تقديره فان تحقيرا كهذا قد يقضي عليه قضاء مبرما .

فاتخذ سمة من يعتقد أنه قد ألقيت على عاتقه وحده مسئوليات لم يسطرها قلم ، وتمهل ، ثم تطلع الى السماء بنظرات حزينة .

ففاجأه الملازم الشاب لفرقته فأخذ يضربه بمقبض سيفه وهو يصيح به فى صوت مرتفع وقح : « تعال ، أيها الفتى ، توجه الى صفوفك هناك . لا أسمح بالاختفاء هنا » . وعدل من خطوته بسرعة مناسبة وكان يكره الضابط الذى لم يكن لديه أى تقدير للعقول المرهفة . لقد كان مجرد وحش مفترس .

وبعد فترة توقف اللواء فى الضوء الرهيب للغابة . وكان المناوشون المنهمكون لا يزالون يفرقعون ، وخلال ممرات الغابة كان فى الامكان رؤية الدخان السابح خارجا من البنادق ، وكان يتصاعد أحيانا فى كرات صغيرة بيضاء متماسكة .

وخلال هذا التوقف بدأ كثير من الرجال فى الفرقة فى تشييد تلال صغيرة أمامهم . لقد استخدموا حجارة وعصيا وطينا واى شىء ظنوا انه يصلح كقذيفة . وأقام البعض تلالا كبيرة نسبيا فى حين بدا أن الآخرين كانوا راضين بالتلال الصغيرة .

لقد سبب هذا الاجراء نقاشا بين الرجال . لقد اراد البعض أن يقاتلوا مثل المبارزين ، مؤمنين بأن من الصواب أن تقف معتدل القامة . لقد قالوا انهم كانوا يحتقرون شعارات التحذير ولكن كان يرد عليهم الآخرون مستهزئين وأشاروا الى المحنكين على الجناحين الذين كانوا يحفرون الأرض ككلاب الصيد . وفى وقت قصير كان هناك متراس تام على طول جبهات الفرقة . ومع ذلك فقد صدرت لهم الأوامر مباشرة بالانسحاب من ذلك المكان .

وقد أثار هذا دهشة الفتى . لقد نسى قلقه على حركة التقدم وتساءل موجها حديثه الى الجندى المديد القامة : « حسن ، اذن لماذا دفعونا الى السير الى هنا ؟ » وبدأ الأخير فى ايمان هادىء فى تفسير

ثقيل ، على الرغم من أنه قد اضطر لترك القليل من أحجار وأتربة الدفاع التى كان قد كرس لها الجانب الأكبر من جهده ومهارته .

وعندما حطت الفرقة رحالها فى موقع آخـر ، أدى اهتمام كل رجل بسـلامته الى اقامة خط آخـر من الخنـادق الصـغيرة ، وكانوا يأكلون وجبـة غدائهم خلف خط ثالث ، ويتحركون من هـذا الخط أيضا . لقد طلب منهم السير من مكان الى مكان دون هدف واضح .

لقد تعلم الفتى ان الانسان يصبح شيئا آخر فى المعركة . لقـد رأى خلاصه في مثل هذا التغيير ، ومن ثم فقد كان هذا الانتظار تجربة شـاقة بالنسبة له . لقـد تملكته حمى القلق . كان يعتبر أن هنـاك افتقارا بينا للغرض من جانب القـادة . لقـد بدأ يشكو للجندى المديد القامة فصاح قائلا : « اننى لم أعد أطيق هذا الوضع » واسـتطرد : « اننى لا أرى فائدة فى أن ننهك أرجلنا نظير لا شىء » . كان يرغب فى العودة الى المعسكر ، علما منه بأن هـذا الاجراء كان مظاهرة زرقاء ، والا يذهب الى معـركة ويكتشف أنه كان أبله فى شـكوكه ، وكان ، فى الحقيقـة ، رجـل شجاعة تقليدية . لقـد أحس بأن جهـد الظروف الراهنة لا يحتمل .

وأعد الجندى الفيلسوف المديد القامة ساندويتشا من البسكويت ولحم الخنزير وازدرده فى قلة اكتراث وقال : « آه ، أعتقد اننا يجب أن نقوم باستطلاع حول الاقليم حتى نحول دون شدة اقترابهم أو أن نكشفهم أو أى شىء » .

وقال الجندى ذو الصوت الجهورى : « هه ! »

فصاح الفتى وكان لا يزال قلقا : « حسن ، أفضـل أن أفعل أى شىء عن أن نجول حـول الاقليم طوال اليـوم لا نخـدم أحدا ولا نفعل سوى أن ننهك قوانا » .

وقال الجندى صاحب الصـوت الجهورى : « وكذا أنا ، ليس هـذا بالاجراء الصحيح . أقول لك لو ان أى فرد عنده احسـاس كان يتولى ادارة هذا الجيش لـ .. »

وقال « النفر » المديد القامة مزمجرا : « آه ، صه ! أيها الأبله الصغير ، أيها الملعون الصغير . انك لم يمض على ارتدائك السترة والسروال ستة أشهر ومع ذلك تتحدث كما لو ... »

وقاطعه الآخر : « حسن ، انني أريد أن أشترك في القتال في أية صورة . » واستطرد : « انني لم آت لأسير . كان في استطاعتي أن أعود الى داري – أجول حول وحول وحول الجرن لو انني كنت أريد فقط أن أسير . » .

وازدرد الجندي المديد القامة ، وقد احمر وجهه ، ساندويتشا آخر كما لو كان يتناول سما في يأس .

ولكن وجهه قد صار تدريجيا ، وهو يمضغ ، هادئا مرة أخرى وظهر الرضا على أساريره . لم يكن يريد أن يحتد في نقاش عنيف في وجود مثل هذه الساندويتشات ، وهو دائما أثناء تناوله وجباته يتخذ مظهر التأمل السعيد من الطعام الذي كان يزدرده ، وبدت روحه وقتها على اتصال بالأطعمة .

لقد تقبل البيئة الجديدة والوضع الجديد ببرود تام . كان يأكل مما في جعبته في أية مناسبة ، وفي سيره يمشي بخطى صياد دون اعتراض على هيئة المشية أو المسافة . ولم يرفع صوته عندما صدرت له الأوامر بأن يخرج من ثلاثة أكوام صغيرة للدفاع صيغت من الطين والحجارة ، كل منها كان عملا هندسيا بارعا جديرا بأن يكرس اسم جدته .

وبعد الظهر خرجت الفرقة على الأرض نفسها التي استقرت عليها في الصباح ، ثم لم يعد المنظر الخلوي يهدد الفتى . لقد كان قريبا منه وصار مألوفا له .

ومع ذلك فعندما بدءوا في المرور على اقليم جديد بدأت مخاوفه من الحماقة والعجز تهاجمه من جديد ، ولكن في هذه المرة تركهم يهذون في عناد . لقد تملكته مشكلته ، وفي يأسه انتهى الى أن الحماقة ليست بذات أهمية كبيرة .

وفكر مرة أنه قد وصل الى نتيجة وهى أنه قد يكون من الأفضل ان يقتل مباشرة وينهى همومه . ولما كان يتطلع الى الموت بطرف عينه على هذه الصـــورة ، لذا فقد انتهى الى أنه لا شيء يفضـــل الراحة ، وكانت قد تملكته دهشة طارئة من أنه لابد أنه قد أثار قلقا غير عادى حول مجرد موضوع مقتله . قد يموت وقد يتوجه الى مكان ما يمكن أن يكون معروفا هنـــاك . لقـد كان من العبث أن يتوقع تقـديرا عن احاسيسه العميقة والرقيقة من رجال على شاكلة الملازم . يجب أن يتطلع الى المقبرة فى فهم وادراك .

لقـد زادت نيران المناوشين ، التى لم تتوقف ، الى صـوت القعقعة الطويلة ، وامتزجت بها فرحة بعيدة جدا . وكانت « البطارية » تتكلم .

كان فى استطاعة الفتى أن يشاهد المناوشين مبـاشرة وهم يجرون وكان يعقبهم صـــوت نار البنادق . وبعد فترة كان يرى بريق البنـادق الحار الخطير، واخذت سحب الدخان تتجه فى بطء وصلف عبرالحقول كأنها الأشباح تتفرج ، وارتفع الصمت وصار أشبه بزئير قطار مقبل .

كان أمامهم لواء وقد قام على اليمين بعمـــل كان له زئير ممزق ، كما لو كان قد انفجر ، وبعد ذلك امتد فى المسافة خلف جدار رمادى طويل ، كان على المرء أن يتطلع اليه مرتين ليتأكد من أنه كان دخانا .

وتطلع الفتى وهـو فى ذهـول ، وقد نسى خطته الانيقـة عن أن يقتل ، وأخذت عيناه فى الاتساع وكان مشغولا بفعـل المشـهد . كان فمه فاغرا قليلا .

وفجأة أحس بيد ثقيلة وحزينة قد اسـتقرت على كتفه ، ولـما استيقظ من سكرة التأمل التفت وشاهد الجندى صاحب الصـوت الجهورى .

وقال الأخير : « هذه أول وآخر معركة لى يا صديقى العزيز » . قالها فى حزن شديد . لقد كان شاحبا تمام الشـحوب وكانت شـفته التى تشبه شفة الفتاة ، تختلج .

وتمتم الفتى فى دهشة كبيرة : « اه ؟ »

« انها أول وآخر معركة لى يا صديقى العزيز » واستمر الجندى ذو الصوت الجهورى فى حديثه قائلا : « ان شيئا ما يقول لى ... » .

« ماذا ؟ » .

« اننى شخص ميئوس منه هذه المرة و ... وأريدك أن تأخذ هذه الأشياء الموجودة هنا ــ الى ــ عشيرتى . » واختتم حديثه فى نحيب مرتعش مشفقا على نفسه وناول الفتى ربطة صغيرة ملفوفة فى مظروف أصفر .

وبدأ الفتى حديثه ثانية : « ويحك ، ماذا بحق الشيطان ... » .

ولكن الآخر نظر اليه كما لو كان يتطلع اليه من أعماق قبره ورفع يده الرخوة كما لو كان قديسا ، وانصرف .

# الفصل الرابع

توقف اللواء فى حافة غابة صغيرة وقبع الرجال بين الأشجار وسددوا بنادقهم القلقة الى الحقول . لقد حاولوا أن يتطلعوا فيما وراء الدخان .

ومن هذا السديم كان فى استطاعتهم أن يروا رجالا يعدون ركان البعض يصيح ببعض المعلومات ويأتون ببعض الايماءات وهم يسرعون .

وكان رجال الفرقة الجديدة يشاهدون وينصتون فى شوق بينما كانت ألسنتهم مستمرة فى الثرثرة عن المعركة . لقد كانوا يتشدقون بالشائعات التى كانت تطير مثل الطيور من المجهول .

« يقولون ان بيرى قد تقهقر متكبداً خسائر كبيرة .. » .

« نعم ، توجه كاروت الى المستشفى . لقد قال انه مريض . ذلك الملازم الأنيق الذى يقود فرقة « ز » يقول الأولاد انهم لا يرضون أن يكونوا تحت امرة كاروت مرة أخرى والا هربوا . لقد كانوا يعرفون دائما أنه كان ... » .

« استولوا على بطارية هانيسيس .. » .

« لم يحدث هذا . لقد شاهدت بطارية هانيسيس بعيداً الى اليسار منذ مدة لا تزيد على خمس عشرة دقيقة .. » .

« حسن .. » .

« يقول ان القائد سيتولى القيادة الكاملة للفرقة ٣٠٤ اذا ما كنا سنباشر عملنا ، ثم يقول اننا سنقوم بهذا القتال بصورة لم تقم بمثلها اية فرقة اخرى • » •

« يقولون اننا سنطوقهم من اليسار ، ويقولون ان العدو ينقل خطنا الى مستنقع لعين ، وأخذ بطارية هانيسيس • » •

« كلا لا شيء على هذه الشاكلة . لقد كانت بطارية هانيسيس هنا على طول منذ دقيقة مضت • » •

« ذلك الشاب هاسبروك ، انه ضابط كفء لا يهاب شيئا • » •

« التقيت بواحد من جنود فرقة « مين ١٤٨ » ويقول ان لواءه قد تصدى لجيش كامل للثوار الأربع ساعات على طريق مسدود وقتلوا حوالى خمسة آلاف منهم ويقول ان معركة اخرى مثل هذه وتنتهى الحرب • » •

« لم يكن بيل خائفا قط • كلا يا سيدى ! لم يكن كذلك • ليس من السهل اخافة بيل . لقد كان مجنونا فقط ، وكان هذا هو الحال بالنسبة له عندما داس ذلك الشخص على يده ، فقفز وقال انه تطوع ليقدم يده للبلاد ولكنه يذهل اذا ما وجد أن كل جندى ابكم من جنود العصابات فى البلاد سيدوسها ، ومن ثم فقد توجه الى المستشفى غير مستخف بالقتال . لقد تهشمت له ثلاث أصابع واراد الطبيب أن يبترها ، وقد سمعت أن بيل رفع عقيرته بالصياح • انه فتى مضحك • » •

« هل سمعتم أيها الأولاد ماذا يقول المقدم ؟ يقول انه سيطلق النار على أول شخص يستدير ويهرب • » •

« من الأفضل أن يجرب هو ذلك . أود أن أراه وهو يطلق النار على • » •

« هو فى حاجة لأن يهتم بشأنه هو • انه ليس فى حاجة لأن يطوف ويتحدث كثيرا • » •

« يقولون ان فرقة بيرى تصليهم نارا كالرعد . » .

« يقول ايد ويليامز فى الفرقة « أ » ان الثوار سيرمون جميعهم بنادقهم ويهربون ويصرخون لو أننا ضربناهم ضربا شديدا . » .

« آه ، يا الهى ، ماذا يعرف ايد ويليامز ؟ منذ أن أطلق النار على الحراس وهو يدير الحرب . » .

« حسن ، هو ... » .

« هل سمعتم الانباء يا أولاد ؟ كوركرايت حطم الثوار جميعهم وأسر فرقتين كاملتين . سنعود غدا ، على وجه الاستعجال ، الى البلوكات الشتوية » .

« أقول لكم اننى جبت كل هذه المنطقة التى بها الجناح الأيمن للثوار وهو أردأ جزء من خط الثوار فهو مختلط كله بالتلال والخلجان الصغيرة اللعينة . اننى أقامر بقميصى أن كوركرايت لم يلحق بهم قط أى ضرر . » .

« حسن ، انه مقاتل ، واذا أمكن ضربهم فسيضربهم » .

وازداد الصخب فى المقدمة حتى استحال الى كورس عظيم . وتجمد الفتى واخوانه من السكون . لقد كان فى استطاعتهم أن يروا علما ينطلق من الدخان فى غضب ، وبالقرب منه كانت الأشكال الملونة والمضطربة للفرق . وجاء تيار مضطرب من الرجال عبر الحقول . والبطارية التى كانت تغير الوضع فى قفز جنونى تبعثر الضالين يمنة ويسرة .

ومرت قنبلة تصدر صوتا كصوت العاصفة فوق رءوس جنود الاحتياطى المختلطة . لقد استقرت فى غابة صغيرة وانفجرت الأرض البنية فاحمر لونها وهى تتناثر . وكان هناك رذاذ خفيف من ابر شجر الصنوبر .

وبدأ الرصاص فى الصفير بين الفروع ، وفى شتى الأشجار ، واخذت تتساقط الأغصان والأوراق كما لو كانت قد استخدمت ألف فأس صغيرة وخفية . كان كثير من الرجال يخفون وينكسون رءوسهم .

وقد أصيب ملازم فرقة الفتى فى يده • لقد بدأ يسب ويلعن حتى سرى ضحك عصبى بين الفرقة بأسرها . كان يبدو كفر الضابط بالتمسك بالتقاليد . لقد أماط اللثام عن الأحاسيس المكبوتة للرجال الجدد • لقد أحس كما لو كانت قد دقت أصابعه بمطرقة مسامير فى الدار .

حمل العضو الجريح بعناية من جنبه حتى لا يتساقط الدم على سرواله .

ودس رئيس الفرقة سيفه تحت ذراعه واخرج منديلا وبدأ فى ربط جرح الملازم ، واختلفوا فيما ينبغى أن يكون عليه الربط .

وأخذ علم المعركة يهتز من بعيد فى جنون ، لقد بدا أنه كان يكافح لكى يحرر نفسه من أى كرب ، وكان الدخان المتماوج مليئا بوميض افقى .

وانبثق منه رجال يعدون بسرعة . وازدادت أعدادهم حتى بدا أن القيادة كلها كانت تهرب وسقط العلم فجأة كما لو كانت حركته وقت سقوطه حركة يأس .

وجاءت من خلف جدران الدخان صرخات وحشية . واسفر الرسم التخطيطى باللونين الرمادى والاحمر عن مجموعة من الرجال كالدهماء تعدو كالجياد البرية .

وبدأت فرق المحنكين على يمين ويسار الفرقة ٣٠٤ ، بدأت فى السخرية على الفور . وامتزجت الأغنية العاطفية للرصاص وصيحات القنابل التى تشبه الغارة ، امتزجت بصفير عال وبنصائح فكهة عن اماكن الأمان .

ولكن الفرقة الجديدة كانت تلهث من الفزع ، وهمس رجل عند مرفق الفتى : « يا الهى ! لقد تهشم سوندرز ! » • لقد انكمشوا عائدين وربضوا كما لو كانوا مجبرين على انتظار فيضان .

وألقى الفتى نظرة سريعة على طول صفوف الفرقة الزرقاء . وكانت الصور الجانبية بلا حراك ، كما لو كانت منحوتة ، وتذكر بعد ذلك أن با شجاويش فرقة حامل العلم كان يقف وساقاه متباعدتان ، كما لو كان يتوقع أن يلقى به على الأرض .

وأخذ الحشد التالى يدور حول الجناح . كان الضباط يتنقلون هنا وهناك على طول مع التيار كالشظايا الثائرة . لقد كانوا يضربون حولهم بسيوفهم وبقبضات أيديهم اليسرى ، ويثقبون كل رأس يستطيعون الوصول اليه ، وهم يسبون كقطاع الطرق •

وأبدى ضابط مترجل غضبه الثائر الذى يذكرك بغضب طفل مدلل، فكان يعبر عن غضبه برأسه وذراعيه وقدميه •

وكان قائد لواء آخر يعدو وهو يصرخ ، وكانت قبعته قد وقعت ، والتوت ملابسه . كان أشبه برجل جاء من فراشه ليتوجه الى القتال، وغالبا ما هددت حوافر جواده رءوس الرجال الفارين ولكنهم ولوا الأدبار وصادفهم حسن الحظ . وبدوا جميعهم فى هذا الاندفاع صما وعميانا ، ولم يكترثوا لأضخم عبارات الوعيد التى كانت تنهال عليهم من كافة الاتجاهات .

كان فى الامكان عادة سماع نكات عابسة حول هذه الضجة من المحنكين النقاد ، ولكن يبدو أن الرجال المنسحبين لم يكونوا حتى على علم بوجود أية جماعة .

ان انعكاس المعركة الذى بدأ للحظة على وجوه الحشد المجنون قد جعل الفتى يشعر بأن أيادى قوية من السماء ربما لم يكن فى استطاعتها أن تبقيه فى مكانه لو كان فى مقدوره أن يتحكم تحكما ذكيا فى قدميه .

كان هناك انطباع مروع على هذه الوجوه . لقد خلق النضال نفسه فى الدخان صورة مبالغا فيها ارتسمت على الوجوه المبيضة وفى الأعين التى تلتهب برغبة واحدة .

ان مشهد هذا الفرار قد بذل قوة شبه فيضانية بدت قادرة على أن تقتلع عصيا وحجارة ورجالا من الارض. كان على الجنود الاحتياطى أن يبقوا . لقد زادوا شحوبا وثباتا واحمرارا ورجفة .

لقد حقق الفتى خاطرا بسيطا وسط هذه الفوضى . ان الوحش المركب الذى كان سببا فى هروب الفرق الأخرى لم يكن قد ظهر بعد . لقد عزم على أن يشاهده ثم فكر فى أنه قد يهرب ومن المحتمل هروبه كأفضل واحد فيهم .

# الفصل الخامس

كانت هناك لحظات انتظار . لقد فكر الفتى فى بلدته قبل وصول موكب السيرك فى يوم من أيام الربيع . لقد تذكر كيف كان مأخوذا ، وهو طفل صغير ، وعلى استعداد لأن يتبع السـيدة القذرة التى كانت تمتطى الجواد الابيض ، أو الفرقة فى عربتها الباهتة . لقد رأى الطريق الأصـفر وصفوف الأشخاص المنتظرين والبيـوت الوقورة . لقـد تذكر بصورة خاصة صديقا قديما اعتاد أن يجلس على صندوق بارود أمام المخزن ويتظاهر باحتقار مثل هذه المشاهد . وجاشت فى رأسه آلاف التفاصيل من الألوان والأشكال وبدا الصـديق القـديم على صندوق البارود وسط مرتفع .

وصاح شخص ما : « ها هم قادمون ! » .

وكان هناك حفيف وهمهمة بين الرجال . لقد أعربوا عن رغبـة محمومة ليجعلوا كل ما أمكن أعداده من خراطيش فى متناول أيديهم ، وكانوا يجرون الصناديق فى مختلف الاوضاع وكانت تعدل فى عنـاية فائقة . لقد كانت كما لو أن سبعمائة قبعة جديدة ستجرب .

وأخرج الجنـدى المديد القـامة ، وقد أعد بندقيته ، منـديلا أحمر من نوع ما ، وانهمك فى ربطه حول حنجرته مع اهتمام بالغ بوضعه عندما سمعت صيحة متكررة آتية ذهابا وجيئة فى صوت زئير مكتوم .

«هاهم قادمون ! هاهم قادمون !» وقرقعت البنادق .

وعبر الحقول التى أصابها الدخان أتى حشد بنى اللون من رجال يعدون ويصيحون صيحات حادة . لقد أخذوا فى الاقتراب وهم يميلون ببنادقهم ويأرجحونها فى مختلف الزوايا ٠ وأسرع علم مائل الى الأمام بالقرب من المقدمة .

وعندما وقع بصر الفتى عليهم كان فزعا للحظة من خاطر هو ان بندقيته ربما لم تكن محشوة ، ووقف محاولا أن يستجمع قوة ادراكه المضطرب حتى يســـتطيع أن يتذكر اللحظة التى حشا فيهـــا البندقية ولكنه لم يستطع .

وأوقف قائد فرقة حاسر الراس ، جــواده المبلل عنــد موقف بالقرب من مقدم الفرقة ٣٠٤ . لقد أخذ يهز قبضة يده فى وجه الآخر قائلا «كان عليك أن تمنعهم !» وصـــاح فى وحشـــية : «كان عليك ان تمنعهم ٠ » ٠

وفى هذه الحيرة بدأ المقدم يتلعثم قائلا : «و ــ هــو ــ كــذلك ياسيادة القائد ، وهو كذلك ، ياالهى ! سنقوم ببذل ــ سنبذل ــ كل مافى وسعنا ياسيادة القائد» . وأومأ القائد ايماءة تنم عن عاطفة ، ثم انصرف يعدو بجواده . وربما ليفرج المقدم عن مشاعره ، بدأ فى التعنيف كما لو كان ببغاء مبتلا . واستدار الفتى بسرعة ليتأكد من أن مؤخرة الجيش سليمة ، فرأى القائد يتطلع الى رجاله فى حنق شديد كما لو كان يأسف قبل كل شىء على ارتباطه بهم .

وكان الشخص الواقف عند مرفق الفتى يتمتم ، كما لو كان يتمتم لنفسه قائلا : « آه ، نحن فى موقف حرج الآن ! آه ، نحن فى موقف حرج الآن !»

واخذ رئيس الفرقة يذرع مؤخرة الجيش جيئة وذهابا فى سورة مثيرة ، كان يتملق كما تتملق المعلمة مجموعة من الصبية بكتب مبادىء القراءة . كان حــديثه تكرارا لا نهــاية له : «ادخــروا نيرانكم ياأولاد

لاتطلقوا النار حتى اخبركم ـ ادخروا نيرانكم ـ انتظروا حتى يزداد اقترابهم ـ لاتكونوا بلهاء ملاعين ... » .

سال العرق على وجه الفتى الملطخ مثل وجه الطفل البائس الباكى، وكان يجفف عينيه من حين لآخر بكم سترته فى حركة عصبية ، وفمه لا يزال مفتوحا قليلا .

والقى بنظرة على ميدان تجمع العدو أمامه ، وعلى الفور توقف عن مناقشة سؤال ما اذا كانت بندقيته قد حشيت ، وقبل أن يستمد ليبدأ ـ قبل أن يعلن لنفسه أنه كان على وشك أن يقاتل ـ ألقى بالبندقية الطيعة المكتملة الاتزان فى وضع وأطلق أول رصاصة ، وكان يعمل مباشرة على سلاحه كما لو كان عملا تلقائيا .

وفجأة فقد اهتمامه بنفسه ونسى أن يتطلع الى المصير الخطر . لم يصبح رجلا بل صار نفرا . لقد كان يحس بأن شيئا مما كان جزءا فيه ـ فرقة ، جيش ، قضية أو وطن ـ كان فى محنة . كان ملتحما فى شخصية عامة تسيطر عليها رغبة واحدة . ولبضع لحظات لم يكن فى استطاعته أن يهرب أكثر مما يستطيع أصبع صغير أن يثور على يد .

ولو كان قد خطر له أن الفرقة كانت على وشك الابادة فلربما كان قد انتزع نفسه منها ، ولكن ضجيجها قد أمده بتوكيد . كانت الفرقة مثل صواريخ الالعاب النارية التى اذا مااحترقت مرة تتقدم مسبقة الظروف حتى تخبو حيوية توهجها . كانت تصدر أزيزا وضوضاء عالية بقوة شديدة . لقد صور الأرض التى أمامها كما لو كانت منثورة بالمدحورين .

كان هناك وعى دائم عن وجود أصدقائه حوله . لقد أحس بأن معركة الاخوة الرقيقة أكثر قوة من السبب الذى من أجله يحاربون . لقد كانت أخوة غامضة وليدة الدخان وخطر الموت .

كان يؤدى عمله مثل نجار صنع عدة صناديق ولايزال يصنع صندوقا آخر ، وكانت هناك فقط سرعة غاضبة فى حركاته ويتنقل فى

تفكير فى أماكن ومهن أخرى ، بل كالنجار الذى يصفر أثناء عمله ويفكر فى صديقه أو عدوه ، وبيته أو الصالون . ولم تكتمل هذه الاحلام المهتزة عنــده على الاطلاق بعــد ذلك ، ولكنها ظلت مجمــوعة من الأشــكال غير الواضحة .

وفى الحال بدأ يحس بآثار جو الحرب ـ عرق شديد ، احســـاس بأن مقلة عينه على وشك أن تتشقق مثــل الحجارة الساخنة ، وملأ أذنيه زئير ملتهب .

واعقب ذلك سخط متوهج . لقد كشف عن سخط شديد لحيوان ضجر ، بقوة حسنة النية تضايقها كلاب . لقد تملكه شعور جنونى ضد بندقيته ، يمكن أن تستخدم فقط ضد حياة ما فى وقت من الأوقات. لقد أراد أن يندفع الى الامام ويختنق بأصابعه . كان يتوق الى قوة قد تمكنه من أن يشير اشارة تكتسح العالم ويسترجع كل شىء . لقد بدا له ضعفه واحال غضبه الى غضب حيوان مغلوب على أمره .

واحس بأن غضبه حبيس فى الدخــان الذى تصــاعد من البنادق العديدة . وهذا الغضب ليس موجها ضد الرجال الذين يهاجمونه بقدر ماهو موجه الى الحرب الدائرة الرحى كأنها الدوامة العاتية ، وتكاد تزهق روحه . لقد حارب بجنون لفترة من أجل راحته ليتنفس كأنه طفل يلقى عنه غطاءه لئلا يختنق .

كان هناك دوى صاخب للغضب الذى تغلى به النفوس ، يمتزج به معنى العزم والاصرار مرتســما على كل الوجــوه ، وهــذه الهتافات الخفيضة والزمجرات واللعنات والدعوات الفت أغنية وحشية بربرية سرت مثل صوت مكبوت غريب كالترنيم مصحوبا بلحن صامت للمسيرة الحربية ، وكان الرجل الواقف عند مرفق الفتى يهذى . ومن بين هذيانه كلمات رقيقة وناعمة مثل مناجاة طفل ، وكان الجندى المديد القــامة يسب بصــوت عال ، وخرجت من بين شفتيه قذائف متتابعة من الشتائم وفجاة انفجر آخر فى إسلوب متذمر مثل رجل أخطأ فى وضع قبعته ، وقال : « لماذا لايعاونوننا ! لماذا لايبعثون بتعزيزات ؟ هل يظنون ... » .

وسمع الفتى هذا وهو فى معركة نومه كشخص يسمع وهو فى غفوة .

كان هناك افتقار غريب فى المواقف البطولية ، والرجال وهم يميلون ويموجون فى عجلتهم وغضبهم كانوا فى وضع من الاوضاع التى لاتخطر بالبال . وكانت قضبان الصلب التى تستخدم فى تنظيف البنادق تصلصل فى صخب لا ينقطع ، وكل مصاريع صناديق الخراطيش مفكوكة تتذبذب فى حماقة مع كل حركة ، والبنادق ، وقد حشيت ، تهتز فوق الأكتاف وتطلق بدون أى هدف واضح تجاه الدخان أو الى أى شكل من الأشكال الملطخة أو المتغيرة التى كانت تبدو أمام الفرقة بالميدان وقد إزداد حجمها شيئا فشيئا وكأنها دمى تعبث بها يد ساحر .

وكان الضباط ، فى مؤخرة الجيش ، قد أهملوا فى فتراتهم المتقطعة الوقوف فى أوضاع نشطة فكانوا يتمايلون جيئة وذهابا ويزأرون بتعليمات وتشجيعات . كانت أبعاد عوائهم غير عادية . كانوا يقطعون انفاسهم فى غير ما طائل ، وكأنهم على وشك أن يقفوا على رءوسهم وقد تملكهم القلق وهم يشاهدون العدو على الجانب الآخر من الدخان المتساقط .

والتقى ملازم فرقة الفتى بجندى كان قد هرب وهو يصيح بالقراءة لدى سماعه أول طلقة ، وخلف الصفوف كان هذان الاثنان يمثلان مشهدا منعزلا نوعا ما . كان الرجل يتفطر من البكاء ويتطلع بعينين كعيون الغنم الى الملازم الذى كان قد أمسك به من ياقته وهو يلكزه . لقد أعاده الى الصفوف بعدة كلمات ، فذهب الجندى تلقائيا الى مكانه وهو يتطلع ببلادة الى الضابط ، بعينيه اللتين تشبهان عينى الحيوان . ربما كانت هناك فى نظره روحانية معبرا عنها فى صوت الآخر - جاف ، صلب ، لا يتبدى فيه شىء من الخوف . لقد حاول أن يعيد حشو بندقيته ولكن يديه المرتعشتين حالتا دون ذلك ، فاضطر الضابط الى معاونته .

وتساقط الرجال هنا وهناك مثل الحزم ، وكان رئيس فرقة الفتى قد قتل فى جزء سابق من العملية . كان جسده ممددا فى وضع رجل مجهد يستريح . ولكن كانت على وجهه نظرة ذهول مفعمة بالأسى كما لو أنه كان يفكر فى أن بعض الاصدقاء قد أساء اليه ، أما الرجل الذى كان يهذى فقد أصابته طلقة جعلت الدم يسيل بغزارة من أسفل وجهه . وأمسك رأسه بكلتا يديه وقال : « آه ! » قالها وجرى . وقبع آخر فجأة كما لو كان قد ضرب بهراوة فى معدته . وجلس وحملق مغموما . كان فى عينيه لوم صامت ومبهم . وبعيدا عن الصف كان هناك رجل واقف خلف شجرة وكان مفصل ركبته قد كسر برصاصة ، وعلى الفور أسقط بندقيته وأمسك الشجرة بكلتا ذراعيه وظل هناك متعلقا بها فى يأس وهو يصيح طالبا العون حتى يستطيع أن يسحب نفسه من الشجرة .

وأخيرا سرت فى الصف المرتجف صيحة تهليل وقد تضاءل اطلاق النار من زئير الى طقطقة انتقامية . وبينما كان الدخان ينساب فى بطء ، رأى الفتى أن الطلقة النارية قد فشلت ، وكان العدو مبعثرا فى مجموعات متناثرة . لقد شهد رجلا يتسلق قمة السياج ويوسع مابين القضبان ويطلق طلقة تشتيت ، وتراجعت الامواج مخلفة أجزاء من رماد أسود على الأرض .

وبدأ البعض يهتفون فى الفرقة فى جنون ، وكان البعض صامتين ، وكان واضحا انهم كانوا يحاولون التفكير فى أنفسهم .

وبعد أن انقشعت الحمى من عروق الفتى ، اعتقد أنه سيختنق اخيرا . لقد صار على علم بالجو القذر الذى كان يناضل فيه . لقد كان قذرا ومبللا كعامل فى مسبك ، وأمسك بزمزميته وشرب جرعة طويلة من مائها الدافىء .

وسرت فى الطابور من بدايته الى نهايته جملة ذات أطياف : «حسنا، لقد أوقفناهم . لقد أوقفناهم . لعنة الله علينا لو لم نكن قد أوقفناهم . » .

قالها الرجـــال مبتهجين وهم ينظرون الى بعضهم بعضـــــا ويبتسمون ابتسامات خبيثة .

وتلفت الفتى لينظر خلفه وبعيدا الى اليمين وبعيدا الى اليسار . انه يمر بخبرة رجل يحس بالفرح ويجد أخيرا وقت فراغ يتطلع فيه الى من حوله .

وكانت هناك تحت قدميه أشكال شاحبة اللون ، قليلة وبلا حراك. لقد رقدت ملفوفة فى التواءات غريبة الشكل ، كانت الأسـلحة منحنية والرءوس متحولة فى صور غير معقوله . لقد بدا له أن الموتى من الرجال لابد أنهم سقطوا على الأرض من السماء .

ومن مكان فى مؤخرة الغابة الصغيرة كانت هناك بطارية تلقى قنابل عليها . كان وميض البنادق قد افزع الفتى فى أول الأمر . لقد ظن أنها مسددة اليه مباشرة ، أخذ يراقب عبر الأشجار الأشـكال السـوداء لحملة البنادق وهم يعملون بسرعة وأمامهم هدف . لقد بدا أن عملهم معقد. لقد تعجب كيف أنهم يذكرون قواعده وسط تلك الفوضى .

وجلست البنادق القرفصاء فى صف مثل الزعماء المتوحشين ، وأخذت تتجادل فى عنف فجـائى . لقـد كان احتفالا بشـعا ؛ وكان خدمها المشغولون يجرون هنا وهناك .

كان موكب صغير من الجرحى يتجه فى كآبة نحـو المؤخرة . لقد كان الدم يسيل من جسد اللواء الممزق .

والى اليمين والى اليسار كانت صفوف سوداء من الفرق ، وبعيدا الى المقـدمة ظن أن بمكنته أن يرى مجموعات أخف خارجة من نقط فى الغابة . لقد كانت توحى بآلاف عديدة .

وشهد مرة بطارية دقيقة تندفع على طول خط الأفق . كان الخيالة وقد بدوا فى حجم صغير يضربون الجياد المنهوكة .

ومن تل منحدر جاء صوت هتافات وفرقعة سلاح . وأخذ الدخان ينفجر ببطء خلال الأوراق .

كانت البطاريات تتكلم بقوة خطابية مدوية ، وكانت الأعلام هنا وهناك تخططها خطوط حمراء . لقد ألقت ببقع من اللون الدافىء على صفوف الفرق السوداء .

واحس الفتى بالاثارة القديمة عند رؤية الأعلام . لقد كانت كالطيور جميلة شجاعة بدرجة غريبة فى خضم عاصفة .

وبينما كان ينصت الى الطنين الآلى من جانب التل الى رعد خافق عميق آت من بعيد الى اليسار ، والى الاصوات الأقل صخبا الآتية من مختلف الاتجاهات ، ظن أنهم كانوا يحاربون أيضا ، بعيدا هناك ، بعيدا هناك ، بعيدا هناك . كان يعتقد فيما مضى أن المعركة كلها كانت تدور مباشرة تحت أنفه .

ولما حملق الفتى فيما حوله احس ببريق من الدهشة فى السماء الزرقاء الصافية واشعة الشمس وهى تسقط على الاشجار والحقول . لقد كان غريبا أن تستمر الطبيعة فى هدوء فى نسقها الذهبى وسط الكثير من الأعمال الشيطانية .

# الفصل السادس

استيقظ الفتى فى بطء وعاد تدريجيا الى الوضع الذى يستطيع أن يشاهد نفسه منه . لقد كان يستشف نفسه للحظات فى أسلوب مذهل كما لو لم يكن قد رأى نفسه قط ، ثم التقط قلنسوته من الارض وأخذ يعدل من سترته لكى يجعلها فى وضع أكثر ملاءمة ، وانحنى ليعيد ربط حذائه . وأخذ يجفف جبينه ذا الرائحة الكريهة وهو يفكر .

وهكذا انتهى كل شىء أخيرا ! لقد انفضت المحاكمة الكبرى ، وتلاشت صعوبات الحرب الحمراء الهائلة .

وراح فى نشوة روحية من الرضا الذاتى . لقد أحس بأبهج احاسيس مرت به فى حياته . ووقف كما لو كان منفصلا عن نفسه ، وشهد بذلك المشهد الأخير . لقد أدرك أن رجلا يقاتل على هذا النحو هو عظيم حقا .

لقد أحس بأنه كان فتى عظيما . لقد أخذ يتأمل نفسه فى ضوء المثل العليا التى كان قد اعتبرها أعلى من مستواه . وابتسم فى سرور عميق .

ولقد أضفى على أخوانه رقة وسلاما ، وقال فى رقة لرجل كان ينظف وجه الذى كان ينضح بالبخار بأكمام سترته : «ياستار ! ان الجو حار أليس كذلك ؟ »

أجابه الرجل فى ألفة وهو يضــحك بفتور : « أقسم اننى لم أشهد مثل هـــذا الحر قط» وتمـــدد على الأرض فى اســترخاء مســتطردا : « ويحك ، نعم ! وأرجو ألا يكون عندنا مزيد من القتال حتى أسبوع من يوم الاثنين ٠ »

كانت هناك بعض التحيات باليد واحاديث عميقة مع رجال كانت ملامحهم مألوفة ، ولكن الفتى أحس تجاههم بروابط قلبية متحدة . لقد ساعد رفيقا كان يسب ، لكى يضمد جرحا فى قصبة رجله .

ولكن ، فجأة ، سمعت صيحات انزعاج على طول صفوف الفرقة الجديدة «هاهم قادمون من هنا مرة أخرى ! هاهم قادمون هنا مــرة أخرى ! » فاذا بالرجل الذى كان قد تمدد على الارض ينهض ويقول : «واعجبا !»

وتلفت الفتى بعينين سريعتين الى الميدان . لقد رأى أن أشــكالا بدات تتضخم الى مجموعات خارجة من الغابة البعيدة ، وشهد مــرة أخرى العلم المائل يسرع الى المقدمة .

وعاودت القنابل زئيرها ، وهى التى كانت قد توقفت عن اقلاق الفرقة لفترة ، عاودت الدوران مرة أخــرى ، وانفجرت فى الكلأ أو بين أوراق الاشجار . لقد بدت كأزهار حمراء غريبة تفتحت فصارت كأزهار برية .

وزمجر الرجال وانطفــأ البريق من أعينهم . لقــد عبرت الآن ملامحهم الملطخة عن حزن عميق ، وأخذوا يحركون أجسادهم المتصلبة ببطء ، وشاهدوا فى كآبة الاقتراب الجنونى للعدو . وبدأ العبيد الذين كانوا يكدحون فى معبد هــذا الاله يحسون بالثورة تتجلى فى أعمــاله العنيفة .

لقد غضبوا وأخذ كل واحد منهم يبث شكواه للآخر قائلا : «آه ، أقول ، هــذا شىء كثير جــدا ! لماذا لايستطيع أحــد أن يبعث لنــا بامدادات ؟»

«اننا لن نحتمل هـذه الضربة الثانية . اننى لم آت الى هنا لأحارب جيش الثوار الجهنمى اللعين • » •

وأخـذ شخص يرفع صياحه الحزين قائلا : « أتمنى لو أن بيل سميذرز قد جرى فوق يدى بدلا من دهس يدى • » وأخذت مفاصل الفرقة الحزينة تصدر صريرا وهى ترتطم متألمة لتتخذ وضعا للرد .

وحملق الفتى . لقد ظن ، بكل تأكيد ، أن هذا الشىء المستحيل ليس على وشك أن يحدث . لقد انتظر كما لو كان يتوقع أن يتوقف العدو فجأة ويتأسف ويتقهقر منحنيا . لقد كان هذا خطأ كله .

ولكن اطلاق النيران بدأ فى مكان ما على خط الفرقة وانشق على طول فى كلا الاتجاهين • ونشرت الطبقات السطحية للهب سحبا عظيمة من الدخان سقطت وقذفت بها الريح المعتدلة قرب الارض لفترة ثم تدحرجت عبر الصفوف كما لو كانت تتدحرج عبر بوابة • وكانت السحب قد اصطبغت باللون الأصفر شبه الأرضى فى أشعة الشمس ، وفى الظل كانت فى لون الأزرق الحزين • وكان العلم يختفى أحيانا ويفتقد فى هذه الكتلة من البخار ، ولكن غالبا ماكان يظهر لامعا ، وقد لفحته الشمس .

وبدت فى عينى الفتى نظرة كتلك النظرة التى يمكن أن يشاهدها المرء فى عينى جواد عنيد ، وكانت رقبته ترتعش فى ضعف عصبى، وأحست عضلات ذراعيه بالتنميل وفقدان الدم ، وبدت يداه ، أيضا ، كبيرتين وغريبتين كما لو كان يرتدى قفازين غير مرئيين . وكان هناك مايثير الشك فيما يتعلق بمفاصل ركبته .

وبدأت تخطر على باله الكلمات التى تفوه بها أقرانه قبل اطلاق النار : «آه ، أقول ، هذا شىء كثير جدا ! لماذا يأخذوننا ــ لماذا لايبعثون الينا بالامدادات ؟ اننى لم آت الى هنا لأحارب حيش الثوار اللعين كله • » •

وبدأ فى المبالغة فى تضخيم صبر ومهارة وشـجاعة أولئك الذين سيفدون . وكان هو نفسه يترنح من الاجهاد . وكانت دهشته من مثل هذا الاصرار تفوق الحد . لابد انهم آلات من الصلب . لقد كان نضالا محزنا بازاء مثل هـذه الاعمال ، وربمـا تطور الى قتال حتى غـروب الشمس .

وفى بطء رفع بندقيته ولمح الميدان الممتد فى تكثف وخطفت بصره مجموعة أفراد يجرون . توقف عندئذ وبدأ يـدقق النظر ما أمكنه عبر الدخان فتبدت الارض متغيرة المناظر وهى مغطاة برجال كانوا جميعهم كالشياطين المتعقبة ، وهم يصيحون .

لقد بدا للفتى أنه كان هجوم تنينات جبارة . لقد صار كشخص فقد ساقيه عند اقتراب الوحش الاحمر والاخضر . وانتظر فى وضـع شخص ينصت وهو مذعور . لقد بدا وهو يغمض عينيه فى انتظـار أن يلتهم .

وكان بجواره رجل يعمل حتى تلك الآونة على بندقيته فى حمية . وفجأة توقف وجرى وهو يولول . وكان هناك صبى قد حمل وجهـه تعبيرا يدل على الشجاعة العظيمة . وجلال شخص يتجاسر على أن يقدم حياته ، كان للحظة متألما من الدناءة . لقد شحب كمن بلغ حافة ربوة فى منتصف الليل وفجأة صار على علم بوضعه . كان هناك اكتشاف . لقد رمى هو أيضا بندقيته وهرب . ولم يكن هناك خبث فى وجهه . لقد جرى كالارنب .

وبدا آخرون يولون الأدبار مخترقين الدخان ، وأدار الفتى رأسه وصـحا من غفوته على هذه الحركة كما لو كانت الفرقة قـد خلفته وراءها . لقد شهد الأشكال القليلة وهى تمضى مسرعة .

وصرخ بعد ذلك فى خوف وتحرك حول نفسـه ، وللحظة ، وفى ضجة كبيرة ، كان مثل الكتكوت تماما . لقد فقد الاتجاه المأمون وكان الهلاك يهدده من كل جانب .

وبدأ يسرع مباشرة الى المؤخرة فى وثبات كبيرة . وكانت بندقيته وقلنسوته قد ذهبتا عنه وكان معطفه مفكوك الأزرار قد امتلأ بالهواء وغطاء صندوق خراطيشه يهتز بشدة ، وزمزميته بحبلها الرقيق تتأرجح خلفه . وارتسم على وجهه كل رعب من تلك الأمور التى كان يتخيلها .

وقفز الملازم الى الأمام وهو يصيح ، وشهد الفتى ملامحه وقد احمرت فى غيظ ورآه يلطم بسيفه . وكان مابدر لذهنه عن هذه الحادثة هو أن الملازم مخلوق عجيب لأنه يهتم بهذه الأمور فى هذه المناسبة .

وجرى كرجل أعمى وسقط مرتين أو ثلاثا ، وضرب كتفه ضربة شديدة فى شجرة وهو يجرى فى رعونة .

ومنذ ان أدار ظهره للقتال تضخمت مخاوفه تضخما عجيبا . كان الموت على وشك أن يطعنه بين عظمتى اللوح . ان هذا أخطر من الموت الذى كاد أن يلم به بين عينيه . وعندما فكر فيه بعد ذلك آمن بفكرة أن من الخير أن يعانى سكرات الموت عن أن يظل فقط داخل نطاق سمعه . كانت ضوضاء المعركة أشبه بالصخور وكان يؤمن بأنه هو نفسه من المحتمل ان يطحن .

وكلما استمر فى الجرى اختلط بالآخرين . لقد رأى فى غير وضوح رجالا عن يمينه وشماله ، وسمع وقع أقدام خلفه . لقد ظن أن كل الفرقة كانت تهرب تتبعها أصوات الاصطدامات المشئومة .

وفى هروبه كان صوت هذه الخطوات التى تلاحقه يمده براحة بسيطة . لقد أحس فى غموض ان الموت يجب أن يختار أول من يختار من الرجال من كانوا أكثرهم قربا ، ومن ثم فستكون أولى اللقمات للتنينات : أولئك الذين كانوا يتعقبونه . لذا تملكه حماس جواد مجنون وكان هدفه الابقاء عليهم فى المؤخرة ، وكان هناك سباقا .

وبينما كان يعدو قدما مر بحقل صغير ، وجد نفسه في منطقة مليئة بالقنابل . لقد كانت تندفع بشدة في الجو فوق رأسه في صرخات مدريةطويلة . وكلما انصت تخيلها صفوفا من الأسنان القاسية تضحك له في فتور . ومرة أضاءت واحدة أمامه ، وملأ وميض الانفجار الداكن الجو وسد بصورة فعالة الطريق في الاتجاه الذى اختاره . فزحف على الأرض ، ثم عندما نهض أخذ يندفع مسرعا عبر بعض الشجيرات .

لقد استشعر رجفة الدهشة عندما جاء داخل مرأى بطارية وهي تقذف . وبدا الرجال هناك متمسكين بالتقاليد وكلهم غافلون عن الابادة المحدقة بهم . كانت البطارية تتحدى خصما بعيدا ، ورجال المدفعية وقد عقدتهم الدهشة من ضربهم . كانوا يميلون باستمرار في أوضاع انعطافية على بنادقهم وبدا أنهم كانوا يربتون عليها من الخلف ويشجعونها بكلمات وكانت البنادق ، وهي بلهاء باسلة ، تتحدث في بسالة عنيدة .

كان رجال المدفعية الحقيقيون متحمسين بلا اكتراث . لقد رفعوا عيونهم في كل مناسبة الى الأكمة المكللة بالدخان حيث كانت بطارية العدو ترد عليهم منها . لقد أشفق عليهم الفتى وهو يجرى . انهم حمقى ميثوديون ! حمقى أشبه بالآلات ! لقد بدت الفرحة المهذبة في زرع قنابل وسط البطارية الأخرى شيئا بسيطا عندما جاء المشاة ينقضون خارجين من الغابات .

كان وجه الفتى الفارس ، وهو يدفع جواده المجنون ، وقد تجرد من مزاجه كما لو كان في ساحة دوار هادىء ، قد ترك أثرا عميقا في ذهنه . لقد علم أنه كان يتطلع الى رجل قد يكون ميتا الآن .

وأحس أيضا بشفقة على البنادق وعلى ستة رفاق طيبين واقفين في صف باسل .

لقد رأى لواء متجها لاعطاء راحة لزملائه المرهقين . لقد زحف على تل صغير جدا ، وراقبه وهو يزحف في دقة تاركا تشكيلا في أماكن صعبة . كان اللون الأزرق في الصف مكسوا بلون الصلب ، وكانت الأعلام البراقة بارزة ، والضباط يصيحون .

ملأه هذا المنظر أيضا بالدهشة . كان اللواء يسرع فى نشاط لتبتلعه أفواه اله الحرب الجهنمية . أى نمط من الرجال كانوا ، على أية حال ؟ آه ، لقد كانوا بعض السلالات العجيبة ! والا فهم لا يفقهون ــ الحمقى .

أثار صدور أمر أحمق اضطرابا فى المدفعية . لقد أدى ضابط يمتطى جوادا ، حركات جنونية بذراعيه ، فأخذت الفرق تتدفق من المؤخرة ، وتحركت البنادق بسرعة وولت البطارية الأدبار ، والمدافع بأنوفها تحرك نيرانها بانحراف الى الأرض ، وأخذت تزمجر وتتضجر : كرجال بدينين ، شجعان ولكنهم يقاومون حثهم على العجلة .

تابع الفتى سيره معدلا خطوته طالما أنه ترك مكان الضوضاء .

وبعد ذلك مر على قائد فرقة ممتطيا جوادا يرهف السمع فى اهتمام بالغ بالمعركة ، وكان الجلد الأصفر اللامع حول السرج واللجام يلمع لمعانا شديدا . وبدا الرجل الهادىء الفارج ساقيه ، بدا فى لون الفأر وهو على مثل ذلك الجواد العظيم .

وكانت مجموعة ضباط تعدو هنا وهناك . وكان القائد يحوطه أحيانا فرسان وفى أوقات أخرى كان وحده تماما . لقد بدا أكثر انزعاجا . لقد كان فى مظهر رجل أعمال تتقلب أسعار السوق أمام ناظريه الى أعلى والى أسفل .

أخذ الفتى يمشى حول هذه البقعة متخفيا . لقد اقترب قدر ما استطاع محاولا أن يتسمع الكلمات اذ ربما ناداه القائد ، وهو لا يستطيع أن يلم بأطراف تلك الفوضى ، ناداه ليسأله عن معلوماته . وهو يستطيع أن يحيطه علما اذ كان يعلم كل ما يدور حولها . ومن المؤكد ان القوة كانت فى حيرة وكان أى أبله يستطيع أن يرى أنهم لابد أن يتقهقروا اذا ما سنحت لهم فرصة ــ ولكن لماذا ؟

لقد أحس بأنه قد يفضل أن يضرب القائد أو على الأقل يقترب منه ويحيطه علما فى كلمات صريحة فيما يفكر فيه بدقة . لقد كان من

الاجرام البقاء فى هدوء فى بقعة دون بذل أى محاولة لوقف التخريب . لقد تلكأ وهو شديد الحماس ، لعل قائد الفرقة يستدعيه .

فبينما كان يتحرك حوله فى تحفظ سمع القائد يصيح فى انفعال : « تومكنز ، اذهب وتوجه الى « تيلور » وأخبره بألا يكون فى مثل هذه العجلة الكاملة لاطلاق النار ، اخبره بأن يوقف لواءه فى حافة الغابات. اخبره بأن يعزل فرقته ـ أقول اننى اعتقد أن الوسط سيتحطم اذا لم تكن لنا حيلة ، اخبره بأن يسرع . » .

فاذا بشاب نحيل يمتطى جوادا لطيفا فى لون القسطل ، يلتقط هذه الكلمات السريعة من فم رئيسه . لقد دفع جواده لأن يقفز من السير الى العدو تقريبا ، وهو فى اسراعه لتبليغ رسالته ، كان يثير سحابا من الدخان .

وبعد ذلك بلحظة رأى الفتى : القائد وهو يقفز مهتاجا وهو على سرج جواده .

ومال الضابط الى الأمام وقال : « نعم ، يا اله السموات ، لقد استطاعوا ! » وكان وجهه متقدا ثورة واستطرد : « نعم ، يا اله السموات ، لقد احتجزوه ! لقد احتجزوه ! . » .

وبدأ يزأر فى رجاله فى ابتهاج : « سنضربه الآن . سنضربه الآن. لقد امسكوا بهم بكل تأكيد » والتفت فجأة الى ياوره وقال : « تعال ـ أنت ـ يا جونز ـ أسرع ـ اركب واتبع تومكنز . قابل تيلور ـ اخبره بأن يشرع فى العمل ـ على الدوام ـ مثل اللهب ـ عمل أى شىء . » .

ولما أسرع ضابط آخر بجواده فى أعقاب الرسول الاول ، أشرق القائد على الارض كما تشرق الشمس ـ وكانت فى عينيه رغبة كى يتغنى بنشيد النصر . لقد استمر يردد : « يا اله السموات ، لقد احتجزوهما ! » .

وكانت ثورته قد جعلت جواده يثب ، وفى مرح لكزه واخذ يشتم ، لقد عقد حفلا صغيرا على ظهر الجواد .

# الفصل السابع

ذعر الفتى كما لو أنه اكتشف أمره متلبسا بجريمة • يا الهى ، لقد انتصروا فى النهاية ! لقد ظل الطابور المعتوه على قيد الحياة وصاروا منتصرين • كان فى استطاعته أن ينصت للهتافات •

ووقف على أطراف أصابع قدميه وتطلع فى اتجاه القتال : كانت غمامة صفراء تظلل قمم الأشجار ومن تحتها صدرت قعقعة نار البنادق ، وأنبأت صيحات خشنة عن تقدم العدو نحوه •

وولى الأدبار وهو فى حالة من الذهول والغضب ـ لقد أحس بأنه قد غرر به •

لقد هرب ، وهذا ما أخبر به نفسه ، لأن الابادة قد اقتربت • لقد قام بدور طيب فى انقاذ نفسه ، الذى كان يمثل جزءا يسيرا فى الجيش • لقد قال انه كان يعتبر أن الوقت من الأوقات التى كان من الواجب فيه على كل قطعة صغيرة أن تنجو بنفسها ما أمكنها ذلك • وبعد ذلك كان فى استطاعة الضباط أن يجمعوا هذه القطع الصغيرة ثانية لتكون صالحة للعمل لتشكيل واجهة المعركة ، فاذا كانت واحدة من هذه القطع الصغيرة حكيمة بما فيها الكفاية أنقذت نفسها اذن من هجمة الموت فى مثل هذا الوقت ، لماذا اذن يكون هناك وجود للجيش ؟ لقد كان واضحا تمام الوضوح أنه تقدم طبقا لقواعد صحيحة ومرغوبة ، وكانت تصرفاته حكيمة مفعمة بالأساليب الدقيقة ، لقد كانت من وضع خبير •

وتذكر خواطر أقرانه · لقد صمد الصف الأزرق الهش ، صمد للضربات وفاز · وازدادت مرارته بالنسبة لهذا الأمر · لقد بدا أن الجهل الأعمى لتلك القطع الصغيرة وحماقتها قد غدر به · لقد حطمه وسحقه افتقارهم الى الاحساس بالاحتفاظ بموقعهم ، عندما يقنعهم التأنى العاقل أنه كان أمرا مستحيلا · وهو ، الرجل المستنير الذى يتطلع بعيدا فى الظلام ، قد هرب بفضل مدركاته السامية وعلمه السامى · لقد أحس بغضب شديد من أقرانه · وعلم أنه يمكن البرهنة على أنهم كانوا حمقى ·

لقد فكر فيما ستدور حوله تعليقاتهم عندما يظهر بعد ذلك فى المعسكر · لقد سمع ذهنه ولولة ساخرة · ان مصيرهم لن يمكنهم من تفهم وجهة نظره الأكثر مضاء ·

لقد بدأ يشفق على نفسه اشفاقا شديدا بعد أن أسىء اليه ، وداسته أقدام ظلم فولاذى · لقد تقدم تحدوه حكمة ودوافع أكثر عدلا وصلاحا تحت السماء الزرقاء لكى تتولى الظروف البغيضة وحدها احباط مساعيه ·

ثورة كليلة شبه حيوانية على اخوانه ، حرب بالمعنى التجريدى ، ومصير نما داخله · ومشى قدما متثاقلا ورأسه منكس وذهنه فى ثورة من الكرب واليأس · وعندما تطلع الى أعلى فى عبوسه وهو يرتعد عند سماع كل صوت ، كان فى عينيه تعبير عينى مجرم يظن أن جرمه وعقابه كبيران ويعلم أنه لا يستطيع أن يجد الكلمات ، وهو ، عن طريق معاناته ، يظن أنه يتغلغل فى قلب الأمور ويرى أن محاكمة الانسان شوكة فى مهب الريح ·

وانتقل من الحقول الى غابات كثيفة كما لو كان قد صمم على أن يدفن نفسه · لقد أراد أن يبتعد عن مجال سماع الطلقات التى كانت تقعقع والتى كانت تبدو له كأصوات الناس ·

كانت الأرض مكدسة بالكروم والشجيرات ونمت الأشجار وهى متجاورة وكانت ممتدة مثل باقات الزهور · كان مضطرا لأن يشق

طريقه من خـــلال كثير من الضـــوضاء • ولما تعثرت قدماه فى النباتات المتسلقة صاح بصوت عال اذ أن أغصانها قطعت من جذوع الأشجار • لقد حاول حفيف الشجيرات أن يعلن للعالم عن وجودها • ولم يكن فى استطاعته أن يتصادق مع الغابة • وبينما كان يشق طريقه كان دائما يصرخ معترضا • ولما قام بفصل تعانق الأشجار والكروم أخـذت أوراق النباتات التى فصلت تلوح بأذرعتها وأدارت وجوه أوراقها تجاهه • كان يخشى من أن هذه الحركات والصيحات الصاخبة قد تدعو الرجال ليتطلعوا اليه ، ولذا فقد سار بعيدا ملتمسا الظلمة والأماكن المتشابكة •

وبعد فترة أخذ صوت نيران البنادق يخفت وكان صـــوت المدافع يدوى من بعيد ، وأخذت الشمس ، وقد ظهرت فجأة ، تتخلل الأشجار . وكانت الحشرات تصدر أصواتا توقيعية صاخبة وبدت وكأنهـا تجرش أسنانها فى سباق متصـــل • وكان نقار الخشب يلصق رأسه الجرىء حول جانب من الشجرة بينما أخذ أحد الطيور فى الطيران بحبور •

وبعيدا كانت قرقعة الموت • لقد بدا الآن أن الطبيعة لم تكن لهـــا آذان •

لقـد أمده هذا المنظر الحلوى بالثقة فى النفس • حقل مليح تدب فيه الحياة • انها ديانة الســـلام • انه قد يموت لو أن عينيه الخجلتين اضطرتا الى رؤية منظر الدم • كان يعتقد أن الطبيعة امرأة تمقت المأساة مقتا شديدا •

وقذف بكوز صنوبر تجاه سنجاب مرح فجرى وهـــو يرتجف منه خـوفا ، وتوقف فوق قمة احـــدى الأشجار ودس رأســـه خلف أحد الفروع وتطلع الى أسفل وقد تملكه الفزع •

لقد أحس الفتى بالنصر عند مشاهدته لهذا المشـــهد وقال لقد كان هناك قانون ، وقد قدمت له الطبيعة دليلا ، فعندما رأى السنجاب الخطر ولى هاربا على الفور بلا عناء • انه لم يقف فى ثبات كاشفا عن كرشـــه

المغطى بالفراء ليتلقى احدى القذائف ويموت وهو يتطلع بنظره الى أعلى ، الى السموات طالبا عطفها ، ولكنه على العكس من ذلك سارع الى الهرب بقدر ما تستطيع قدماه أن تحمله على السرعة ، انه مجرد سنجاب عادى ، أيضا ـ ولا شك أنه لم يكن فيلسوفا بين بني جنسه • ومضى الفتى فى سبيله وهو يحس بأن الطبيعة كانت تملك عليه تفكيره • لقد أخذت تقوى من حجته بأدلة كانت تعيش حيث كانت تشرق الشمس •

وفجأة وجد نفسه على وشك أن يكون فى مستنقع ، فكان مضطرا لأن يسير فوق كلأ الأرض الاسفنجية ورأى قدميه وهما تتجنبان الطين الأملس • كان يتوقف تارة يستطلع ما حوله فرأى فى بعض المياه الداكنة حيوانا صغيرا يقفز فيها ويخرج مباشرة ومعه سمكة متلألئة •

واتجه الفتى مرة ثانية الى أعماق الأدغال ، وأخذت أصوات الفروع الخشنة تصدر ضوضاء خففت من أصوات المدافع ، وتابع سيره متنقلا من ظلمة الى آمال أشد اظلاما •

وفى النهاية بلغ مكانا كانت فيه الأغصان العالية المقوسة توحى بشكل كنيسة صغيرة ، وفى رقة دفع الأبواب الخضراء جانبا ودخل . وكانت ابر الصنوبر تشكل سجادة رقيقة • وكان هناك ضوء خافت يوحى بالتقوى •

وتوقف قرب المدخل وقد ألجمه الفزع عند مشاهدة شىء •

كان يتطلع اليه رجل ميت قد وضع ظهره مستندا لشجرة أشبه بالعمود • كانت الجثة فى زى رسمى أزرق اللون فى يوم من الأيام ولكنه صار الآن باهتا بحيث استحال الى ظل كئيب للون الأخضر وكانت العينان اللتان تحملقان فى الفتى قد استحالتا الى لون كئيب كلون عينى سمكة ميتة ؛ وكان فم الميت مفتوحا وقد استحالت حمرته الى لون أصفر مرعب ، وجرى فوق جلد وجهه الرمادى نمل دقيق ، كان بعضه يتدحرج على هيئة حزمة على طول شفته العليا •

أطلق الفتى صرخة عندما واجه هذا المنظر · وقد استحال الى صخر لبضع لحظات ، وظل محملقا في العينين اللتين تشبهان السائل ، وتبادل الرجل الميت والرجل الحي نظرة طويلة ، ثم وضع الفتى احدى يديه في حذر خلف ظهره وأسندها الى شجرة · وأخـــذ يتراجع وهو مستند على هذا الشيء ، خطوة فى اثر خطوة ، ووجهه لا يزال تجاه الميت · لقد كان يخشى أن لو أدار ظهره فلربما قفزت الجثة وتعقبته في خفية ·

وأما فروع الأشـــجار المندفعة نحوه فقد كانت تهدده بأن تقذف بالميت عليه · وتعثرت قدماه أيضا وكانتا على غير هدى ، تعثرت بصورة مهولة فى نباتات العليق · ومع كل هذا طرأ له اقتراح خبيث وهو أن يلمس الجثة ، فلما فكر فى أن يضع يده عليها ، أخذ يرتجف من أعماقه·

وأخيرا قطع الروابط التى كانت تصله بتلك البقعة وهرب غـــير مكترث بالشجيرات التى كانت تحت الأشجار الكبيرة ، وكان يتعقبه منظر النمل الأسود متجمعا فى نهم على الوجه الرمادى وقد تجاسر بصـــورة بشعة واقترب من عينيه ·

وبعد فترة توقف عن الحركة وأنصت وهو مبهور ولاهث · لقـد تخيل أن صوتا غريبا قد ينطلق من حلق الرجـــل الميت ويصيح صيحة مدوية فى اثره فى تهديد رهيب ·

وتحركت الأشجار حول أبواب الكنيسة الصـــغيرة ، تحركت فى حفيف مع نسيم الريح · وكان يسود واجهتها الصغيرة سكون حزين ·

# الفصل الثامن

بدأت الأشجار تغنى فى رقة نشيد الغسق · وهبطت الشمس حتى لمست الغابة بأشعتها البرونزية المائلة · كان هنـــاك توقف فيما تحدثه الحشرات من أصوات كأنها أحنت رءوسها فى سكون ورع · كان هناك سكون باستثناء صوت الأشجار وهى ترتل أغنيتها ·

ثم ، بعد هذا الهدوء ، سمع فجأة طنين أصوات هائلة ، وأتى من بعيد زئير عميق ·

فتوقف الفتى وقد طعنه هذا الخليط المروع من كافة الأصوات · لقــد بدا كما لو كانت العوالم قد تمزقت · كان هناك صــوت هائل لنيران البنادق وأصوات المدفعية المتقطعة ·

وكان ذهنه مشتتا فى كافة الاتجـــاهات · لقد أدرك أن الجيشين كانا يقفان الواحد منهما تجاه الآخر موقف النمور · وسكت فترة أخـذ بعدها يعدو فى اتجــــاه المعركة · لقد رأى أنه أمر يدعو الى السخرية أن يعدو هكذا تجاه ذلـك الشىء الذى حاول بشتى الطرق أن يتجنبه ، ولكنه قال لنفســه ، ضمنا ، أن لو كانت الأرض والقمر على وشـــك الاشتباك ، فان أفرادا كثيرين قد يخططون بلا شك لأن يقفوا فوق الأسطح ليشهدوا هذا الصدام ·

وبينما كان يجرى ، صار على علم بأن الغابة قد سكتت عن عزف موسيقاها ، كما لو أنه صــــار فى النهاية قادرا على ســـماع الأصوات

الغريبة . وسكنت حركة الأشـــجار ووقفت بلا حراك وبدا له أن كل شيء ينصت الى القرقعة والصليل والرعـد الذى يصم الآذان . وأخذ الترنيم يدوى فوق الأرض الساكنة .

وفجأة خطر للفتى أن القتال الذى اشترك فيه لم يكن ، على أية حال ، الا فرقعة متكلفة . وفى سماعه لهذا الطنين الراهن راوده الشك فيما اذا كانت أمامه مناظر قتال حقيقية . ان هذا الزئير العالى قد فسر معركة فلكية ، كانت ثمة مجموعات تكبو وتتصارع فى الهواء .

وفى تأمل رأى لونا من الفكاهة فى وجهة نظره عن نفســـه وعن اخوانه فى اللقاء الأخير . لقد أحاطوا أنفسهم والعدو بوقار تام ، وتخيلوا أنهم كانوا يقررون الحرب . لابد أن الأفراد كانوا يتوقعون أنهم كانوا يحفرون أحرف أسمائهم بعمق فى لوحات النحاس الدائمة أو أنهم يحتفظون الى الأبد بسمعتهم فى قلوب أبناء بلادهم ، فى حين أن الأمر قد يبدو فى الحقيقة فى تقـــارير مطبوعة تحت عنوان متواضع ولا أهمية له . ولكنه رأى أن هذا أمر طيب ، وقال أيضا ، ان كل فرد فى المعركة قد يهرب بكل تأكيد فيما عدا الآمال الباطلة وماشابهها .

ومضى سريعا وأراد أن يتوجه الى حافة الغابة حتى يســـتطيع أن يختلس نظرة خارجها .

وبينما كان مسرعا مرت بخـــاطره صور الصراعات الهائلة . ان جماع فكره عن مثل هذه الموضوعات قد استغله ليشكل مشاهد . كانت الضوضاء كصوت كائن بليغ يتولى وصف ما يراه .

وكان النبات المتسلق ، فى بعض الأحيان ، قد أخـذ شكل سلاسل محاولا اعاقته ، والأشجار المتلاقية تمد ذراعيها وتعوق مروره ، وبعـد عداوتها السالفة كانت مقاومة الغابة الجديدة هذه تملؤه بمرارة خفيفة . لقد بدا أن الطبيعة لا يمكن أن تكون على استعداد لقتله .

ولكنه فى عناد اتبع بعض المسالك الملتوية وكان فى تلك الآونة فى مكان يمكنه من أن يرى أعمدة طويلة من الدخان الرمادى حيث كانت تقع خطوط القتال · لقد أرجفته أصوات المدافع ، وكانت نيران المدافع ترن فى موجات طويلة غير منتظمة كنذير خراب على أذنيه · لقد وقف متطلعا لحظة وكان لعينيه تعبير الذعر ، وحملق فى بلادة فى اتجاه القتال·

وعلى الفور تقدم مرة أخرى فى سيره قدما · كانت المعركة فى نظره أشبه بآلة طحن ضخمة ومفزعة · لقد سحرته تعقيداتها وقواها وعملياتها البشعة · يجب أن يقترب ويلاحظها وهى دائبة على انتاج الجثث ·

وبلغ سياجا وتسلقه ، وعلى الطرف البعيد كانت الأرض مفروشة بالملابس والبنادق ، وهناك صحيفة ملفوفة وملقاة فى القاذورات ، وهناك جنـــدى ميت ممددا ووجهه مدفون فى ذراعـه · وعلى بعـــد ، كانت هناك مجموعة من أربع أو خمس جثث وقد شكلت مجموعة مفجعة ، وكانت الشمس ساخنة تسطع على البقعة ·

وأحس الفتى فى هذا المكان بأنه كان أحد الغزاة ، ان هذا الجانب المنسى من أرض المعركة صار ملكا للرجال الأموات ؛ وأسرع ، فى خـوف غامض ، وقد أخذ يعوقه واحد من الأشكال المنتفخة ويطلب منه الابتعاد ·

وأخيرا بلغ طريقا يستطيع أن يرى منه على بعـــد أجسادا سوداء مضطربة لفرق مزركشة بالدخان ، وكان فى الدرب حشد ملطخ بالدم يتدفق فى اتجـــاه المؤخرة · كان الجرحى من الرجال يلعنـون ويئنون ويبكون · وكان فى الهواء دائما ارتفاع قوى لصوت حتى بدأ أنه يمكن أن يجتاح الأرض · لقد امتزجت الهتافات الحمراء بكلمات التشجيع من المدفعية وكلمات الحقد فى نيران البنـــادق · ومن هـــذه المنطقة ذات الضوضاء جاء تيار ثابت من المشوهين ·

كان حذاء أحد الجرحى مليئا بالدم ، كان يقفز كتلميذ يلعب ويضحك فى هستيرية ·

واقسم أحدهم أنه أصيب فى ذراعه نظرا لسوء ادارة قائد الجيش، وكان آخر يمشى وهو يقلد أحد كبار الجاويشية ، وكان على محياه خليط كريه من المرح والألم ، وبينما كان يسـير تغنى بأبيات شعر ركيك غير موزون ، بصوت عال مرتعد :

« نحن اغنية النصر »

« ملء كيس من رصاص

« خمسة وعشرون من القتل

« خبزوهم فى ـ فطيرة . » .

وكانت أجزاء من الموكب تعرج وتترنح وهى تسمع هذا النغم .

وكان آخر قد طبع على وجهه بالفعل الطـابع الرمادى للموت . كانت شـفتاه قد تجعدتا فى خطوط جافة وصارت أسنانه ملتصقة . وكانت يداه ملطختين بالدم من المكان الذى كان يضغط بهما على جرحه . لقد بدا أنه كان يترقب اللحظة التى ينبغى أن يضرب فيها بسرعة . لقد تسلل مثل شبح جنـدى ، وكانت عيناه تتقدان بشدة وهو يحملق فى المجهول .

وكان البعض يتقدمون مكتئبين يملؤهم الغضب من جراء جراحهم وكانوا على استعداد لأن ينقضوا على أى شيء كما لو كان لسبب غامض .

وكان هناك ضابط يحمله الى الأمام اثنان من الجنـود . لقد كان برما أخذ يصيح : « لا ترجني هكذا يا جونسون ، يا أبله » . واستطرد : « أتظن أن قدمى قد قدت من حديد ؟ اذا لم تستطع أن تحملنى برفق فاقعدنى واترك الأمر لشخص آخر غيرك . » .

ونادى الحشد المترنح الذى كان يعوق طريق السير السريع لمن

كانوا يحملونه بقوله : « أقول ، أفسحوا الطريق هناك ، ألا تستطيعون ؟ أفسحوا الطريق ، لعنة الله عليكم أجمعين • » •

وتفرقوا عابسين واتجهوا الى جانبى الطريق ، ولما مر عليهم محمولا علقوا عليه تعليقات بذيئة ، ولما غضب رد عليها وهددهم ، فقالوا له : « لعنة الله عليك • » •

واصطدم كتف أحد الحمالين الجوابين ، بشدة بكتف الجندى الخيالى الذى كان يحملق فى المجهول •

وانضم الفتى الى هذا الحشد وسار قدما معه • لقد عبرت الأجساد الممزقة عن الترتيب الرهيب الذى وقع الرجال فى حبائله •

ومن حين لآخر كان جنود المراسلة والسـعاة يقتحمون الزحام فى طريق المركبـات مفرقين الجرحى يمنة ويسرة وهم يعدون تعقبهم ولولة • وكانت المسيرة الكئيبة يقلقها باستمرار الرسل وأحيانا البطارية الهادرة التى كانت تتحرك وتطرق عليهم ، والضـباط يصيحون بالأوامر لافساح الطريق •

وكان هناك رجل مهلهل الثياب ، قد اتسخ بالتراب والدم وبقع البارود من رأسه الى اخمص قدمه ، كان يمشى فى معاناة وفى هدوء الى جانب الفتى ، وينصت فى حمـاس وفى ذلة زائدة للأوصاف الجـذابة للجاويش ذى اللحية • وكانت ملامحه النحيلة تحمل تعبيرا عن الرهبـة والاعجاب • لقـد كان كمن ينصت فى حانوت قرية الى قصص عجيبة تتلى عليه بين براميل السكر ، كان يتطلع الى القصاص باعجاب لا يوصف ، وكان فمه فاغرا على طريقة الفلاحين •

ولما لاحظ الجاويش هـذا ، توقف عن سرد قصته المحكمة ليعلق تعليقا ساخرا ، فقال :

« احترس يا حبيبى والا اصطدت ذبابا • » •

فاذا بالرجل المهلهل الثياب ينكمش خجلا ٠

وبعد فترة بدأ يمشي قريبا من الفتى ، ويحاول بطريقة أخرى أن يتخذه صديقا ، وكان صوته رقيقا كصوت الفتاة وعيناه فيهما توسل ٠ وشهد الفتى في دهشة أن الجندى كان به جرحان أحدهما فى رأسه وقد ربط بخرقة مبللة بالدم والآخر فى ذراعه جعل ذلك العضـــو يتدلى كمـا لو كان غصنا مكسورا ٠

وبعد أن سارا معا فترة من الزمن استجمع الرجل المهلهل الثياب شجاعة كافية ليتكلم ثم قال في خجل : « لقد كان قتالا عظيما جدا ، أليس كذلك ؟ » وكان الفتى غارقا فى خواطره فتطلع الى الشخص العـــابس الملطخ بالدماء ذى العينين اللتين تشبهان عينى الحمل وقال : « ماذا ؟ »

« لقد كان قتالا عظيما جدا ، أليس كذلك ؟ »

فقال الفتى باختصار : « نعم » وأسرع خطاه

ولكن الآخر أخذ يحجـــل وراءه فى جهد ٠ وكان فى سلوكه مظهر للاعتذار ، ولكن كان واضـــحا أنه كان يفكر فى أنه بحاجة فقط الى أن يتحدث لفترة وأن الفتى ربما أدرك أنه فتى طيب ٠

« لقد كان قتالا عظيما جدا ، أليس كذلك ؟ » هكذا بدأ فى صـــوت خفيض ثم تماسك فى جلد واستمر قائلا : « لعنة الله على اذا كنت قد شهدت فى حياتى أفرادا يحاربون بهذه الصـــورة ٠ انظر كيف كانوا يحاربون ! كنت أعرف أن الأولاد سيكونون على هذه الصورة اذا ما واجهوها مرة ، ولم تتح للأولاد فرصـــة طيبة حتى الآن ، ولكنهم فى هــذه المرة أثبتوا أنهم أهل لها ٠ كنت أعلم أن الأمر سيتضح على هذه الصورة ٠ انك لا تستطيع أن تضرب هؤلاء الأولاد ، كلا يا سيدى ! انهم محاربون ، انهم لكذلك ٠ » ٠

وجذب نفسا عميقا ينم عن اعجاب متواضع ، وتطلع الى الفتى عدة

مرات ينتظر منه تشـجيعا ، ولكنه لم يلق أى تشجيع ، ويبـــدو أنه كان مستغرقا تدريجيا في موضوعه •

قال : «كنت أتحدث مرة عبر نقط الحراسة مع ولد من جورجيا وقال لى ذلك الولد : « ان اخوانك سيهربون كالجحيم اذا ما سمعوا البندقية تنطلق مرة أخرى • » فقلت له : « ربما هربوا » واستطردت : « ولكننى لا أعتقد أنه لن يهرب منهم أحد • » وعدت أقول : « ويحك ، ربما هرب كل اخوانك كالجحيم اذا ما سمعوا بندقية مرة • » فضحك • حسن ، انهم لم يهربوا ذلك اليـــوم ، أليس كذلك ، هه ؟ كلا يا سيدى ! انهم أكفاء وأكفاء وأكفاء • » •

كان وجهه المألوف يغلفه ضـــياء من حبه للجيش الذى كان عنده يمثل كافة الأشياء الجميلة القوية •

وبعد فترة التفت الى الفتى وقال : « أين أصبت أيهـــا الصديق العزيز ؟ » وكان تساؤله فى نغمة أخوية •

وأحس الفتى بفزع مفاجىء لدى سماعه هذا السؤال ، على الرغم من أنه لم يستوعب معناه الكامل فى بادىء الأمر •

وتساءل : « ماذا ؟ »

فقال الرجل المهلهل الثياب مرددا : « أين أصبت ؟ »

وبدأ الفتى حديثه قائلا : « ويحك ، أنا ــ أنا ــ أعنى ــ ويحك ــ أنا ــ • » •

واستدار فجأة وانسل وسط الزحام ، وكان جبينه قد صار شديد الحمرة وكانت أصابعه تمسك فى عصـــبية بأحـــد أزراره ، ومال برأسه وركز عينيه فى دقة على الزرار كما لو كان يشكل مشكلة صغيرة •

وتطلع الرجل المهلهل الثياب فى اثره وهو فى دهشة •

# الفصل التاسع

ابتعد الفتى عن الموكب حتى اختفى الجندى المهلهل الثيـــاب عن ناظريه ، ثم عاود السير مع الآخرين ·

بيد أنه كان محـــاطا بالجراح ، اذ كان حشد الرجال يقطر دما · أما عن السؤال الذى وجهه الجندى المهلهل الثياب فقد أحس الآن بأنه يمكن أن يلقى بالضوء على خزيه · فأخذ يوجه باستمرار نظرات جانبية ليرى ما اذا كان الرجال يتأملون علامات الجرم التى أحس بها وهى تحترق فى حاجبيه ·

فى أوقات كان يتطلع الى الجنود الجرحى فى حسد · كان يعتقد أن الأشخاص ذوى الأجساد الممزقة سعداء بصورة خاصـــة · لقد كان يتمنى هو نفسه ، أيضا ، أن يكون به جرح ، أى وسام شـجاعة أحمر صغير ·

كان شبح الجندى بجانبه كأنه لوم الماضى · كانت عينا الرجـــل ما زالتا مسلطتين فى حملقة الى المجهول · وكان وجهه الرمادى الشاحب قد جذب اهتمـــام الحشد · وكان الرجال ، وقد أبطأوا تبعا لخطواته الحزينة ، يسيرون معه · كانوا يناقشون حالته ويسألونه ويسدون اليه النصح · وفى عناء صدهم مشـــيرا اليهم بأن يتابعوا سيرهم ويتركوه وحده ، وكانت ظلال وجهه آخذة فى التلبس بالغموض ، وبدت شفتاه المطبقتان تعوقان أنين اليأس · كان يمكن أن يرى هناك بعض الجمود فى

حركات جسمه كما لو كان يعنى عناية لا حد لها حتى لا يثـــير كوامن جراحه ، وبينما كان يتابع سيره ، بدا كمن يبحث عن مكان ، أو يذهب ليختار مقبرة ٠

كان هناك شيء في حركة الرجل وهو يبعد الجنود الملطخين بالدم والذين كانوا يبعثون على الشفقة ٠ كان هنــاك شيء جعل الفتى ينطلق وكأنه قد لدغ ٠ وصرخ في ذعر ٠ وبينما كان يترنح الى الأمام وضـع يدا ترتجف على ذراع الرجل ، وعندما تلفت اليه الأخير في بطء بملامحه التي تشبه الشمع ، صرخ الفتى قائلا :

« يا الهى ! جيم كونكلين ! »

فابتسم الجنـــدى المديد القــامة ابتسامة عادية وقال : « أهلا ، هنرى » ٠

وترنح الفتى على قدميه وتطلع فى استغراب ، وتهته وتلعثم ، وقال « آه ، جيم ــ آه ، جيم ، آه ، جيم ٠٠٠ » ٠

ومد الجندى المديد القامة يده الملطخة بالدم ٠ كان هنــــاك خليط غريب من اللونين الأحمر والأسود من دم حديث وقديم عليها ٠ وتساءل : « أين كنت يا هنرى ؟ » واستطرد فى صوت رتيب « ظننت أنك ربمـــا قتلت هناك ٠ لقد كان هناك قصف شديد اليوم ٠ اننى شديد القلق بسببه ٠ » ٠

وكان الفتى لا يزال ينتحب ويقول : « آه ، جيم ــ آه جيم ٠٠٠ » ٠

وقال الجنــدى المديد القامة : « أنت تعلم أننى كنت هناك ٠ » وتحرك فى عناية وقال : « ثم بعد ذلك يا الهى ، يا له من ســـيرك ! يا الهى ، أصبت ــ أصبت ٠ نعم ، يا الهى ، لقد أصبت ٠ » وردد هــــذه الحقيقة بصورة محيرة كما لو لم يكن على علم بكيفية حدوثها ٠

ومد الفتى ذراعين متلهفتين ليساعده ، ولكن الجندى المديد القامة تابع ســيره وكأنه مدفوع الى الأمام ، ومنـــذ قدوم الفتى كحـــارس

لصديقه ، توقف الجنود الجرحى الآخرون عن اظهار مزيد من الاهتمام ، لقد شغلوا أنفسهم مرة أخرى فى سحب الانكباب على همومهم الدفينة ٠

وفجأة بينما كان الصديقان يتابعان سيرهمـــا ، بدا أن الجندى المديد القامة قد تملكه الرعب ٠ لقد استحال وجهه الى ما يشبه الطـــلاء الرمادى ٠ وأمسك بذراع الفتى وتطلع حواليه كما لو كان يخشى أن يسمعه أحد ، ثم بدأ يتحدث فى همس مرتجف ٠

« اننى أصارحك بما أخشاه يا هنرى ـ سأصارحك بمـا أخشاه ٠ اننى أخشى أن أقع ـ ثم أنت تعلم ـ هذه العربات اللعينة عربات المدفعية يبدو أنها ستسحقنى ٠ وهذا هو ما أخشاه » ٠

وصاح فيه الفتى فى هستيرية : « سأعنى بك يا جيم ! سأعنى بك ! أقسم بالله اننى سأفعل هذا ! » ٠

وقال الجندى المديد القامة وهو فى تضرع : « هل أنت متأكد ـ هل ستفعل هذا يا هنرى ؟ »

فقال الفتى بحماس : « نعم ـ نعم ـ أقول لك ـ سأعنى بـــك يا جيم ! » ولم يكن فى استطاعته أن يتكلم بدقة اذ كانت بحلقه غصة ٠

ولكن الجندى المديد القامة استمر يتوسل فى صـوت منخفض ، وتعلق بعدها بذراع الفتى ، كما يتعلق الطفل ، وأخذت عيناه تدوران فى رعب شديد وقال : « لقد كنت دائما صديقا حميما لك ، ألم أكن كذلـك يا هنرى ؟ لقد كنت لك دائما زميـــلا مخلصا جدا ٠ ألم أكن كذلك ؟ أنا لا أطلب منك الكثير ٠ أليس كذلك ؟ ان كل ما أطلبه هو أن تسحبنى مباشرة خارج الطريق ، اننى سأعـــده جميلا تســديه لى ، انى ســأعده جميلا ، يا هنرى ٠ » ٠

وتوقف فى حيرة يرثى لها وهو ينتظر جواب صديقه ٠

وكان الفتى قد برح به العذاب لدرجة أن العبرات أحرقته ٠ لقـد

جاهد ليعبر عن ولائه ولكن كل ما كان فى استطاعته هو القيـــام فقط بحركات غريبة ٠

وعلى الرغم من ذلك فقد بدا فجأة أن الجندى المديد القامة قد نسى كل هذه المخاوف ٠ لقد عاد ثانية الطيف العابس الحذر للجندى ٠ وتقدم فى ثبات ٠ لقد تمنى الفتى أن يميل صديقه عليه ، ولكن الأخير كان دائمـا يهز رأسه ويعترض فى غرابة ويقول : «كلا ــ كلا ــ كلا ــ اتركنى وحدى ــ اتركنى وحدى ٠٠٠ » ٠

ومرة أخرى تركزت نظرته على المجهول ٠ كان يتحرك تجاه هـدف غامض ، ونحى كل العروض التى عرضها الفتى جانبا وقال : « كلا ــ كلا ــ اتركنى وحدى ــ اتركنى وحدى ٠٠٠ » ٠

وكان على الفتى أن يتبعه ٠

وفى الحال سمع الأخير صـوتا يتحدث فى رقة قرب كتفيه ، ولما استدار رأى أنه صادر عن الجندى المهلهل الثياب : « من الأفضل أن تنقله بعيدا عن الطريق ، أيها الرفيق ٠ هناك بطارية قادمة مسرعة أســـفل الطـــريق وستسحقه وسينتهى على أية حـــال فى حـوالى خمس دقائق ــ تستطيع أن ترى ذلك ٠ من الأفضـــل أن تنقله بعيدا عن الطريق ٠ واعجبا ! من أين يستمد قوته ؟ »

فصاح الفتى قائلا : « الله أعلم » ٠ وكان يهز يديه يائسا ٠

وجرى الآن الى الأمام وأمسك بالجندى المديد القامة من ذراعه وقال ملاطفا : « جيم ! جيم ! تعال معى ٠ » ٠

وحاول الجندى المديد القامة فى ضعف أن يسحب ذراعه ويخلص نفسه ، وقال فى بلاهة : « هه » وتطلع الى الفتى لحظة وتحدث أخيرا كما لو كان ثقيل الفهم : « آه ! ندخل الحقول ؟ آه ! » ٠

وجرى خلال الكلأ كالأعمى ٠

وتلفت الفتى مرة أخرى ليتطلع الى راكبى البطارية الساخرين والى بنادقهم التى تهتز ، وبينما هو يتطلع الى هذا المشهد أفزعته صيحة حادة صادرة عن الرجل المهلهل الثياب ، اذ قال :

« يا الهى ! انه يجرى ! »

فلما أدار الفتى رأسه بسرعة رأى صديقه يجرى وهو يترنح ويتعثر فى اتجاه مجموعة صغيرة من الشجيرات ، وبدا أن قلبه يكاد يعتصر ليتحرر من جسده عند رؤيته لهذا المشهد • لقد أصدر صرخة ألم ، وبدأ هو والرجل المهلهل الثياب يسيران فى أعقابه • كان هناك سباق فريد •

وعندما لحق بالجندى المديد القامة بدأ يستعطفه بكل ما يستطيع أن يجده من كلمات قائلا : « جيم — جيم — ماذا تفعل — ما الذى يدعوك لأن تسلك هذا المسلك — أنت تؤذى نفسك • » •

كان هذا الغرض نفسه واضحا على وجه الجندى المديد القامة • لقد قاوم فى بلادة ، تاركا عينيه معلقتين بالمكان الغريب الذى كان يسعى لبلوغه ، وقال : « كلا — كلا — لا تلمسنى — اتركنى وحدى — اتركنى وحدى ••• » •

كان الفتى مذعورا وألم به الهلع من الجنـــدى المديد القامة وبدأ يسأله مرتجفا : « الى أين أنت ذاهب يا جيم ؟ فيم تفكر ؟ الى أين أنت ذاهب ؟ خبرنى ، ألا تخبرنى يا جيم ؟ »

ونظر الجندى المديد القامة حوله كمـا لو كان يتطلع الى متعقبين قساة القلوب ، وكان فى عينيه استعطاف بالغ وأخذ يقول : « اتركانى وحدى ، ألا تستطيعان ؟ اتركانى وحدى لحظة • » •

فذعر الفتى وقال : « لماذا يا جيم ؟ » قالها كما لو كان قد ألم به دوار واستطرد : « ماخطبك ؟ »

وتلفت الجندى المديد القامة وتابع سيره وهو يترنح فجأة ترنحا خطيرا • وسار الفتى يتبعه الجندى المهلهل الثياب فى جبن كما لو كان أحد يضربهما بسوط : كانا يحسان بأنهما عاجزان عن مواجهة الشخص المضروب لو أنه واجههما مرة أخرى ؛ وبدأت تراودهما خواطر احتفال كئيب ؛ كان هناك شىء أشبه بالطقوس فى حركات هذا الجندى الذى يلقى مصيره ، وكان هناك تشابه بينه وبين من كرس حياته لديانة غريبة تقول بمص الدم أو تشويه العضلات أو سحق العظام • لم يكن فى استطاعتهما أن يدركا ذلك بالضبط • كانا مذعورين وخائفين • لقد ترددا فى التقدم خشية أن يكون معه سلاح خطير تحت يديه •

وأخيرا شاهداه يتوقف ويظل بلا حراك • وأسرعا للحاق به ، وأدركا أن على وجهه تعبيرا يدل على أنه وجد أخيرا المكان الذى كان يكافح من أجله • كانت هيئته النحيلة معتدلة ، ويداه الملطختان بالدم بجانبه فى هدوء • كان ينتظر شيئا فى صبر كان قد قدم للقائه • لقد كان على موعد لقاء • وتوقفا ووقفا وهما يتوقعان حدوث شىء •

خيم السكون على المكان •

وأخيرا بدأ صدر الجندى الذى ينتظر مصيره فى الصعود والهبوط فى حركة متوترة ، وازدادت حركته حتى أصبح وكأن حيوانا بداخله يرفس ويضرب فى ثورة ليحرر نفسه •

هذا المشهد المعبر عن الاختناق التدريجى قد جعل الفتى يتضور ، وعندما أدار صديقه عينيه رأى شيئا فيهما جعله يتداعى على الأرض مولولا • ورفع صوته فى صيحة عالية أخيرة قائلا :

« جيم — جيم — جيم ••• » •

وفتح الجندى المديد القامة شفتيه وتكلم • لقد أصدر حركة وقال : « أتركنى وحدى ـ لا تمسنى ـ اتركنى وحدى ••• » •

وساد سكون مرة أخرى بينما كان ينتظر •

وفجأة توترت هيئته واستقامت ثم هزتها نوبة قشعريرة طويلة، وحملق فى الفضاء . لقد بدا للمشاهدين الاثنين أن هناك جلالا غريبا وعميقا فى الخطوط الثابتة على وجهه المهيب .

لقد ساده نفور زاحف أخذ يتملكه فى بطء . وللحظة أدت به نوبة الرعشة التى انتابت رجليه ، الى أن يرقص لونا من رقصات النوتية المخيفة . كانت ذراعاه تضربان وجهه بوحشية فى تعبير عن حماس شيطانى .

وتمددت هيئته بكامل طولها . كان هناك صوت يتردد خفيضا ، ثم بدأ يتأرجح ، كان بطيئا ومستقيما كما لو أن شجرة تسقط ؛ وأدى الالتواء العضلى السريع الى ارتطام الكتف اليسرى بالأرض أولا .

وقال الجندى المهلهل الثياب : « يا الهى ! »

ورأى الفتى وهو فى ذهول ، هذا الاحتفال فى مكان اللقاء . كان وجهه قد التوى فى تعبير عن كل كرب يتخيل أن يلم بصديقه .

وقفز الآن الى قدميه ، وزاد اقترابه ، وحملق فى الوجه الشبيه بالوجه المطلى ، وكان الفم فاغرا وقد كشفت أسنانه عن ضحكة .

ولما سقط حزام السترة الزرقاء من الجسد كان فى استطاعته أن يشاهد أن جانبا منه يبدو كما لو أن الذئاب قد مضغته .

واستدار الفتى ، فجأة ، فى غضب شديد ، تجاه ميدان القتال وأخذ يهز قبضة يده ، لقد بدا أنه كان على وشك أن يعلن تنديده .

« الجحيم ... » .

وكأن الشمس الحمراء قد التصقت بالسماء التصاقا لا فكاك منه .

# الفصل العاشر

وقف الرجل المهلهل الثياب شارد الفكر ٠

وقال أخيرا فى صـــوت يشوبه جانب من الخوف : « حسن ، لقد كان مرهف الأعصاب بطبيعته ، أليس كذلك ؟ » واستطرد : « مرهفـــا بطبيعته » وفى تفـــكير ، دفع باحـــدى يديه الماهرتين الى قدمه وقال : « اننى لأعجب من أين أتت له تلك القوة ؟ اننى لم أر قط رجلا يفعـــل مثلما فعل هذا من قبل ٠ لقد كان شيئا طريفا ٠ حسن ، لقد كان شخصا مرهفا بطبيعته ٠ » ٠

وكان الفتى يريد أن يصرخ صرخة عالية من جراء حزنه ٠ لقـــد طعن ، ولكن لسانه رقد ميتا فى تابوت فمه ٠ لقد رمى بنفسه على الأرض مرة أخرى وبدأ يفكر فى قلق ٠

ووقف الرجل المهلهل الثياب شارد الفكر ٠

وقال بعد فترة من الوقت : « اسمع أيها الرفيق » وتطلع الى الجثة وهو يتكلم : « لقد صحا ثم انتهى ، أليس كذلك ؟ وقد نبدأ أيضـــا فى البحث عن الصديق رقم واحد ٠ ان هذا الأمر هنـــا قد انتهى ٠ لقد صحا ثم انتهى ، أليس كذلك ؟ وهو على ما يرام هنا ، لن يضيق به الناس ذرعا ، ويجب أن أقول اننى لا أنعم بصحة جيدة أنا نفسى فى هذه الأيام »٠

وصعد الفتى نظرته بسرعة وقد أيقظته عبـــارة الجندى المهلهل الثياب • لقد شاهد أنه كان يترنح فى غير ثبات فوق قدميه وقد استحال وجهه الى ظل من اللون الأزرق •

فصاح : « يا الهى ! هل أنت ذاهب ••• ألست ، أيضا ؟ » •

ولوح الرجل المهلهل الثياب بيده وقال : « لن أموت » وردد كمـا لو كان فى حلم « ان كل ما أريده بعض حساء الحمص وفراش طيب • بعض حساء الحمص • » •

ونهض الفتى من الأرض وقال : « انى لأعجب من أين جاء • لقـد خلفته ورائى هناك • » قالها وهو يشير ، واستطرد : « والآن أجده هنا، وكان قادما من هناك أيضا • » وأشار الى اتجاه جديد • واستدار كلاهما الى الجسد كما لو كانا يوجهان اليه سؤالا •

وأخيرا تحدث الرجل المهلهل الثياب قائلا : « حسن ، لا فائدة من انتظارنا هنا ومحاولتنا سؤاله عن أى شىء • » •

وأومأ الفتى برأسه فى ضجر ايماءة موافقة ، وتلفت كلاهمـــا ليحملق لحظة فى الجثة •

وتمتم الفتى بشىء •

وقال الرجل المهلهل الثيـاب كما لو كان مجيبا : « حسن ، لقـد كان مرهفا ، ألم يكن كذلك ؟ »

وأدارا ظهرهما للجثة وانطلقا • وانسلا فترة فى رقة وداسـا على الأرض بأطراف أقدامهما • لقد ظلت الجثة هناك ضاحكة فوق الكلأ •

وفجأة قال الرجل المهلهل الثياب وهو يقطع احدى سكناته البسيطة: « لقد بدأت أحس بأننى فى حالة سيئة جدا • » ثم استطرد : « لقد بدأت أحس بأننى فى حالة سيئة جدا جدا • » •

وقال الفتى مزمجرا : « يا الهى ! » وخشى من أن يصبح شاهدا معذبا ليشهد مصيرا بشعا آخر ٠

ولكن رفيقه لوح بيده فى تأكيد : « آه ، اننى لن أموت بعد ! مازال هنـــاك الكثير الذى يمكن أن تعتمد فيه على لأننى لن أموت بعد ، كلا ، يا سيدى ، لن أموت ! اننى لن أموت ! يجب أن ترى الألف طفل الذين أنجبتهم وكل ما على شاكلة ذلك ٠ » ٠

فلما تطلع الفتى الى رفيقه كان فى استطاعته أن يرى طيف ابتسامة كأنه يمزح ٠

وبينما كانا يتهاديان فى مشيتهما ، استمر الجندى المهلهل الثيـــاب فى حديثه فقال : « وفضلا على هذا ؛ فأننى لن أموت بالصورة التى مات عليها ذلك الشخص ، اذ لم تكن شيئا طريفا ٠ ان كل ما فى الأمر هو أن أرتمى على الأرض ، هذا ما قد يحدث لى ٠ اننى لم أر قط انسانا يموت بهذه الكيفية التى مات بها ذلك الشخص ٠ » ٠

« أنت تعرف توم جاميسون الذى يسكن بجانبى ٠ انه شـــخص لطيف ، انه لكذلك ، كنا دائما صديقين حميمين ٠ لقد كان أنيقا أيضا؛ كان فى صرامته كمصيدة من الصلب ٠ نعم بينما كنا نحارب يوما بعد الظهر اذا به فجأة يبدأ فى الاندفاع نحوى ويقبلنى ويتعلق بى ويقول : « لقد أصبت ، أيها اللعين الملوم توتى ــ توتى ــ توتى ــ تو ! ــ كان يقسم فى فزع وهو يقول لى : ورفعت يدى الى رأسى وعندما تطلعت الى أصابعى رأيت بكل تأكيد أننى قد أصبت ، فأطلقت صرخة وبدأت فى العدو ، ولكنى قبل أن أنطلق أصابتنى طلقة أخرى فى ذراعى فدرت حول نفسى وتملكنى الخوف عندما وجدتهم جميعا يطلقون النيران خلفى وعدوت لأضرب الجميع ، ولكنى أسأت انتهاز الفرصـــة وانى لأعتقد أننى ربما كنت لا أزال أقاتل لو لم يكن توم جاميسون موجودا ٠ » ٠

ثم أعلن فى هدوء : « هناك اثنان منهم ــ صـــغار ــ يبدآن فى الاستهزاء بى الآن ٠ لا أعتقد أننى أستطيع أن أسير أكثر من هــذا ٠ »

وسار ببطء فى سكون ، فقال الرجل المهلهل الثياب : « يبدو أنك ترمق نفسك خلسة » • ثم استطرد : « أقامر أنك صرت أسوأ مما كنت تظن • من الأفضل أن تبتعد لئلا يصيبك ضرر • لن أسمح باتاحة فرصة لمثل تلك الأمور • وقد تكون غالبيتها أمورا داخلية وهم يلعبون بالقصف • أين مكانه ؟ » ولكنه استمر فى ثرثرته دون أن ينتظر جوابا : « لقد شاهدت ذات مرة شخصا أصابته رصاصة فى رأسه بينما كانت فرقتى تستريح • وصرخ كل فرد فيه : هل أصبت يا جون ؟ هل اصابتك شديدة ؟ فأجاب : « كلا » وبدا أكثر دهشة واستمر فى اخبارهم كيف كان احساسه • لقد قال انه لم يحس بشىء ، ولكن أقسم لك بأبى أن أول شىء عرفه ذلك الشخص هو أنه مات • نعم ، كان ميتا ـ ميتا تماما • ومن ثم فأنت فى حاجة الى أن تترقب • ربما قد أضر بك شىء غريب • لا تستطيع أن تعرف • أين مكان اصابتك ؟ »

كان الفتى يتلوى منذ التمهيد لهذا الموضوع • وهنا صرخ صرخة سخط وقام بتحريك يده حركة ثائرة وقال : « أواه ، لا تضايقنى » ! كان شديد الغضب من الرجل المهلهل الثياب وكان فى استطاعته أن يخنقه • وبدا أن أقرانه يلعبون أدوارا لا تطاق على الاطلاق وكان شبح الخزى يسيطر على فضولهم دائما • وتلفت الفتى تجاه الرجل المهلهل الثياب كما يتلفت شخص وقع فى محظور ، وقال : « الآن ، لا تضايقنى • » وكررها فى توعد يائس •

فقال الآخر : « حسن ، الله يعلم أننى لا أريد أن أضايق أحدا • » كانت هناك نبرة بسيطة من اليأس فى صوته وهو يجيب : « يعلم الله ان لدى ما يكفينى لأشغل نفسى به • » •

واذا بالفتى الذى كان يعقد مناقشة مريرة مع نفسه ويلقى نظرات كراهية واستخفاف على الرجل المهلهل الثياب ، اذا به يتحدث هنا بصوت خشن ويقول : « الى اللقاء • » •

وتطلع اليه الرجل المهلهل الثياب فى دهشة وهو فاغر فاه وسأله وهـو قلق : « ويحك ـ ويحك ، أيها الرفيق ، الى أين أنت ذاهب ؟ » وتطلع اليه الفتى ، وكان فى استطاعته أن يرى أنه ، أيضا ، على شاكلة الرجل الآخر ، قد بدأ يتصرف فى ذهـول وكالحيوان · وبدت خواطره تغوص فى رأسه · « الآن ـ الآن ـ اسمع ـ يا توم جاميسون ـ الآن ـ لا أريد هذا ـ هذا لا ينفع هنا · أين ـ الى أين أنت ذاهب ؟ »

وأشار الفتى فى غموض وهو يجيب : « الى هناك · » ·

وقال الرجل المهلهل الثياب : « حسن ، الآن ، اسمعنى ، الآن » قالها وهو مشتت الفكر كالأبله · وكان رأســـه مدلى الى الأمام وكانت كلماته غير واضحة المقاطع وقال : « لن ينفع هـــذا الأمر الآن يا توم جاميسون · لا ينفع · اننى أعرفك · أنت شيطان عنيد · انك تريد أن تتجول وأنت مصاب اصابة بالغة · هذا خطأ ـ الآن ـ يا توم جاميسون ـ أليس كذلك ؟ أنت تريد أن تمنعنى من أن أعنى بك ، يا توم جاميسون · ان هذا خطأ ـ أليس كذلك ؟ ـ خطأ أن تتجول ـ وأنت مصاب اصابة بالغة ـ انه ـ انه ـ انه خطأ ـ أليس كذلك ؟ »

وردا على ذلـــك تسلق الفتى سياجا وانطلق بعيـــدا · كان فى استطاعته أن يسمع الرجل المهلهل الثياب وهو يهذى شاكيا ·

ومرة تطلع حواليه غاضبا وقال : « ماذا ؟ »

« اسمعنى ـ هنا ـ يا توم جاميسون ـ الآن ـ أليس كذلك ؟ »

وتابع الفتى سـيره وتلفت من بعيـــد فرأى الرجل المهلهل الثياب وهو يتجول حواليه يائسا فى الحقل ·

وجال الآن بخاطره أنه يتمنى الموت · كان يعتقـــد أنه يحســـد أولئك الرجال الذين كانت أجسادهم راقدة متناثرة على كلأ الحقول وعلى الأغصان المتساقطة فى الغابة ·

كانت أسئلة الرجل المهلهل الثياب فى بساطتها بمثابة طعنات سكين أصابته • لقد أكدت له أن هناك مجتمعا يسبر ، فى غير ما رحمة ، غور الأسرار حتى تتضح جميعها • ان فرصة ثبات صاحبه المتوفى قد جعلته يحس بأنه لا يستطيع أن يبقى على جريمته مخبأة فى قلبه ـ كان من المؤكد أنها ستظهر واضحة بأى واحد من تلك السهام التى تغطى الهواء والتى تؤلمه باستمرار وتكشف وتعلن تلك الأمور التى يراد بها التستر الى الأبد • لقد اعترف بأنه لا يستطيع أن يحمى نفسه بازاء هذه الوسيلة • لقد كانت أقوى من قوة الحذر •

# الفصل الحادى عشر

صار على علم بأن زئير أتون المعركة كان آخـــذا فى الازدياد • لقد صعدت سحب بنية كثيفة الى طبقات الهواء العليا المستقرة أمامه • وكانت الضوضاء تقترب منه أيضـا ؛ الغابات تبين عن أشباح الرجال ، والحقول ملطخة بالدماء •

وبينما كان يدور حول احـدى الآكام أدرك أن جانب الطريق كان يعج عندئذ بمجموعة من العربات وبمجموعات من الرجـــال • وصدرت من الفروع المترنحة تحذيرات وأوامر ولعنات ، وكان الخوف يســودها جميعا • والسياط المخدوشة تؤلم والجياد تغطس وتشــد أنفسها بشدة والعربات بسطحها الأبيض منهوكة ومترنحة فى كدها كالغنم السمينة •

وأحس الفتى بأنه قد استراح الى حد ما من هذا المشــهد • كانوا جميعهم ينسحبون • ربما لم يكن هذا سيئا جدا على أية حال • وأجلس نفسه ورأى العربات التى تملكها الفزع • لقد هربوا كالحيوانات الواهنة الارادة الخرقاء • كان جميع المزمجرين واللاطمين قد ساعدوه على تضخيم مخاطر وأهوال المعركة لعله يحاول البرهنة لنفسه على أن الشىء الذى يسـتطيع الرجال أن يتهموه به هو فى الحقيقـة عمل منظم • كان يحس بقدر كبير من السرور فى مشاهدة المسيرة الثائرة التى استلهم منها هذا التبرير لنفسه •

وفي الحال ظهرت في الطريق بواكير طابور المشـــاة التي كانت تتقدم الى الأمام • لقد تابعوا سيرهم مسرعين • وكان تجنب هذا الطابور للمعوقات قد جعل مســيرته ملتوية كالثعبان في حركته • والرجـال في المقدمة يضربون البغال بسيقان بنادقهم • كانوا ينخسون سـائقى سرب الجياد غير مكترثين بكل صراخ • وشق الرجال طريقهم عبر جهات الجمهرة المزدحمة بالقوة ، واندفع رأس الطابور الكليل • وأقسم سائقو سرب الجياد بألوان عديدة غريبة من القسم •

كان للأوامر الخاصة بفتح الطريق صـــدى كبير الأهمية عندهم • الرجال يتقدمون الى قلب الضـــوضاء ؛ كان عليهم أن يواجهوا الاندفاع الحماسي للعدو • لقد أحسوا بفخر من حركتهم التقدمية عندما كان يبدو أن ما تبقى من الجيش يحاول أن يتدحرج هابطا هذا الطريق • لقـــد تسببوا في تعثر الجياد يتملكهم شعور طريف هو أن الأمر لا يهم طالما أن طوابيرهم قد بلغت الجبهة في الوقت المناسب • لقد صبغ هذا الاهتمام وجوههم بصبغة الرزانة والتجهم ، وكان ظهور الضباط ينبىء عن شـدة الصرامة •

ولما تطلع اليهم الفتى عاد اليه همه الثقيل • لقد أحس بأن أمامه موكب كائنات حية مختارة • كانت عملية الانفصال كبيرة في نظره كما لو كانوا قد ساروا بأسلحة لهب وأعلام قدت من ضوء الشمس • كان في استطاعته أن يبكي وهو في أشواقه •

وأخذ ينقب في ذهنه عن لعنة مناسبة يلحقها للسب المطلق ، الشيء الذي تناوله الرجال في عبارات اللوم الأخير • لقد قال بأنه ــ مهما كان هذا الشيء ــ فقد كان يلقى عليه تبعته • كان هناك خطأ •

بدا للشـــاب اليائس أن اللحاق بالطابور لبلوغ المعركة شيء أخف من القتال العنيف • لقد كان يظن أن الأبطال يســتطيعون أن يلتمسوا المعاذير في ذلك الدرب الطويل القلق • كان في استطاعتهم أن ينسحبوا في احترام ذاتي ويقدموا الأعذار للنجوم •

كان يعجب ماذا أكل أولئك الرجال حتى تمكنوا من السير بمثل هذه السرعة ليشقوا طريقهم لفرص الموت البشعة · وكلما راقبهم زاد حسده لهم حتى ظن أنه أراد أن يبدل حياته مع حياة واحد منهم · كان يتمنى أن يستخدم قوة عظيمة ، كما قال ، وأن يقذف بنفسه ويصبح أفضل من ذلك · استرجع صورا سريعة عن نفسه ، على حدة ، ولكن كانت داخل نفسه ـ صورة يائسة زرقاء تمثل شخصا مكفهر الوجه يقوم بهجوم وركبته الى الأمام ونصلا مكسورا مرفوعا عاليا ـ صورة زرقاء لشخص صمم على أن يصمد أمام هجوم دام وعنيف ، يقتل فى هدوء على مكان عال أمام أعين الجميع · لقد فكر فى الأحاسيس العظيمة التى ستلحق بجسده الميت ·

لقد رفعت هذه الخواطر من روحه المعنوية · أحس برجفة الرغبة فى الحرب ، وسمع فى أذنيه رنين النصر · كان يعلم بجنون الهجوم الناجح السريع · لقد جعلته موسيقى وقع الأقدام والأصوات الحادة ، وقعقعة أذرع الطابور بالقرب منه ، يسمو على أجنحة الحرب الحمراء ولبضع لحظات كان ساميا ·

لقد فكر أنه على وشك أن ينطلق الى الجبهة · لقد رأى فى الحقيقة صورة لنفسه ملطخة بالتراب ، وهو منهوك يلهث ، يطير الى الجبهة فى اللحظة المناسبة ليخنق ويمسك بناصية منجمة الكارثة ، السوداء التافهة ·

ثم بدأت المصاعب تحل به · لقد تردد وهو يقف على قدم واحدة فى صورة غريبة ·

ولم تكن معه بندقية ، انه لا يستطيع أن يقاتل بيديه · هذا ما قاله مستنكرا لخطته · حسن ، ان البنادق ممكنة ولا ينقص الا الاختيار· لقد كانت وفيرة وفرة غير عادية ·

واستمر قائلا أيضا انها قد تكون معجزة ، لو عثر على فرقته حسن ، قد يحارب مع أية فرقة ·

وانطلق الى الأمام فى بطء ، وخطا كما لو كان يتوقع أن يمر على بعض الأشياء المتفجرة · لقد كان هو والشكوك فى نضال ·

قد يكون حقيراً حقاً لو أن أحدا من أقرانه رآه عائدا على هذه الصورة وعلامات فراره بادية عليه · كان هناك رد هو أن المحاربين المصممين على القتال لا يأبهون بما يحدث فى المؤخرة اعتقادا منهم بأنه لم تظهر هنـاك حراب أية بنادق معادية · وفى تلوث المعركة قد يخفى وجهه بصـورة ما كوجه عامل المدخنة ·

ولكنه قال بعد ذلك ان مصيره المحتوم قد يحل عندما يهدأ القتال بعض الوقت ، وعندما يأتى رجل ليسأله عن تفسير · لقد أحس فى تخيله بتقصى أقرانه كما سبق أن عاناه بصراحة خلال بعض الأكاذيب ·

وأخيرا تغلبت شجاعته نفسها على هذه الاعتراضات · لقد صرفه الجدل عن ناره ·

لم يكن مكتئبا من فشـــــل خططه لأنه ، بعد دراسة الأمر دراسة دقيقة ، لم يكن فى استطاعته الا أن يقرر أن الاعتراضات كانت جســيمة جدا ·

وأبعد من هـــذا فقد بـــدأت مختلف العلل تصرخ · لم يكن فى استطاعته ، فى وجودها ، الاستمرار فى التحليق عاليا بأجنحة الحرب ، كانت تسلم بأنه يكاد يكون من المستحيل عليه أن يرى نفسه فى ضـوء بطولى · لقد تعثر بسرعة ·

لقـد اكتشف أن به عطشا شديدا ، وكان وجهه شـــديد الجفاف والقذارة حتى أحس أن جلده سيتشقق ، وكان بكل عظمة من عظامه ألم ويبدو أنها كانت تهـدد بأن تتكسر مع كل حركة · كانت قدماه اشـبه بقرحتين ، وجسده أيضا يطلب طعاما · لقد كان أقوى من أى جوع مباشر · كان شعورا بليدا وثقيلا كالشعور الذى كان يحس به فى معدته ، وعندما حاول أن يمشى ، أخذ رأسه يترنح ، وتمايل · لم يكن فى استطاعته أن

يرى بوضوح · لقد حلقت أمام ناظريه بقع صغيرة من ضباب أخضر اللون·

وبينما كانت تتقاذفه عواطف عديدة ، لم يكن على علم بالعلل · لقد تملكته الآن ، وأخذت فى الصراخ · ولما صار مضطرا فى النهـاية الى أن يعيرها اهتمامه ، تضاعفت قدرته على كراهية ذاته · وفى يأس علن أنه لم يكن على شاكلة أولئك الآخرين · لقد أذعن الآن بأن من المستحيل أن يصبح بطلا على الاطلاق · لقد كان وغدا جبانا ، لقد كانت صور المجد تلك أمورا يرثى لها · كان يئن من قلبه ، واستمر فى الترنح ·

كانت بداخل نفسه صفة معينة أشبه بصفة السوسة تبقيه فيما يجاور المعركة · لقد استبدت به رغبة كبيرة لأن يرى ويتسقط الأنباء · كان يود أن يعرف من المنتصر ·

لقد أخبر نفسه أنه ، على الرغم من معاناته التى لم يكن لها سابقة ، لم يفقد قط نهمه للنصر ، ومع ذلك فقد قال ، فى شبه أسلوب اعتذارى لضميره ، انه لم يكن فى استطاعته الا أن يعرف أن هزيمة الجيش هـذه المرة قد تعنى أمورا كثيرة مشـــجعة ، فضربات العـدو تقسم الفرق الى أجزاء ، ومن ثم فقد يضطر كثير من الرجال ذوى الشجاعة ، كما يعتقد ، الى الهروب من الفرقة وينطلقون مسرعين كالكتاكيت · قد يبدو كواحد منهم ، قد يكونون اخوة حادى الطبع فى الشدة ، ومن ثم فقد يســـهل عليه أن يؤمن بأنه لم يعد أبعد أو أسرع مما فعلوا ؛ واذا كان هو نفســه يســتطيع أن يؤمن بكماله الفاضل ، فقد كان يدرك أنه قد تكون هنـاك صعوبة بسيطة فى اقناع الآخرين جميعهم ·

وقال ، كما لو كان يتلمس عذرا لهذا الأمل ، بأن الجيش قد لقى من قبل هزائم كبيرة وأنه فى أشهر قليلة قد تخلص من كل دمها وأحاديثها المنقولة ، وبرز كجيش مشرق شجاع ، كجيش جديد مبعدا عن ناظريه ذكرى الشدة وبادِيا فى شجاعة وثقة الفيالق التى لا تقهر ؛ وأصـــوات الرجال المجلجلة فى غير كلفة ، قد تصفر فى تشاؤم ، ولكن كان جميع

القواد مضطرين عادة الى أن ينصتوا الى هذه الأنغام • لم يحس هو بطبيعة الحال بأى تأنيب للضمير على اقتراح قائد ليكون ضحية ، ولم يكن فى استطاعته أن يذكر من هو الشخص الممتاز ليتلقى السهام ، لأنه قد لا يركز عليه عطفا مباشرا • كان الناس بعيدين ولم يكن يفهم أن الرأى العام يمكن أن يكون صحيحا الى هذا الحد البعيد • كان من المحتمل تماما أنهم قد يصيبون الشخص غير المقصود الذى ، بعد أن يشفى من دهشته ، ربما أنفق بقية أيامه فى كتابة ردود لأغانى فشله المعزو اليه • قد يكون من سوء الطالع جدا ، بلا شك ، ولكن فى هذه الحالة ، لم يكن القائد بذى أهمية للفتى •

فى هزيمة قد يكون هناك تبرير غير مباشر لنفسه • لقد ظن أنه قد يبرهن ، بطريقة ما ، على أنه قد هرب فى وقت مبكر من فعل قوى ادراكه الذكية • ان المتكهن الجاد اذا أراد أن يتكهن بفيضان وجب عليه أن يكون أول رجل يعتلى شجرة ، فقد يوضح هذا أنه متكهن حقا •

كان الفتى ينظر الى البراءة الخلقية كما لو كانت أمرا بالغ الأهمية ، ولقد اعتقد أنه بدون تبرير لا يستطيع أن يرتدى وسام الخزى الأليم طوال حياته ، كان قلبه يؤكد له باستمرار أنه حقير ، وأنه لا يمكن أن يعيش دون أن يوضح ذلك لكل الناس عن طريق أعماله •

واذا ما استمر الجيش باسلا فى أعماله ، فقد يقضى عليه ، واذا كان الطنين يعنى أن ألوية جيشه الآن متجهة الى الأمام ، اذن فهو مخلوق مسكين منهار ؛ قد يضطر أن يجعل مصيره العزلة • واذا ما كان الرجال متقدمين ، فستدوس أقدامهم بلا اكتراث آماله فى أن يحيا حياة ناجحة •

ولما أخذت هذه الخواطر تمر بسرعة بمخيلته ، هاجمها فجأة وحاول أن يبتعد عنها • لقد اتهم نفسه بأنه وغد ، وقال بأنه أكبر شخص أنانى كامل فى الوجود • وتصورت مخيلته الجنود الذين قد يعرضون أجسادهم المتحدية أمام حراب المعركة الضارية الصارخة ، وبينما كان يشهد جثثهم تتساقط على ميدان قتال خيالى ، قال بأنه كان هو قاتلهم •

وفكر أخيراً أنه تمنى لو كان ميتاً • لقد آمن بأنه كان يحسد الجثث • ولما فكر في القتلى أعلن عن شدة احتقاره لعدد منهم ، كما لو كانوا مذنبين لأنهم صاروا بلا حياة تدب فيهم • ربما كانوا قد قتلوا في مناسبات سعيدة ، هكذا قال ، قبل أن تتاح لهم فرص الهروب أو قبل أن يختبروا حقا • ومع ذلك فلربما يتلقون من المسئولين أكاليل الغار • صاح عندئذ في مرارة بأن تيجانهم قد سرقت وأن ثيابهم الخاصة بالذكريات المجيدة كانت زائفة ؛ ومع ذلك كان لا يزال يقول انه من المؤسف جدا أنه لم يكن مثلهم •

ان هزيمة الجيش قد فرضت نفسها عليه كوسيلة للهرب من نتائج سقطته ؛ ومع ذلك فقد اعتبر الآن أنه لا فائدة من التفكير في مثل هذا الاحتمال • كل ما يعلمه هو أن النجاح مؤكد بالنسبة لتلك الآلة الزرقاء القوية ، وأنها قد تصنع النصر كالجهاز الذى يخرج الأزرار • لقد تخلى على الفور عن كل تأملاته في الاتجاه الآخر . وعاد الى عقيدة الجنود •

وعندما أدرك ثانية أن من المستحيل أن ينهزم الجيش ، حاول أن يحدث نفسه عن قصة طريفة يمكن أن يعود بها الى فرقته ، يستطيع بها أن يغير تيارات السخرية المتوقعة •

ولكن لما كان يخشى تماما تيارات السخرية هذه ، فقد استحال عليه أن يخترع قصة أحس بأنه يمكن أن يثق فيها • لقد جرب خططا عديدة ولكنه رماها وراء ظهره الواحدة تلو الأخرى نظرا لسخافتها • لقد كان سريعا في اكتشافه مواطن الضعف فيها جميعها •

وأبعد من هذا ، فقد كان شديد الخوف من أن بعض سهام السخرية قد تحط من حالته العقلية قبل أن يتمكن من تأليف قصته التى تحميه •

لقد تخيل الفرقة بأسرها تقول : « أين هنرى فليمنج ؟ لقد هرب ، أليس كذلك ؟ آه ، ويحك ! » لقد تذكر أشخاصا مختلفين كان متأكدا

تمام التأكد من أنهم لن يتركوه فى سلام · لا شـك أنهم سيستجوبونه فى سخرية ويضـحكون على تردده وتلعثمه · وفى المعركة التـالية قد يحاولون مراقبته ليكتشفوا متى سيهرب ·

وحيثما يدخل المعسكر قد تقابله تحديات وقحة قاسية فى توانيها· وكمـا تخيل نفسه مارا بالقرب من حشـد الرفاق ، أمكن أن يسـمع أحدهم يقول : « ها هو يمشى هناك ! » ·

ثم ، كمـا لو كانت الرءوس قد تحركت بارادة واحـدة ، اذا بالوجوه كافة تتجه نحوه فى ضحكات فاترة وعريضـة وساخرة · لقـد بدا أنه سمع أحدهم يعلق تعليقات هزلية فى نغمة خافتة ، عنـد سماعها هلل الآخرون جميعهم وانخرطوا فى الضحك · لقد كانت العبارة الموجهة اليه احدى العبارات السوقية ·

# الفصل الثاني عشر

كاد الطابور الذى ارتطم بشــدة بالعوائق فى جانب الطريق ـ أن يكون بعيــدا عن مرأى الفتى قبل أن يرى أمواجا سـوداء من الرجال جاءوا منسحبين من الغابات ومن بين الحقول · لقـد عرف على الفور أن الأنسجة الفولاذية قد تخلصت من قلوبهم ، وكانوا يتخلصون من معاطفهم وعتادهم كمـــا لو كانوا يتخلصون من معوقات ، وهجمـوا عليه كمــا لو كانوا جاموسا مخيفا ·

وانعقد خلفهم دخان أزرق فى شكل سحب فوق قمم الأشجار ، وعبر الأدغال كان فى استطاعته أن يشـاهد أحيانا وميضـــا أحمر ورديا آتيا من بعيد ، وكانت أصوات المدافع صاخبة فى ترتيل لا آخر له ·

وتملك الفتى رعب شديد · لقد حملق فى كرب ودهشة ، ونسى أنه كان مشغولا بمصارعة الكون · كان قد طرح جانبا رسالاته العقلية عن فلسفة المنسحب وقواعد هداية الهالك · لقد فقد اهتمامه بنفسه ·

لقـد خسر القتال · كانت التنينـــات قادمة بخطوات لا تقهر · والجيش ، العاجز فى الأدغال المتلبدة ، وقد أعماه الليل الذى برز عليه، كان على وشك أن يبتلع · والحرب ، الحيوان الأحمر ، الاله الذى ضـخمه الدم ، ربما شبع حتى انتفخ ·

كان هناك شيء داخل نفسه يدفع به الى الصراخ · وأصبح لديه دافع

لكى يلقى خطابا جامعا وأن يغنى نشيد المعركة ، ولكنه لم يجد الا لسانا لكى يصيح به فى الهواء قائلا : « ماذا ــ ماذا ــ ما الخطب » ؟

وما لبث أن ســـار وسطهم • لقد كانوا جميعهم يقفزون ويولون الادبار من حوله ؛ وكانت وجوههم البيضاء تضىء فى الغسق • بدوا ، فى معظم الحالات ، رجالا شديدى الصخب ، وأخذ الفتى ينقل ناظريه من واحد الى الآخر وهم يعدون قدما • لقد ضاعت أسئلته المفككة • كانوا لا يأبهون بمطالبه ويبدو أنهم لم يروه •

كانوا يثرثرون أحيانا فى انحراف ، وكان هناك رجل ضخم يتطلع الى الســـماء متسائلا : « يارب ، أين طريق الفيلق ؟ أين طريق الفيلق ! » كان سؤاله كما لو كان قد افتقد طفلا • لقد بكى فى ألمه ويأسه •

وعلى الفور جرى الرجال من هنا وهناك فى كافة الاتجاهات • وكانت المدفعية تهدر أماما وفى المؤخرة وعلى جوانب الجيش تعطى خليطا من الأفكار عن الاتجاهات • لقد اختفت علامات الحدود فى الغمامات المتجمعة •• بدأ الفتى يتخيل أنه قد دخل فى شجار ضخم ولا يستطيع أن يجد طريقا للفكاك منه • ومن أفواه الرجال الفارين خرج ألف سؤال غـريب ولكن ما من مجيب •

وبعد أن اندفع حوله يوجه أسئلة الى فرق المشـــاة الفارين الذين لا يكترثون لشىء ، أمسك أخيرا برجل من ذراعه فاستدارا وتواجها •

« ماذا ــ ماذا ــ » قالها الفتى متلعثما وهو يكافح بلســـانه الذى يعوقه •

فصرخ الرجل قائلا : « دعنى أمض ! دعنى أمض ! » وكان وجهه داكنا وعيناه تدوران فى غير ما استقرار وكان جسده يعلو ويهبط وهو يلهث• كان لايزال يقبض على بندقيته ، ربما نسى أن يرفع قبضته عنها • كان يجذب نفسه فى جنون ، ولما كان الفتى مضطرا لأن يميل الى الأمام ، لذا فقد سحب لعدة خطوات •

« دعنى أمض ! دعنى أمض ! » ·

فقال الفتى وهو يقهقه : « لماذا ·· لماذا ··· ؟! » ·

فصرخ الرجل فى غضب بالغ وقال : « حسن ، اذن ! » وفى مهارة ووحشية طرح بندقيته فانهالت على رأس الفتى ، وجرى الرجل ·

استحالت أصابع الفتى الى عجينة على ذراع الرجل الآخر ، وكانت الحيوية قد تخلت عن عضلاته · لقد رأى أجنحة البرق الملتهبة تومض أمام ناظريه ، وكانت فى رأسه قعقعة صماء للرعد ·

وفجأة بدت رجلاه ميتتين · فسقط يتلوى على الأرض · وحاول أن ينهض ، وفى جهوده لمقاومة ألم التخدير كان مثل الرجل الذى يصارع مخلوقا فى الهواء ·

كان نضالا مشئوما ·

وكان يتخذ أحيانا وضعا شبه معتدل يناضل مع الهواء لحظة ثم يسقط ثانية وهو ممسك بالكلأ · وكان وجهه وجه فرد شاحب اللون يتصبب عرقه ، وكانت تصدر عنه أنات عميقة ·

وأخيرا نهض على يديه وركبتيه فى التواء ، ومن ثم ، حاول مثل الطفل أن يمشى ، ونهض على قدميه ، وبينما كان يضغط بيديه على صدغيه سار متمايلا فوق الكلأ ·

خاض معركة حادة مع جسده · كانت أحاسيسه البليدة تريده أن يغمى عليه ولكنه عارضها فى اصرار ، وكان ذهنه يصور مخاطر وتشويهات مجهولة لو أنه سقط فى الميدان · لقد سار على نهج الجندى المديد القامة· لقد تخيل أماكن منعزلة يستطيع فيها أن يسقط ولا يحس بضيق ولكى يبحث عن مكان واحد كان عليه أن يجاهد تيار الله ·

ووضع مرة يده على قمة رأسه ، وفى خجل تحسس جرحه · كان الألم السطحى للخدش قد جعله يجذب نفسا طويلا خلال أسنانه المضمومة ، وكانت أصابعه ملطخة بالدم ، فتطلع اليها بنظرة شاخصة ·

كان فى استطاعته أن يسمع من حوله غضب المدافع الهادرة كالجياد المسرعة وهى تستحث للتوجه الى الجبهة ، ومرة كان ضابط شاب على ظهر جواد مبلل على وشك أن يدوسه ، فتلفت وراقب مجموعة البنادق والرجال والجياد المتدفقة فى انحناء عريض تجاه فجوة فى السياج • وكان الضابط يقوم بحركات مثيرة بيده المغطاة بقفاز • وكانت البنادق فى أعقاب أسراب الجياد بصورة تنم عن أنها تسير برغم ارادتها وأنها تسحب من أعقابها •

كان بعض ضباط المشاة المتفرقين يلعنون ويوجهون اللوم مثل النسوة السوقة • وأصوات لومهم الغاضبة تغطى على طنين المدافع • وفى هذه الفوضى التى لا توصف فى جانب الطريق ، كانت تركب فرقة من الخيالة . واللون الأصفر الفاتح فى أطراف ياقة وأكمام ستراتهم يضيىء اضاءة ساطعة • وكان هناك شجار عنيف •

وتجمع أفراد فرقة المدفعية كما لو كانوا يعقدون اجتماعا •

كان ضباب المساء الأزرق الخفيف قد عم الميدان • وبالغابة ظلال طويلة أرجوانية وهناك سحابة واحدة ممتدة على طول السماء الغربية تكتم جانبا من اللون الأحمر •

ولما ترك الفتى المشهد وراءه سمع البنادق تزأر فجأة • لقد خيل اليه أنها كانت تهتز فى غضب شديد • كانت تقذف وتصرخ كالشياطين النحاسية التى تحرس بوابة • وكان الهواء العليل مليئا بالتحدى البالغ ، لقد جاء معه قصف متقطع للمدفعية المضادة • وتلفت ليتطلع وراءه وفى استطاعته أن يرى صحائف من الضوء البرتقالى تضىء المسافة المظللة • كانت هناك أومضة برق رقيقة ومفاجئة فى الهواء البعيد • كان يظن فى أوقات أنه يمكن أن يرى كتلا لاهثة من الرجال •

وأسرع فى سيره فى الغسق • لقد أظلم اليوم لدرجة أنه كان من الصعب عليه أن يتعرف على مكان لقدميه ، وكانت الظلمة الأرجوانية مليئة

بالرجال الذين كانوا يلقون خطبـــا ويثرثرون ، وكان فى استطاعته فى بعض الأحيان أن يراهم يشـيرون الى السـماء الزرقاء القاتمة · يبدو أنه كان هنــاك حشــد ضخم من الرجال والمؤونة منتشر فى الغــابة وفى الحقول ·

أصبح الآن جانب الطريق الضيق الصغير لا حياة فيه · كانت هناك عربات مقلوبة كصـخور كبيرة جففتها الشمس · كان قاع الشلال السابق غاصا بأجساد الجياد ، وبالأجزاء المتكسرة من الآلات الحربية ·

حدث أن آلمه جرحه ولكنه ألم بسـيط ، ومع ذلك كان يخشى أن يتحرك بسرعة خشية أن يؤلمه · كان يمسك برأسه فى سكون شديد واتخذ احتياطات عديدة تحـول دون عثرته · كان شـديد القلق ووجهــه متألما ومتوترا فى توقعه للألم من أى خطأ مفاجىء فى قدميه فى الظلمة ·

وكانت خواطره وهو سائر مركزة عن قصـد على ألمه · كان يحس بأن هناك سائلا باردا ؛ وقد تخيل أن الدم كان ينســاب ببطء تحت شعره · وبدا رأسه متورما لحجم يجعله يظن أن رقبته قاصرة عن أداء وظيفتها ·

سبب له هدوء جرحه الجديد الكثير من القلق · وكانت الأصـوات القليلة العالية التى تنم عن الألم والتى كانت صادرة عن جلدة الرأس ، على ما كان يعتقـد ، ثابتــة فى تعبـيرها عن الخطـر ؛ وعن طريقهـــا كان يعتقـد أنه يستطيع أن يقيس حالته · ولكن لما ظلت ساكنة منـذرة بالسوء صار خائفا وتخيل أصابع مريعة تطبق على ذهنه ·

ووسط هذا بدأ يتأمل فى مختلف أحداث وظروف الماضى · لقـد ذكرته بوجبات معينة كانت تطهوها له أمه بالمنزل ، فيها تلك الأطبـاق التى كان مولعا بها بصورة خاصة وهى تحتل أماكن ممتازة · لقد تصور المائدة ممتدة وكانت جدران المطبخ المصنوعة من خشب الصنوبر تضىء

فى الضوء الدافىء الصادر عن الموقد · لقد تذكر أيضا كيف أنه وأقرانه قد اعتادوا أن يذهبوا من مبنى المدرسة الى شاطىء غدير مظلل · لقد تصور ملابسه فى صورة مضطربة غير مرتبة على كلأ الشاطىء · لقد أحس بعجيج الماء العطر على جسده ، وكانت فروع شجر الاسفندان المتدلية تحف فى لحن عذب مع ريح الصيف الفتية ·

لقد تملكه فى الحال تعب معوق · كان رأسه مائلا الى الأمام وكتفاه منحنيتين كما لو كانتا تحملان عبئا ثقيلا ، وقدماه تمشيان متثاقلتين على الأرض ·

وعقد مجادلات مستمرة عما اذا كان من الواجب أن يستلقى ويرقد فى بقعة قريبة أو يجبر نفسه على السير حتى يبلغ أحد الموانى · غالبا ما حاول أن يطرد هذا السؤال ولكن جسده أصر فى ثورة وكانت أحاسيسه تضايقه كالأطفال المدللين ·

وأخيرا سمع صوتا بهيجا قرب كتفه :

« يبدو أنك فى حالة سيئة جدا يابنى ؟ » ·

لم يرفع الفتى ناظريه ولكن أكد على كلامه بلسان ثقيل : « آه ! »

واذا بصاحب الصوت البهيج يمسك به بثبات من ذراعه ويقول : « خسن » ثم ضحك ضحكة مدوية واستطرد : « أنا أسير فى طريقك · ان الفرقة بأسرها ستسير فى طريقك وأنا أعتقد أننى أستطيع أن أحملك » وبدأ فى السير كرجل مخمور وصديقه ·

وبينما كانا يسيران فى خط مستقيم ، سأل الرجل الفتى وساعده باجابات كأنه يحتال على عقل طفل ، وكان أحيانا يضمن حديثه قصصا ثم سأله : « أية فرقة تنتمى اليها ؟ اه ؟ ما هذا ؟ الفرقة ٣٠٤ نيويورك ؟ ويحك ، أية جثة هذه ؟ آه ، أهى كذلك ؟ ويحك ، لقد ظننت أنها لم تشتبك اليوم ، لقد كانوا بعيدا فى الوسط · آه ، كانوا هناك ، آه ؟ حسن ، لقد أخذ كل فرد تقريبا نصيبه فى القتال اليوم · أقسم بأبى ،

كم من مرة حسبت نفسى فى عداد الموتى · كان هناك ضرب هنا وضرب هناك وكانت صرخات هنا وصرخات هناك فى الظلمة اللعينة حتى لم يكن فى استطاعتى أن أعرف ، لأنقذ روحى ، الى أى الجانبين كنت أنا · لقد فكرت أحيانا أننى كنت متأكدا تمام التأكد أننى من ال « أوهير Ohier » ، وكنت أحيانا أقسم بأننى كنت من أقصى أطراف فلوريدا · لقد كان أمرا من أكثر الأمور التى شهدتها اختلاطا · وهذه الغابات بأسرها هنا تشكل مشكلة مطردة ، وستكون معجزة لو أننا وجدنا فرقتنا الليلة ؛ وعلى الرغم من ذلك فسنلتقى فى القريب العاجل بكثير من الحراس ورؤساء الحراس وشىء آخر · ويحك ! ها هم يسيرون هناك مع ضابط ، على ما أعتقد · تطلع الى يده التى يسحبها · أقامر بأنه قد حصل على كل ما يريده من الحرب · انه لن يتحدث كثيرا عن شهرته وعن أى شىء عندما يبترون ساقه · انه فتى مسكين ! لأخى شارب مثل شاربه تماما · على أية حال ، كيف جئت الى هنا ؟ ان فرقتك فى مكان بعيد عن هنا ، أليس كذلك ؟ ، حسن ، أعتقد أننا نستطيع أن نجدها · أنت تعلم أنه قتل شاب فى فرقتى اليوم فأخذت أفكر فى العالم وفى كل شىء فيه · كان جاك شابا رقيقا · والله انه ليؤلمنى كايلام الرعد أن أرى جاك الصديق القديم وقد سقط صريعا · لقد كنا واقفين فى سلام لفترة من الزمن على الرغم من أنه كان هناك رجال يعدون فى كل اتجاه فيما حولنا ، وبينما كنا واقفين هكذا ، جاء الينا فتى سمين ضخم · لقد بدأ يلكز جاك فى مرفقه ويقول : « أقول ، أين الطريق الى النهر ؟ ولكن جاك لم يعره أى اهتمام بالمرة ، وظل الفتى يلكز جاك فى مرفقه ويقول : « أقول ، أين الطريق الى النهر ؟ » وكان جاك يتطلع الى الأمام طوال الوقت محاولا أن يرى جونيز قادما من بين الغابات ولم يعر أى اهتمام لذلك الفتى السمين الضخم لمدة طويلة ولكنه تلفت حوله أخيرا وقال : « آه ، اذهب الى الجحيم وستجد الطريق الى النهر ! » وفى هذه الأثناء جاءت رصاصة وصفعته صفعة شديدة على جانب من رأسه · لقد كان جاويشا أيضا · كانت هذه هى آخر كلماته · واعجبا ، اننى أتمنى لو كنا

واثقين من العثور على فرقتنا الليلة · سيستغرق البحث عنها فترة طويلة . ولكنني أعتقد أننا سنستطيع أن نقوم بذلك · » ·

وفي البحث الذى أعقب ذلك ، بدا للفتى أن الرجل ذا الصوت البهيج يمتلك عصا سحرية · لقد مر فى حذر خلال متاهات الغابة المحيرة بتوفيق عجيب · وفى لقاءات مع الحراس والديدبانات أظهر فطنة رجل المباحث وجرأة الولد الصفيق · كانت العوائق تتداعى أمامه وتنضم الى صفه ، ووقف الفتى ، وكانت ذقنه لا تزال على صدره ، وقف جامدا فى حين كان رفيقه يتلمس الطرق والأساليب للخروج من الظروف العصيبة·

وبدت الغابة كخلية ضخمة من الرجال تدوى حولها فى دوائر جنونية ولكن الرجل ذا الصوت البهيج أرشد الفتى ، دون أن يقترف أى خطأ . حتى بدأ فى النهاية يضحك فى سعادة ورضا وقال : « آه ، هكذا أنت ! تتطلع الى تلك النار ؟ » ·

وأومأ الفتى فى بلادة :

« حسن ، هنالك مكان فرقتك · والآن الى اللقاء أيها الصديق العزيز ، وأتمنى لك حظا سعيدا · » ·

وأمسكت يد دافئة وقوية بأصابع الفتى الواهنة للحظة ثم سمع صفارة مرحة وجريئة بينما كان يخطو منصرفا · ولما كان الشخص الذى صادقه قد خرج هكذا من حياته ، فقد حدث فجأة أن لم ير الفتى وجهه ولو للحظة ·

# الفصل الثالث عشر

توجه الفتى فى بطء الى النار التى أشار اليها صديقه الذى انصرف عنه ، وبينما هو يستدير أخذ يفكر فى الترحيب الذى قد يلقاه به أقرانه. كان عنده اعتقاد بأنه لن يلبث أن يحس فى قلبه المكلوم بسهام السخرية الجارحة . لم تكن عنده القوة التى تمكنه من اختلاق قصة . فقد تكون هدفا سهلا .

لقد وضع خططا غامضة ليهرب الى أعماق الظلمة ويختبىء ولكنها جميعا هدمت من جراء أصوات الارهاق والألم الصادرة من جسده . لقد أجبرته آلامه ، وكانت صارخة ، على أن يسعى الى مكان يجد فيه الطعام والراحة بأى ثمن .

لقد ترنح فى غير ثبات نحو النار . كان فى استطاعته أن يرى أشكال الرجال وهى تلقى بظلال سوداء فى الضوء الأحمر وكلما اقترب صار معلوما له فى بعض الصور أن الأرض كانت متناثرة بالرجال النيام .

وفجأة واجه شكلا أسود ضخما وكانت ماسورة البندقية قد التقطت بعض الشعاعات المضيئة : « قف ! قف ! » فتملكه الرعب لحظة ولكنه فكر على الفور أنه يعرف الصوت العصبى . وبينما كان يقف مترنحا أمام ماسورة البندقية صاح : « ويحك ، أهلا ، ويلسون ، أنت ـ أنت هنا ؟ » .

وانخفضت البندقية الى وضع الحذر وتقدم الجندى ذو الصوت الجهورى فى بطء وتطلع الى وجه الفتى وقال : « أهذا أنت يا هنرى ؟ »

« نعم ، أنه لكذلك ــ انه أنا • » •

وقال الآخر : « حسن ، حسن أيها الصديق القديم » واستطرد : « والله ، اننى لمسرور لرؤيتك ! لقد أبلغت عن أنك مفقود ، لقد ظننت أنك قد توفيت من أمد طويل • » وكانت بصوته عاطفة خشنة •

لقد وجد الفتى أنه يستطيع الآن أن يقف على قدميه على الأقل كان هناك انهيار فجائى لقواه • لقد ظن أن من الواجب عليه أن يسرع ويؤلف قصته ليحمى نفسه من السهام التى كانت على وشك أن تنطلق من شفاه أقرانه المتشـــككين ، ومن ثم ، فقد بدأ يقول وهو يترنح أمام الرجل ذى الصـوت الجهورى : « نعم ، نعم ، لقد ــ لقد مـــر بى وقت عصـيب • كنت قد انتهيت • الطريق هنـاك الى اليمين • قتال رهيب هناك • لقد مر بى وقت عصيب • لقد انفصلت عن الفرقة • هناك الى اليمين • لقد أصابتنى رصاصة فى رأسى • لم أر مثل هذا القتال قط • وقت عصيب • لم أشهد كيف انفصلت عن الفرقة • لقد أصبت برصاصة أيضا • »

وخطا صديقه الى الأمام بسرعة وقال : « ماذا ؟ أصبت برصاصة ؟ لماذا لم تقل هذا فى أول الأمر ؟ أيها الصديق العزيز المسكين ، يجب ــ انتظر لحظة ، ماذا أفعل • سأنادى سمبسون • » •

وبدا شخص آخر فى تلك اللحظة فى الظلام • كان فى استطاعتهما أن يريا أنه «الأونباشى» الذى قال متسائلا : «مع من تتحدث ياويلسون؟» وكان فى صوته نغمة غضب ، ثم استطرد قائلا : « مع من تتحدث ؟ أنت أيهـــا الحارس اللعين ــ ويحك ــ أهلا ، هنرى ، هل أنت هنا ؟ نعم ، ظننت أنك توفيت منذ أربع ساعات مضت ، يا الهى ، انهم يستمرون فى الظهور كل عشر دقائق أو ما أشـبه ! لقد ظننا أننا قد فقدنا اثنين وأربعين رجلا بالتمام والكمال ، ولكن اذا استمروا على هذا الأسلوب فستعود لنا كل المجموعة عند الصباح • أين كنت ؟ »

« هنـاك الى اليمين · لقـد انفصلت » هكذا بدأ الفتى فى فصـاحة عظيمة ·

ولكن صديقه توقف بسرعة وقال : « نعم ، وأصيب برصاصة فى رأسه وهو فى حيرة ويجب أن نخلصه منها · » ووضع بندقيته فى ابطه اليسرى ولف ذراعه اليمنى حول كتف الفتى ·

وقال : « واعجبا ، لابد أنها تؤلم مثل الرعد ! »

ومال الفتى بثقل فوق صديقه وقال مجيباً : « نعم ، انها تؤلم ـ تؤلم كثيرا · » وكان هناك اضطراب فى صوته ·

وقال «الأونباشي» : « آه » ، ووضع ذراعه فى ذراع الفتى وجذبه الى الأمام وقال : « هيا يا هنرى ، سأعنى بك · »

وبينما هما يسيران معا صاح الرجل ذو الصوت الجهورى وراءهما قائلا : « دعه ينام فى فراشى يا سمبسون ، و ـ انتظر دقيقة ـ هذه هى زمزميتى ، انها مليئة بالقهوة · تطلع الى رأسه فى ضوء النار وانظر كيف يبـدو ، ربما قد يكون جرحا خطيرا جـدا · عندما تنتهى نوبتى بعـد دقيقتين سآتى وسأعنى بأمره · »

وكانت أحاسيس الفتى قد ماتت تماما لدرجة أن صوت صديقه كان يرن من بعيد وكان من الصعب أن يحس بضغط ذراع «الأونباشي» · لقد استسلم سلبيا لقوة الآخر الموجهة ، وكان رأسه فى الوضع القديم مائلا الى الأمام فوق صدره وركبتاه تترنحان ·

قاده «الأونباشي» الى ضوء النار وقال : « والآن يا هنرى دعنى أتطلع الى رأسك العزيز · »

وجلس الفتى فى أدب وألقى «الأونباشي» ببندقيته جانبا وأخذ يعبث فى شعر رفيقه العزيز · لقد كان مضطرا الى أن يدير رأس الفتى حتى يقع عليه الوميض الكامل لضـــوء النار ، فزم فمه فى أسلوب ينم عن

الخطورة وسحب شفتيه وصفر خلال أسنانه عندما لامست أصابعه الدم المتدفق والجرح الفريد ٠

وقال « : آه ، ها هنا نحن ! » وقام بمزيد من التحريات فى ارتباك وأضاف قائلا فى الحال : « تماما كما توقعت ٠ » واستطرد : « لقد جرحتك رصاصة ٠ لقد استحالت الى كتلة غريبة تماما كما لو كان شخص ما قد ضربك على رأسك بهراوة ٠ لقد توقفت عن نزف الدماء منذ مدة طويلة ٠ ان أهم مافى الموضوع أنك فى الصباح ستحس بأن قبعة « مقاس عشرة » لن تلائمك وأن رأسك سترتفع حرارته ، وستحس بأنك فى جفافك مثل جفاف لحم خنزير محترق ، وقد تصاب ببعض أمراض أخرى أيضا ، اذا ما جاء الصباح ٠ انك لا تستطيع أن تحدد على الاطلاق ٠ ومع ذلك فلا أظن أن الأمر سيكون كذلك ٠ ان كل ما فى الأمر هو وضع ضمادة جيدة على على الرأس ولا شىء أكثر من ذلك ٠ والآن ، اجلس هنا فقط ولا تتحرك سأبحث لك عن اسعافات ثم سأبعث بويلسون ليعنى بك ٠ » ٠

وانصرف «الأونباشى» وظل الفتى على الأرض كما لو كان متاعا وتطلع بنظرة جوفاء الى النار ٠

وبعد فترة نهض الى حد ما ، وبدأت الأشـــياء التى حوله تتخذ شكلا ٠ لقد رأى أن الأرض فى الظلال العميقة مكدسة بالرجال الممددين فى كل وضع يمكن تصوره ٠ ولما تطلع مدققا الى الظلمة الأكثر بعدا ، لمح من وقت لآخـــر أشكالا لاحت شاحبة وكأشـــباح الموتى يضـــيئها وهج مضىء ٠ وقد عبرت هذه الوجوه فى خطوطها عن السبات العميق لجنـــود مجهدين ٠ لقد جعلتهم يبدون كرجال مخمورين بخمر ٠ وقد يبدو هـــذا الجزء من الغابة لهائم رقيق كمشهد لنتيجة فساد سريع ٠

وعلى جانب آخر من النار رأى الفتى ضـــابطا نائما ، وقد جلس منتصبا وظهره الى شجرة ، وكان هناك شىء خطير فى وضعه ٠ ربمـــا ضايقته الأحلام ، وأخذ يتمايل مع قفزات قليلة وانطلاقات ، مثل جد كهل مخمور جلس فى ركن من المدخنة ٠ وكان الغبار والأصباغ على وجهه ،

وكان فكه الأسفل متدليا كما لو كانت تنقصه القوة ليستعيد وضـــعه الطبيعى ، لقد كان صورة لجندى منهوك القوى بعد وليمة حرب ٠

كان واضحا أنه توجه للنوم وسيفه بين ذراعيه ٠ ونام هذان الاثنان فى عناق ، ولكن السلاح قد أتيح له فى وقت أن يســـقط على الأرض بلا اكتراث ، وكانت قبضـــته المطعمة بالنحاس متدلية ملامســة لبعض أجزاء النار ٠

وداخل نطاق وميض الضوء الوردى والبرتقالى الصادر من العصى المحترقة كان هناك جنود آخرون يشخرون ويلهثون أو يرقدون كالموتى وهم نيام ٠ وكانت قلة من أزواج من السيقان ممددة ، ثابتة ومستقيمة ، وكانت الأحذية تبين وحل أو غبار المسيرات ، وكانت أجزاء من البنطلونات المستديرة بارزة من الأغطيـــة ، وتبين عن شقوق أو تمزقات من القفز السريع خلال الأشجار الكثيفة الشائكة ٠

كانت النـــار تقرقع فرقعـــة موســـيقية ، يتصـــاعد منها دخان خفيف ، وكانت أوراق الأشجار تتحرك فوق رأسه فى رقـــة ، وكانت الأوراق بوجوهها المتجهة نحو اللهب ملونة بألوان متغيرة من الفضـــة ، وغالبا ما تلونت أطرافها باللون الأحمر ٠ وبعيدا الى اليمين ، خلال نافذة فى الغابة ، كان فى الامكان رؤية بضعة نجوم راقدة ، مثل الحصى المتلألىء على سطح الليل الأسود ٠

ومن وقت لآخر ، فى هذا البهو ذى العقـــد المنخفض ، قد ينهض جندى ويدير جسده الى وضع جديد ، اذ أن خبرة نومه قد أحاطته علما بالأماكن غير المستوية الكريهة على الأرض من تحته ، أو ربما قد يرفع نفسه الى وضع الجلوس ، ويغض الطرف عن النار للحظة غامضة ، يلقى نظرة سريعة على رفيقه المنبطح ثم يرقد وهو يصدر صوتا ينم عن رضائه بالنوم ٠

وجلس الفتى فوق كوم مهمل حتى أتى صديقه الجندى ذو الصوت الجهورى ، يؤرجح زمزميته من خيوطها الرفيعة ، وقال الأخير : « حسن »

الآن . يا هنرى ، أيها الصديق العزيز » واستطرد : « سنسعفك بعد حوالى دقيقة • »

كانت له الأساليب الصاخبة لمرضة هاوية • لقد اخذ يثير جلبة حول النار ويحرك العصى حتى تستحيل الى قوى براقة • لقد جعل مريضه يشرب كميات كبيرة من القهوة التى بداخل الزمزمية • لقد كان مشروبا لذيذا فى نظر الفتى ، وأمال رأسه بعيدا الى الخلف وامسك بالزمزمية طويلا الى شفتيه • لقد نزل المزيج البارد معانقا حلقه الجريح • وبعد أن انتهى تنهد تنهيدة تنم عن راحة وسرور •

راجب الجندى الشاب ذو الصوت الجهورى . رفيقه بطريقة تنم عن الرضا ، وبعد ذلك أخرج منديلا كبيرا من جيبه وطواه على شكل ضمادة وسكب ماء من الزمزمية الأخرى حتى منتصفها . وقد ربط هذا الشيء البدائى فوق رأس الفتى ، رابطا أطرافه فى عقدة غريبة فى مؤخرة رقبته •

وقال وهو يتحرك ويستكشف عمله : « هناك » واستطرد : « تبدو كالشيطان ولكنى اقامر أنك تحس بتحسن • »

وتطلع الفتى الى صديقه بعينين مقدرتين للجميل • كان القماش البارد على رأسه المتألم المتورم أشبه بيد رقيقة لامرأة •

وقال صديقه معلقا فى توكيد : « لاتمسك ولا تقل شيئا • واستطرد : « أعلم أننى كالحداد فى معاملتى للمرضى ، وأنت لاتصرخ أبدا أنت فتى طيب يا هنرى • ربما كان غالبية الرجال فى المستشفى منذ مدة طويلة • ان اصابة الرأس برصاصة ليس أمرا هينا »

ولم يحر الفتى جوابا ولكن بدأ يفتش فى أزرار سترته •

واستمر صديقه قائلا : « حسن ، هيا الآن • هيا • يجب أن أرقدك فى الفراش وأرى أنك ستحصل على قسط من الراحة الليلة • » •

فانتصب الآخر فى عناية وقاده الجندى الشاب ذو الصوت الجهورى بين الأشكال النائمة الراقدة فى مجموعات وصفوف · وعلى الفور ، انحنى والتقط غطاءه · وفرش الغطاء المطاطى على الأرض ووضع الصوفى منه حول كتفى الفتى ·

وقال : « هناك الآن ، ارقد وانعم بقسط من النوم · »

أما الفتى ، فقد جلس ، فى طاعة تشبه طاعة الكلب . وفى عناية مثل عجوز منحن ، وتمدد مع دمدمة راحة وسلوى ، وكان ملمس الأرض ناعما كالفراش الوثير ·

ولكنه نطق فجأة وقال : « انتظر لحظة ! أين ستنام أنت ؟ »

فأشاح صديقه بيده فى ملل وقال : « تحت ، يمينا ، هناك بجوارك · » ·

فتابع الفتى قوله : « حسن ، ولكن انتظر لحظة » واستطرد : « بأى شىء ستتغطى فى نومك ؟ لقد أخذت ما عندك من ···· » ·

فزمجر الجندى ذو الصوت الجهورى وقال : « صه ، وتوجه للنوم · لاتحاول أن تخدع نفسك · » قالها فى خشونة ·

وبعد التعنيف لم يقل الفتى المزيد ، وقد تملكه نعاس شديد · وكانت الراحة الدافئة للغطاء قد غلفته وجعلته فى حالة استرخاء رقيق · وسقط رأسه الى الأمام على ذراعه الملتوية ، وما لبث جفناه المثقلان أن نزلا ببطء فوق عينيه · ولما سمع صوت البنادق من بعيد ، ارتجف فى قلة اكتراث كما لو أن أولئك الرجال قد ناموا أحيانا · وتنهد تنهيدة طويلة واندس فى غطائه ، وفى لحظة كان مثل أقرانه ·

# الفصل الرابع عشر

عندما استيقظ الفتى بدا له أنه قد نام ألف سنة ، وأحس فى تأكيد أنه فتح عينيه على عالم لم يكن يتوقعه • وكان ضباب قاتم يتنقل ببطء أمام المحاولات الأولى لأشعة الشمس ، وكان فى الامكان رؤية سناء مشرف فى السماء الشرقية • كان ندى مثلج قد أثلج وجهه ، وفى الحال عندما نهض، ألقى بناظريه الى أسفل الى غطائه • وتطلع لحظة الى الأوراق فوق رأسه وهى تتحرك فى ريح اليوم العطرة •

كانت المسافة تتكسر وتدوى بضوضاء القتال وكان فى الصوت تعبير عن اصرار مستميت ، كما لو لم يكن قد بدأ ولم يكن ليتوقف •

كانت حواليه صفوف ومجموعات من الرجال رآها غير واضحة فى الليلة الماضية ، وكانوا يحصلون على آخر جرعة من النوم قبل أن يفيقوا •• صارت الملامح الشاحبة المكدودة والأشكال المغبرة واضحة فى هذا الضوء الخافت فى الفجر ولكنها كست جلد الرجال الوانا أشبه بلون الجثث وجعلت الأطراف المتشابكة تبدو ميتة لاتنبض بالحياة • ونهض الفتى وأطلق صرخة خافتة عندما استعرضت عيناه لأول مرة هذه الكتلة من الرجال التى لا حراك فيها والتى كانت ممتدة امتدادا كثيفا على الأرض ، شاحبة وفى أوضاع غريبة • ولقد فسر له ذهنه المضطرب ساحة الغابة على أنها مدفن • كان يؤمن للحظة أنه كان فى منزل للموتى ولم يكن يجرؤ على أن يتحرك خشية أن تنهض هذه الجثث صارخة وصائحة بصوت عال •

وفى لحظة ، مع ذلك ، ارتد اليه ذهنه المنظم . لقد أقسم له أيمانا مغلظة ، لقد رأى أن هذه الصورة القاتمة لم تكن حقيقة للحاضر بل مجرد تكهن .

ثم سمع بعد ذلك ضوضاء النار وهى تفرقع بشدة فى الهواء البارد ، ولما أدار رأسه شهد صديقه منهمكا فى تحريك كتلة صغيرة من اللهب ، وتحركت اشكال قليلة أخرى فى الضباب وسمع الفرقعة القوية لضربات فأس .

وفجأة كانت هناك قرقعة طبول جوفاء ، وعلى بعد كان بوق يغنى فى ضعف وكانت هناك أصوات مماثلة ، مختلفة فى قوتها ، جاءت من جوار الغابة وبعيدا عنها ، وكانت الأبواق تنادى بعضها بعضا كالديكة النحاسية المقاتلة ، واستمرت أصوات طبل الفرقة الغريبة التى تشبه الرعد .

وأخذت جماعة من الرجال فى الغابات تخشخش وهى تتحرك . وكان هناك ارتفاع عام للهامات ، واخترقت الهواء أصوات تمتمة كان فيها الكثير من الصوت العميق لأيمان تنم عن التمرد ، ودعيب الآلهة الغريبة لانزال عقابها فى الساعات الأولى ، ذلك العقاب اللازم لتصحيح أوضاع الحرب . وصدح صوت حازم لضابط يتعجل حركة الرجال الجامدة . لم تكن الأعضاء المتشابكة قد تباعد بعضها عن بعض وكانت الوجوه التى عليها صبغة الجثث مختفية خلف قبضات الأيدى التى كانت تدعك فى بطء فى مآقى العين . لقد كان موعد استحمام الجنود .

انتصب الفتى وأطلق العنان لتثاؤبه العميق ، وعلق فى جد : « يا الهى ! » وفرك عينيه ثم رفع يده يتحسس فى عناية الضمادة التى فوق الجرح . ولما أدرك صديقه أنه استيقظ هرع اليه عند النار وقال متسائلا : « حسن يا هنرى ، أيها الصديق العزيز ، كيف حالك هذا الصباح ؟ »

وتثاءب الفتى مرة أخرى ثم زم فمه زمة بسيطة ، وكان يحس

برأسه فى الحقيقة كما لو كان مثل الشمامة ، وأحس باحساس كريه فى معدته ٠

وقال : « آه ، يا الهى ، أحس بأننى فى حالة سيئة جدا ٠ »

وتعجب الآخر وقال : « يا الهى ! كنت أرجو أن تحس بأنك على ما يرام هذا الصباح ٠ دعنى أشاهد الضمادة ـ أعتقد أنها قد انزلقت ٠ » وبدأ يضمد الجرح بطريقة أقرب الى البدائية حتى انفجر الفتى بحدة ٠

وقال فى انفعال : « لعنة الله عليك ٠ انك أقسى شخص رأيته ! أنت تضع غطاء على يديك ٠ لماذا لاتكن أكثر خفة بحق السماء ؟ اننى أفضل أن تقف وتطلق النار على ٠ والآن تحرك ببطء ولا تفعل كما لو كنت تجذب سجادة ٠ »

وتطلع الى صديقه فى امرة وقحة ولكن الأخير أجاب مهدئا روعه : « حسن ، حسن ، هيا الآن ، وتناول بعض الطعام » واستطرد : « ثم ، ربما قد تحس بتحسن ٠ »

وبجانب النار كان الجندى الشاب ذو الصوت الجهورى يهتم بطلبات رفيقه فى رقة وعناية ٠ كان مشغولا جدا فى ترتيب الأكواب الصغيرة القصديرية السوداء المتفرقة يصب فيها المزيج المتدفق ذا اللون الفولاذى من اناء قصديرى صغير سنجابى اللون ٠ كان لديه بعض اللحم الطازج فشواه بسرعة فوق عصى ، وجلس ثم تطلع الى شهية الفتى فى سرور ٠

لقد لاحظ تغيرا ملحوظا فى رفيقه منذ تلك الأيام التى قضاها فى المعسكر على شاطىء النهر ٠ كان يبدو أنه لم يعد يلتفت باستمرار الى نسب قواه الشخصية ٠ لم يكن غاضبا من الكلمات الصغيرة التى كانت تؤذى كبرياءه ٠ لم يعد جنديا شابا جهورى الصوت ٠ كانت تحوطه ثقة الآن ٠ لقد أظهر ايمانا هادئا بأهدافه وقدراته ، وقد مكنته هذه الثقة الداخلية من عدم الاكتراث بالكلمات القليلة التى كان يوجهها اليه الأشخاص الآخرون ٠

لقد أخذ الفتى يتأمل • لقد اعتاد على التطلع الى أقرانه كما يتطلع طفل صارخ فى جرأة نابعة عن عدم خبرته وطيشه وعناده وحقده وبما كان عليه من شجاعة زائفة • كان الطفل المختال معتادا على الزهو عند باب فناء داره • لقد كان الفتى يعجب من أين ولدت له هاتان العينان الجديدتان عندما قام رفيقه بالاكتشاف الكبير وهو أن هناك أشخاصا كثيرين قد يرفضون أن يذعنوا له • كان واضحا أن الآخر قد بلغ الذروة فى الحكمة التى كان يستطيع أن يدرك منها أنه كان هو نفسه شيئا تافها جدا ، ورأى الفتى أنه قد يكون من السهل أن يعيش فى جوار صديقه •

وعدل صديقه كوب القهوة الأبنوسى على ركبته وقال : « حسن . يا هنرى ، ماظنك فيما هو منتظر حدوثه ؟ هل تظن أننا سنضربهم ؟ »

وفكر الفتى لحظة وأجاب أخيرا فى بسالة : « اليوم السابق للأمس كان فى استطاعتك أن تقامر بأنك تستطيع أن تضرب الجيش بأكمله بنفسك • »

وتطلع اليه صديقه فى قليل من الدهشة وتساءل : « أستطيع أنا • » وفكر ثم قال مصمما فى النهاية : « حسن ، ربما أستطيع • » وحملق فى تواضع الى النار •

كان الفتى مرتبكا ارتباكا شديدا لهذا الاستقبال المدهش لملاحظاته . وقال بسرعة وهو يحاول أن يعقب : « آه ، كلا ، لن تستطيع مع ذلك »

ولكن الآخر أصدر حركة استهجان وقال : « آه ، لاتشغل بالك يا هنرى • » واستطرد : « أعتقد أننى كنت مغفلا كبيرا جدا فى تلك الأيام • » وتحدث كما لو كان يتحدث بعد مضى سنوات •

وكان هناك سكون بسيط •

« يقول كل الضباط اننا نحتفظ بأعصابنا فى صندوق محكم » هذا ما قاله الصديق وهو يسلك حلقه بطريقته العادية واستطرد : « يبدو أنهم يعتقدون جميعا أننا قد التقينا بهم فى المكان الذى أردناه • » •

وأجاب الفتى عن ذلك قائلا : « لا علم لى بهذا الأمر • » واستطرد : « ان ماشـــاهدته على الجـــانب الأيمن جعلنى أظن أنه كان فى الناحية الأخرى •• ومن حيث ما كنت ، بدا لى كمــا لو كنا نتلقى ضربا شــديدا بالأمس • »

وتساءل صديقه : « أتظن هذا ؟ » واستطرد : « ظننت أننــا قد ضربناهم بالأمس ضربا مبرحا • » •

فقال الفتى : « البتة » واستطرد : « لماذا يا الهى . أيها الرجل ، انك لم تشهد شيئا من القتال • ويحك ! » ثم خطر له فجأة خاطر وقال : « آه ! لقد توفى جيم كونكلين • » •

فارتاع صديقه وقال : « ماذا ؟ أهو ؟ جيم كونكلين ؟ » •

وتحدث الفتى فى بطء وقال : « نعم . لقد توفى • أصيب برصاصة فى جنبه » •

« لا تقل هذا • جيم كونكلين ••• ياله من فتى مسكين ! » •

ولم يكن كل ما حولهما سوى نيران أخرى صغيرة يحيط بها رجال بأوعيتهم الصغيرة السوداء • وصدرت من واحد من تلك الصفوف القريبة أصوات حادة مفاجئة • لقد تبين أن جنديين سريعى الحركة كانا يضايقان رجلا ضخما ملتحيا ، فاضطر الى ان يسكب القهوة على ركبتيه الزرقاوين ، وكان الرجل قد تملكه الغضب وأقسم قسما مغلظا • ولما كان معذبوه قد لدغتهم لغته ، لذا فقد واجهوه على الفور باستعراض ضخم من الوعود الحانقة الجائرة ، وكان من الجائز أن يقوم شجار •

ونهض الصــديق وتوجه اليه وهو يحــرك ذراعيه مهدئا وقال : « أواه ، اسمعوا الآن يا أولاد ، ما الفائدة من هذا ؟ » ثم استطرد : « اننا سنستأنف القتال فى أقل من ساعة • ما الفــائدة من أن يحارب بعضنا بعضا ؟ » •

واستدار له واحد من الجنديين السريعي الحركة وقد احمر وجهه وقال في حدة : « لست في حاجة لأن تأتي الى هنا بمواعظك . أعتقد أنك لا توافق على القتال منذ أن ضربك شارلى مورجان ، ولكن ليس لك أو لأى شخص آخر مصلحة في هذا . » .

فقال الصديق في اعتدال : « حسن ، ليس كذلك . ومع ذلك فما زلت أكره رؤية .... » .

كان هذا جدالا معقدا .

وقال الاثنان وهما يشيران الى خصمهما بسبابتيهما فى اتهام : « حسن ، انه ... » .

واصطبغ الجندى الضخم باللون الأرجوانى من حدة الغضب . وأشار الى الجنديين بيده الضخمة وكانت فى امتدادها أشبه ما تكون بالمخلب . وقال : « حسن ، انهما ... » .

وخلال فترة الجدل هذه ، بدا أنه لم تعد هناك الرغبة فى اطالة اللطمات على الرغم من أنهم قالوا الكثير كل منهم للآخر ، وأخيرا عاد الصديق الى مجلسه القديم . وفى فترة قصيرة من الوقت أمكن رؤية الخصوم الثلاثة فى مجموعة متآلفة .

وأعلن الصديق وهو يجلس نفسه مرة ثانية : « جيمى روجرز ، لاحظ أننى سأقتله مع المعركة اليوم . » واستطرد : « يقول انه لا يسمح بأى تدخل فى شئونه . اننى أمقت أن أرى الأولاد يحارب بعضهم بعضا . » .

فضحك الفتى وقال : « لقد تغيرت كثيرا . انك لم تعد مثلما كنت عليه من قبل تماما . انى لأذكر عند ما كنت وذلك الفتى الأيرلندى ... » وتوقف عن السرد وضحك ثانية .

فقال صديقه مفكرا : « كلا ، اننى لم أعتد على هذه الطريقة » واستطرد : « هذا صادق تمام الصدق » .

وبدأ الفتى حديثه قائلا : « حسن ، اننى لم أقصد ... » .

وقام الصديق بحركة أخـرى تنم على الاستخفاف وقال : « آه ، لا تشغل بالك يا هنرى . » .

وكانت هناك فترة أخرى قصيرة من السكون .

وعلق الصديق أخيرا قائلا : « لقد افتقدت الفرقة بالأمس أكثر من نصف الرجال . » ثم استطرد : « أعتقد أنهم كلهم بطبيعة الحال أموات ، ولكن ، واعجبا ، لقد ظلوا يتوافدون الليلة الماضية حتى بدا بعد ذلك أننا لم نفقد الا القليل . لقد كانوا مبعثرين فى كافة الاتجاهات يجولون حول الغابات ، يقاتلون مع فرق أخرى ، وكل شىء . تماما مثلما فعلت . » .

فقال الفتى : « هكذا ؟ » .

# الفصل الخامس عشر

كانت الفرقة واقفة في وضع صفا (*) الى جانب الدرب فى انتظار الأمر بالمسير ، عند ما حدث فجأة أن تذكر الفتى الطرد الملفوف فى المظروف ذى اللون الأصفر الباهت الذى كان قد ائتمنه عليه الجندى الشاب ذو الصوت الجهورى وهو يتفوه بكلمات حزينة ، لقد جعله يفزع ، وأصدر صيحة دهشة وتلفت تجاه رفيقه وقال :

« ويلسون ! » ٠

« ماذا ؟ » ٠

وكان صديقه ، الى جانبه ، «نفرا» عسكريا ، يحملق الى أسفل الطريق مفكرا ٠ ولسبب ما كان تعبيره فى تلك اللحظة فيه وداعة بالغة ٠ وقد احس الفتى وهو يتلفت اليه بنظرات جانبية ٠ انه مضطر الى تغيير هدفه ٠

قال : « أواه ، لا شيء » ٠

وأدار صديقه رأسه وقد تملكته الدهشة وقال : « ويحك ، ماذا كنت تريد أن تقول ؟ » ٠

فكرر الفتى : « أواه ، ، لا شيء » ٠

---

(*) البندقية على الجانب الأيمن وكعبها مستريح على الأرض ( المترجم ) ٠

لقد عزم على ألا يوجه الضربة البسيطة · كان كافيا أن الحقيقة قد جعلته سعيدا · لم يكن من الضرورى أن يضرب صديقه على رأسه بالطرد المضلل ·

كان قد تملكه الخوف الشديد من صديقه لأنه رأى كم من السهولة يمكن للأسئلة أن تترك جراحا فى مشاعره ، وأخيرا أكد لنفسه أن صديقه الذى تبدل لن يكيده بحب استطلاع مستمر ، ولكنه أحس وكله ثقة أنه خلال الفترة الأولى راحته قد يطالبه صديقه بأن يقص عليه مغامراته عن اليوم السابق ·

لقد تملكه الفرح الآن لامتلاكه سلاحا صغيرا يستطيع به أن يطرح صديقه أرضا عند أول علامات لاستجوابه · لقد كان سيد الموقف · سيستطيع هو الآن أن يضحك وأن يوجه سهام السخرية ·

كان الصديق يتحدث فى ساعة من ساعات ضعفه وهو يبكى عن موته هو نفسه · لقد ألقى خطبة كئيبة قبل جنازته ، وكان مما لا شك فيه أنه قدم فى طرد الخطابات ، مختلف التذكارات الى أقاربه ، ولكنه لم يمت ومن ثم فقد سلم نفسه ليدى الفتى ·

وأحس الأخير بأنه متفوق جدا على صديقه ، ولكنه كان يميل الى التنازل · لقد اتبع بازائه أسلوب تعضيد الفكاهة الجيدة ·

لقد استرد الآن كرامته الشخصية كاملة · وفى ظل انتعاشها المستمر وقف بقدمين راسختين وفى ثقة بالنفس ، ولما لم يكن هناك شىء يمكن اكتشافه الآن ، لم يجفل من لقاء مع أعين القضاة ، ولم يتح لأية خواطر شخصية أن تمنعه من أن يقف موقف رجولة · لقد ارتكب أخطاءه فى الظلام ، ومن ثم فهو لا يزال رجلا ·

وفى الحقيقة عندما تذكر توفيقه بالأمس ، وتطلع الى هذا التوفيق من بعيد بدأ يرى شيئا طريفا هناك · كان معه تصريح بأن يكون حرا ، وكان أشبه بمن حنكته الحرب ·

لقد أبعد عن ناظريه كروبه اللاهثة المتعلقة بالماضى ، لقد آمن الآن أن الطعون الطويلة ضد الطبيعة تركيبات حمقاء وليدة الظروف ، وهو لم يتخل عنها جميعا لأنه لم يتذكر كل ما قاله • كان يميل الى أن يلقى نظرة على ثوراته الماضية فى ابتسامة لطيفة • ربما كانت كلها على صواب فى وقتها •

لقد أعلن لنفســه فى الحال أن المحكوم عليه والملعون وحدهما هما اللذان يزمجران فى اخلاص من الظروف ، وان قلة فيما عداهما يفعلون ذلك دائما • ان انسانا شديد الغطرسة طالما يلقى احترام أقرانه لا يهمه التعنيف عن أى شىء قد يظن أنه خاطىء فى أساليب الكون أو حتى فى أساليب المجتمع • دع التعساء يعنفون ، بينما يلعب الآخرون بالنبل •

ولما كان مستريحا وراضيا ، لم تكن به رغبة فى أن يصلح الأمور • لم يعد فى الحقيقة ينازع فى أنها لم تكن مستقيمة • كيف يمكن أن تعوج عند ما يكون قد استرد قدرا كافيا من السعادة • كان هناك اعتقاد يتطور ببطء وهو أنه فى كل أحــاديثه الحمراء كان مخطئــا خطــأ يبعث على الســخرية • كانت الطبيعة شيئا عظيما يتحــرك فى عدل بديع ، وكان العالم جميلا ومتسعا ومجيدا ، وكانت السماء شفيقة ، وابتسمت له فى رقة ، وكانت مليئة بالتشجيع له •

لقد تلقى الآن بعض الشعراء احتقاره لهم • وبالأمس فكر ، فى أساه ، فى أشخاص معينين كانوا كتابا • كانت كلماتهم المتكسرة والمفككة تتوارد على ذهنه تدريجيا • لقد أحس بالنسبة لهؤلاء الناس باهتمام أخوى متأجج • كانوا يجولون فى طرق الألم ، وكانوا قد صوروا صورا من المناظر الخلوية القاتمة حتى يستطيع الآخرون أن يتمتعوا بها معهم • وكان هو ، فى ذلك الوقت ، واثقا من أن روحهم الحكيمة المتبصرة كانت تواسيه ، وتذرف الدموع من الســحب • لقــد سار وحيــدا ، ولكن كان هناك ضمان ، كان له سبب سابق •

ولكنه صار الآن ، بالقياس ، شخصا ناجحا ولم يعد يتساهل فى أن

يكون بداخل نفســه روح صداقة مع الشــعراء • لقد نبذهم ، ولم تعـد اغنياتهم عن المناظر الخلوية القاتمة بذات أهمية له منذ أن قالت له عيونه الجديدة ان المناظر الخلوية ليست قاتمة • ان الأشخاص الذين ادعوا بأن المناظر الخلوية قاتمة كانوا بلهاء •

لقد ازدرى ازدراء شديدا مثل هذا الجنس الحزين •

لقد أحس بأنه كان طفلا بين يدى قوى الطبيعة ، وعن طريق صفاء قلبه رأى الأرض على هيئة حديقة لم تنم بها أية أعشاب الكرب ، أو ، ربما لو أنه قد نما بها القليل ، فقد كان ذلك فى أركان مظلمة حيث لم يكن أى فرد مضــطرا لأن يلتقى بهــا ما لم يكن هناك تنقيب يبعث على السخرية ، وعلى أية حال ، فقد كانت دقيقة جدا •

وعاد الى اعتقاده القديم بأنه سيبلغ أقصى نجاح مذهل فى حياته • وكما هو معتاد ، لم يقلق نفسه بالتفاعلات • لقد كان الأمر مرتبا لآنه كان مخلوقا طريفا • لقد رأى بوضوح أنه كان شخصا مختارا • كان عليه أن يقاد ليتوج عبر دروب مخيفة وعجيبة • كان راضيا ، بطبيعة الحال ، عن أنه كان أهلا لذلك •

لم يعر قدرا كبيرا من التفكير لهذه المعــارك التى كانت تدور أمامه مباشرة • لم يكن من الضرورى أن يخطط أساليبه وفقا لها • لقد تعلم أن كثيرا من مستلزمات الحياة من السهل تجنبها • كانت دروس الأمس هى أن القدر كان متوانيا وأعمى • ومع هذه الحقائق أمامه لم يحسب أن من واجبه أن يصبح قلقا من احتمالات الأربع والعشرين ساعة القادمة ، ففى استطاعته أن يترك الكثير للصدفة • وفضلا عن هذا ، فقد ازدهر الايمان فى نفسه سرا • كانت هناك زهرة صغيرة من الثقة تترعرع داخل نفسه • لقد صار الآن رجلا خبيرا • لقد قال انه كان فى الخارج وسط تنينات ، وأكد لنفسه أنها لم تكن قبيحة الصورة كما تخيلها ، ولم تكن دقيقة أيضا اذ لم تلدغ باحكام • وغالبا ما يتحدى القلب الكبير ، واذا ما تحدى هرب •

وأبعد من هذا ، كيف يستطيعون أن يقتلوه ، ذلك الذى اختارته الآلهة وجعلت العظمة مصيره ؟

لقد تذكر كيف أن بعض الناس قد فروا من المعركة ، وكلما تذكر وجوههم التى ارتسم عليها الرعب أحس باحتقارهم ، كانوا بلا شك أكثر فرارا وأكثر وحشية مما كان ضروريا على الاطلاق . لقد كانت نفوسا ضعيفة . أما عن نفسه فقد هرب فى فطنة وكرامة .

أيقظه من حلم يقظته صديقه الذى تحرك فجأة حواليه فى عصبية وغض طرفه عن الأشجار لفترة من الوقت ، وفجأة اذا به يسعل بطريقة بدء كلام ثم قال :

« فليمنج ! » .

« ماذا ؟ » .

ورفع الصديق يده الى فمه ثم سعل ثانية ، وكان متململا فى سترته .

وأخيرا بلع لعابه وقال : « حسن ، أعتقد أن من الواجب عليك أيضا أن تعيد الى الخطابات » وكانت وجنتاه وحاجبه قد احمرت بالدم الثائر الداكن .

فقال الفتى : « وهو كذلك يا ويلسون » وفك زرارين من أزرار معطفه ودس يده وأخرج الطرد ، وبينما كان يقدمه الى صديقه أشاح الآخر بوجهه عنه .

كان بطيئا الآن فى عملية اخراج الطرد لأنه كان يحاول خلال ذلك أن يخترع تعليقا جديرا بالاعتبار بالنسبة للموضوع . لم يكن يستطيع أن يتضرع الى شىء بدرجة كافية . كان مضطرا لأن يسمح لصديقه بأن يهرب بطرده من غير ما ضيق ، ولذا كان يثق فى نفسه ثقة كبيرة . لقد كان عملا كريما .

وبدا صديقه بجانبه يعانى من خجل كبير · ولما تأمله أحس الفتى بأن قلبه يزداد قوة وشجاعة · لم يكن مضطرا على الاطلاق لأن يخجل فى مثل تلك الصورة نظير أفعاله · لقد كان فردا ذا فضائل غير عادية ·

وتأمل فى شـفقة فيهـــا اسـتعلاء وقال : « سىء جدا ! سىء جدا ! الشيطان المسكين · انها تجعله يحس بالقسوة ! »

وبعد هذه الحادثة وبعد أن استعرض صور المعركة التى شاهدها ، أحس بأنه جدير بالعودة الى داره وبأن يجعل قلوب الناس تتلألأ بقصص عن الحرب · كان فى استطاعته أن يرى نفسه فى غرفة ذات ألوان دفيئة يحكى قصصا للمستمعين · كان فى استطاعته أن يعرض أكاليل الغار · كانت قليلة الاهمية ، ومع ذلك فقد تضىء فى منطقة كانت أكاليل الغار نادرة ·

رأى مستمعيه فاغرى الافواه يصــورونه كشخصية رئيســـية فى مشاهد متأججة وتخيل ذعر وصرخات أمه والفتاة فى المدرسة العليا وهما تشربان القهوة على روحه · قد ينهار وصفهم النسوى الغامض للأشخاص الذين يحبــونهم وهم يؤدون أعمـــالا بطولية فى ميــدان القتال بينما لا يخاطرون هم بحياتهم ·

# الفصل السادس عشر

كانت ضوضاء نيران البنادق تسمع دائما ، وبعد ذلك دخلت المدافع في المعارك ؛ وفي الهواء الملئ بالضباب كان للأصـــوات صوت الرعد ؛ واستمرت ارتدادات الاصوات • كان هذا الجزء من العـالم يوحي بكيان غريب ملئ بالقتال •

كانت فرقة الفتى قد تحركت لنجدة قيادة استقرت منذ مدة طويلة في بعض الخنادق الرطبة ، وأخـذ الرجال أماكنهم خلف منحنى من حفر البنادق التي كانت قـــد ظهرت مثـــل خط محراث طويل على طول خط الغابات، وكان أمامهم منبسط ممتد آهل بجذوع أشجار قصيرة ومشوهة• وجاءت من الغابات فيما وراءهم طقطقة كئيبة من المناوشين والحراس وهم يطلقون الرصاص في الضباب ، وجاء من اليمين صوت ضوضاء مخيفة •

وتحاضن الرجال خلف الجسر الصغير وجلسوا في أوضاع مريحة منتظرين دورهم ، وكانت كثير من ظهورهم في اتجـــاه النيران • ورقد صديق الفتى دافنا وجهه في ذراعيه ، وبدا ، على الفور أنه كاد أن يكون في سبات عميق •

وانحنى الفتى بصدره على القذارة البنية وتطلع الى الغابات وفوق وتحت الخط • وتدخلت ستائر الأشجار في مجالات الرؤية • كان في استطاعته أن يرى الخط المنخفض من الخنادق ولكن لمسافة قصـيرة • كانت بعض

الاعلام جاثمة على التلال القـذرة ، وكانت خلفها صـــفوف من الاجساد السوداء ورءوس قليلة لاصقة بصورة غريبة فوق القمة ٠

كانت ضوضاء المناوشين آتية دائما من الغابات فى الامام والخلف ، وازداد الطنين على اليمين بصور مخيفة ، وكانت البنادق تزأر دون توقف مفاجىء للتنفس ٠ لقد بدا أن المدافـع قـد جاءت من كافة الارجاء وكانت مشتبكة في شجار هائل ، وكان من المستحيل سماع أية عبارة ٠

لقد أراد الفتى أن يلقى نكتة مقتبسة من الصحف ٠ لقـد أراد أن يقول : « كل شيء هادىء فى راباهانوك » ولكن البنادق رفضت أن تسمح حتى بالتعليق على ضوضائها ٠ لم يتم كلمته على الاطلاق ، ولكن توقفت البنادق أخيرا ، وطارت بين الرجال فى حفر البنادق شائعات ، كالطيور ، ولكن صار معظمهم الآن كائنات سوداء ترفرف بأجنحتها فى كآبة بالقرب من الارض ورفضت أن ترتفع على أية أجنحة من أجنحة الامل ٠ صارت وجوه الناس حزينة من تفسير التفاؤلات ٠ لقد بلغت مسامعهم قصص عن التردد والحيرة من جانب من هم من ذوى المناصب والمسئوليات الرفيعة ؛ كانت قصصا عن النكبة يتذكرونها بما لها من دلالات عديدة ٠ وكان هذا الطنين الصادر عن نيران المدافع من الجانب الايمن ، يرتفـع مثل صوت جنى طليق ، يعبر عن ويؤكد : القسم الذى أخذه الجيش على نفسه ٠

وثبطت همة الرجال وبدءوا يزمجرون ٠ لقد أدوا حركات تعبر عن هذه الجملة : «آه ، ماذا نستطيع أن نفعل أكثر من هذا ؟» وكان من الممكن ملاحظة أنهم كانوا مندهشين من النبأ المزعـــوم ، ولا يمـكن أن يدركوا الهزيمة ادراكا تاما ٠

وقبل أن تمحو أشعة الشمس الضباب الرمادى محوا تاما ، كانت الفرقة تسير فى طابور ممتد ينسحب بعناية خلال الغابات ٠ وأحيانا كان يمكن رؤية خطوط العدو غـــير المنتظمة والمسرعة وهى تمر عبر الحدائق والحقول البسيطة ٠ كانوا يصيحون ويجلجلون وهم مبتهجون ٠

نسى الفتى عند مشاهدته لهذا المشهد كثيرا من مشاكله الشخصية وصار شديد السخط وانفجر فى عبارات عالية : « يا الهى ، اننا يقودنا قادة لا يفهمون · » ·

فعلق رجل قائلا : « ان أكثر من شخص قال هذا الكلام اليوم · » ·

أما صديقه الذى نهض حديثا فكان لا يزال نائما تماما ، وتطلع خلفه حتى أدرك ذهنه معنى الحركة ثم تنهد وقال معلقا فى حزن : «آه ، حسن . اعتقد أنهم ضربونا · » ·

وطرأت على الفتى فكرة هى أنه قد يكون لطيفا منه أن يترك لنفسه حرية ذم أشخاص آخرين · لقد حاول أن يكبح جماح نفسه ، ولكن الكلمات التى كانت على طرف لسانه ، كانت بالغة المرارة · لقد بدأ الآن فى التشهير بقائد القوات تشهيرا طويلا ومعقدا ·

وقال صديقه فى نغمة مجهدة : « ربما ، أنها ليست غلطته بالمرة ــ ليست كلها · لقد بذل كل ما فى وسعه · انه حظنا ؛ انهم غالبا مايضربوننا · » وكان يمشى قدما بكتفين مائلين وعينين متنقلتين كشخص رفس وضرب بعصا ·

وطالب الفتى بصوت عال : « حسن ، ألا نقاتل مثل الشيطان ؟ ألا نستطيع أن نفعل ما يفعله كل الرجال ؟ » ·

وكان معقود اللسان سرا بالنسبة لهذا الرأى حتى خرج من بين شفتيه · وللحظة فقد وجهه جرأته وتطلع حواليه كمذنب ، لكن لم يناقشه أحد فى مدى حقه فى استخدام مثل هذه الكلمات · وبعد ذلك استرد شجاعته ، واستمر فى ترديد عبارة سمعها تتناقلها مجموعة عن مجموعة فى المعسكر ذلك الصباح : «لقد قال اللواء انه لم يشهد فرقة جديدة تقاتل بالصورة التى قاتلنا بها بالأمس ، أليس كذلك ؟ ونحن لم نفعل شيئا خيرا من فرق عديدة أخرى ، أليس كذلك ؟ حسن ، اذن ، لا يمكن أن نقول انها غلطة الجيش ، أليس كذلك ؟ »

وفي رده كان صوت الصديق جافا ، وقال : « طبعا لا » واستطرد: « لا يجرؤ انسان على القول بأننا لا نقاتل مثـــل الشيطان · لن يجرؤ انسان قط على قول ذلك · ان الاولاد يحاربون كأنهم ديكة الشيطان ، ولكن ، مع ذلك ـ مع ذلك فحظنا سيء · » ·

فقال الفتى في عظمة وحزم : « حسن ، اذن ، اذا كنا نحارب مثل الشيطان ولا نضربهم فعلا فلابد أنها غلطة القائد · » · واستطرد : « ولا أرى أى معنى فى القتال والقتال والقتال ، ومع ذلك نحن نخسر دائما من جراء بعض أخطاء قائد من القواد · » ·

ثم تحدث رجل ساخر كان يجول بجانب الفتى ؛ تحدث معلقا فى كسل : « ربما ظننت أنك حاربت المعركة كلها بالأمس يافليمنج · » ·

وكان فى الحديث وخز للفتى ، وبهذه الكلمات التى جاءت صدفة انكمش داخليا حتى صار عجينة حقيرة وأخذت ساقاه فى الاهتزاز سرا · وشخص الى الرجل الساخر بنظرة مخيفة ·

وأسرع يقــول فى حــديث سلمى : « ولم لا ؟ » واستطرد : « لا أظن اننى حاربت المعركة كلها بالأمس · » ·

ولكن كان باديا أن الشخص الآخر برىء ولم يقصد أى معنى بعيد· كان واضحا أنه لم يكن لديه أية معلومات · لقد كانت هـــذه هى عادته فحسب ، وأجاب بنفس نغمة التهكم الهادىء : « آه ! »

ومع ذلك ، فقد أحس الفتى بتهـــديد · كان ذهنه قـد أجفل من الاقتراب من الخطر ؛ ومن ثم فقد لزم الصـــمت · ان معنى كلمات الرجل الساخر قد انتزع منه كل الاساليب الصاخبة التى قد تجعله يبدو مرموقا، اذ صار فجأة شخصا متواضعا ·

كان هناك حديث خافت النغمة بين الفرق ، والضـــباط ضجرين وقلقين ، وكان محياهم قاتما ينطق بقصص النـــكبات ، وكانت الفرق العسكرية كئيبة المنظر وهى تتسلل خلال الغابة · وفى مجمـوعة الفتى

رنت مرة ضحكة شخص ، فأدار عشرات من الجنود وجوههم بسرعة تجاهه وتجهموا فى كدر غامض ·

كانت جلجلة اطلاق النيران تتعقب خطاهم ، وقد يبدو أحيانا أنها قد تحولت قليلا ولكن كانت دائما تعود مع صلف زائد ، وكان الرجال يتمتمون ويلعنون ويصوبون نظرات سوداء تجاهها ·

وفى مساحة مكشوفة توقفت الفرق أخيرا ، واذا الفرق والألوية فى تكسرها وتفرقها خلال لقاءاتها فى الأدغال ، يتجمع بعضها مع بعض مرة أخرى وتشكل صفوفا واجهت النباح المستمر المنطلق من مدفعية العدو ·

ازدادت هذه الضوضاء ، التى أعقبت ذلك مثل صرخات حماسية أشبه بالصرخات المدوية لكلاب الصيد ، ازدادت حتى صارت انفجارا مدويا بهيجا ، ثم عندما صعدت الشمس فى هدوء الى السماء ملقية بأشعتها الوضاءة على الادغال المظلمة ، اقتحمت القصف الذى طال مداه · وبدأت الغابات تقرقع كما لو كانت مشتعلة ·

وقال شخص : « يا الهى » واستطرد : « ها نحن ! كل فرد يقاتل الدم والدمار · » ·

وأكد الضابط الذى كان يقود فرقة الفتى ، فى وحشية قائلا : « كنت على استعداد لأن أقامر بأنهم سيهاجمون حالما ترتفع الشمس · » · وهز شاربه القصير بغير ما شفقة · وخطا الى الامام والخلف فى عزة نفس مبهمة فى مؤخرة رجاله الذين كانوا يرقدون خلف ما كانوا قد جمعوه ليحتموا به ·

كانت البطارية قد تدحرجت الى موقع فى المؤخرة ، وكانت تقذف القنابل فى تأمل من مسافة ، وكانت الفرقة ، رغم أنها لم تكن متضايقة، تنتظر اللحظة التى يمكن أن تفصل فيها الظلال الرمادية للغابات أمامهم بفعل خطوط اللهب · كان هناك مزيد من الزمجرة والأيمان ·

وقال الفتى غاضبا : « يا الهى » واستطرد : « نحن دائما يصيدوننا كما لو كنا فئران ! ان هذا الامر يضايقنى · يبدو أنه لا يعرف أحد أين نذهب ولماذا نذهب · ان كل ما يحدث هو أننا نجـــد طلقات الرصاص حوالينا جيئة وذهابا ، ويضربوننا هنا ويضربوننا هناك ، ولا يعلم أحد ما وراء ذلك · انها تدع المرء يحس بأنه مثل قطيطات لعينة فى جعبة · والآن ، أود أن أعرف ، على أية حال ، ماهو المصير الأبدى لنا من وراء سيرنا فى هذه الغــابات ، ما لم يكن الغرض من ذلك هو اتاحة الفرصة للثــوار ليوجهوا الينا ضربات منتظمة · لقد قدمنا الى هنا وتشابكت أقدامنا كلها فى هذه الغابات اللعينة ثم بدأت فى القتال وللثوار فرصة سهلة للقتال · « لا تقل لى ان الامر مجرد حظ ! أنا أعلم خيرا منك · انه هـــذا اللعين العجوز · » ·

وبدا الصــديق منهكا ولكنه قاطع صديقه بصوت ينم عن ثقة هادئة وقال : « فى النهاية سيستحيل الأمر الى الوضع الصحيح · » ·

« آه ، لعنة الله ، سيحدث ! أنت دائما تتحدث مثل قسيس عنيد· لا تخبرنى ! أنا أعلم ····· » ·

وفى هذا الوقت كان هناك اعتراض من جانب الضابط ذى العقلية الوحشــية الذى كان مضطرا لأن يعكس بعض سخطه على رجاله وقال : « أيها الأولاد ، اسكتوا دائما ، لا حاجة لضياع أنفسكم فى جدال طويل لا طائل تحته عن هـــذا أو ذاك من الامور · لقد تجمعتم مثل مجموعة من الدجاج الهرم · ان كل ما عليكم فعله هو أن تقاتلوا وستجدون الكثير من ذلك القتال لتأخذوه على عاتقكم فى حوالى عشر دقائق · ان خــير الامور بالنسبة لكم أيها الاولاد هو الاقلال من الحديث والاكثار من القتال · اننى لم أشهد قط مثل هذه الثرثرة الحمقاء · » ·

وتوقف ، وكان مســتعدا لأن ينقض على أى شـــخص قد يجازف ويجيب ، ولم يتفـــوه بأية كلمة ، فاستأنف خطواته التى تنم عن عزة النفس ·

وقال لهم وهو يدير رأسه فى انتظار تعليق أخير : «على أية حال ، هناك كثير من الموسيقى وقلة من القتال فى هذه الحرب » ٠

كان اليوم قد ازداد بهاؤه حتى أرسلت الشمس أشعتها الكاملة على الغابة المحتشدة ٠ هب نوع من ريح المعركة مكتسحا ذلك الجانب من الصف حيث كانت فرقة الفتى ٠ كانت الجبهة قد راوغت قليلا لتواجهه بوضوح، وكان هناك انتظار ٠ وفى هذا الجانب من الميدان مرت ببطء لحظات التوتر التى تسبق العاصفة ٠

وأومضت بندقية وحيدة فى الادغال أمام الفرقة ٠ وفى لحظة انضمت الى بنادق كثيرة ، وكانت هناك أغنية قوية للاشتباكات والتحطيمات التى كانت تكتسح خلال الغابات ، وكانت البنادق فى المؤخرة ، قد أثارتها وأغضبتها القنابل التى كانت تلقى عليهم مثل الشوك ، وفجأة ورطوا أنفسهم فى شجار مخيف مع جماعة أخرى من حملة البنادق ٠ استحال زئير المعركة الى رعد مضطرب ٠ وكان انفجارا فريدا طويل الامد ٠

وتملك الفرقة نوع غريب من التردد اتضح فى موقف الافراد ، فقد كانوا مرهقين منهوكى القوى ، لم يظفروا من النوم الا بالقليل وكانوا يعملون الكثير ٠ كانوا يديرون أعينهم تجاه المعركة المتقدمة وهم وقوف فى انتظار الصدمة ٠ لقد انكمش البعض ونكصوا ، ووقفوا كرجال أوثقوا فى أوتاد ٠

# الفصل السابع عشر

بدا هذا التقدم من جانب العدو ، بدا للفتى مثل صيد قاس · لقد بدأ يرغى ويزبد بالغضب والسخط · وضرب بقدمه على الأرض ، وتجهم بما ينم عن الكراهية من الدخان المتصاعد فى حلقـات والذى كان يقترب كفيضان وهمى · كان هناك جنون فى هذا الاصرار البادى من جانب العدو يجعله لا يهدأ ولا يتيح له وقتا كى يجلس ويفكر · بالامس حارب وهرب بسرعة · كانت هناك مغامرات عديدة · وقد أحس اليوم بأنه قد أتيحت له فرص راحة فيهـا تأمل · كان فى امكانه أن يسـتمتع بأن يصـور للمستمعين غير العليمين ببواطن الامور ، مختلف المشاهد التى كان شاهدها أو كان فى استطاعته أن يناقش عمليات الحرب مع أشـخاص آخرين مجربين · وكان المهم أيضا أن يكون لديه وقت للاستجمام البدنى · لقد أحالته خبراته شخصـا حزينا وصارما · لقـد تلقى ما كفاه من كل جهد وكان ينشد الراحة ·

ولكن يبـدو أن تعب الأشـخاص الآخرين لن يزداد على الاطلاق ، وكانوا يحاربون بسرعتهم القديمة · وبالامس ، عندما تخيل أن الكون قد صار ضده ، كرهه ، كره كل ما فيه صغيره وكبيره ، واليـوم كره جيش العدو بنفس الكراهية الشديدة · لم يكن ليضيق بحيـاته ، مثل قطيطة تطاردها أطفال ، كما قال · لم يكن من الخير أن تدفع برجال الى الاماكن القاصية ففى تلك اللحظات قد تنمو لهم جميعا أسنان ومخالب ·

ومال وتحدث فى آذن صديقه ، وتوعد الغابات بحركة وقال : « لو استمروا فى مطاردتنا، فوالله من الخير لهم أن يحترسوا • اننا لانستطيع أن نحتمل أكثر من هذا • » •

ولوى صديقه رأسه ورد ردا هادئا قائلا : « لو أنهم استمروا فى مطاردتنا فسيدفعون بنا جميعا الى النهر • » •

وصاح الفتى فى وحشية عند سماعه لهذه العبارة ، وجثم خلف شجرة صغيرة وعيناه تتأججان كراهية وأسنانه فى صورة أشبه بتكشيرة معقودة • وكانت الضمادة الغريبة لا تزال حول رأسه وكان عليها فوق جرحه بقعة من دم جف ، وكان شعره أشعث بصورة غريبة ، وكانت بعض خصلاته المبعثرة والمتحركة معلقة فوق قماش الضمادة المتدلى فى اتجاه جبهته • وكانت سترته وقميصه مفتوحين عند الرقبة كاشفين عن رقبته البرونزية الفتية • وكان فى الامكان رؤية ازدرادات تشنجية عند حنجرته•

التفت أصابعه فى عصبية حول بندقيته • تمنى لو كانت آلة لابادة القوة • لقد أحس بأنه واخوانه مثار سخرية واستهزاء نابع من ايمان صادق بأنهم كانوا فقراء وضيعين وضعفاء • ان علمه بعجزه عن أن يأخذ بثاره عن ذلك قد أحال غضبه الى شبح أسود عاصف ، تملكه وجعله يحلم بعنف كريه • كان المعذبون ذبابا يمتص من دمه فى وقاحة ، وظن أنه ربما وهب حياته نظير انتقام لرؤية وجوههم وهى تتضرع فى اشفاق•

كانت رياح المعركة قد اكتسحت كل ما حول الفرقة حتى البندقية الوحيدة التى أعقبتها بنادق أخرى ، والتى كانت تومض فى مقدمتها • وبعد ذلك بلحظة زأرت الفرقة وأجابت بشدة بردها المفاجىء الجسور • استقر ببطء جدار سميك من الدخان • لقد شقته طوليا وقطعته فى غضب • نيران أشبه بالسكين صادرة عن البنادق •

وبدا المحاربون فى نظر الفتى مثل حيوانات ألقى بها فى حفرة مظلمة فى نضال مع الموت • كان هناك احساس بأنه وأقرانه ، وهم فى

ورطتهم . كانوا مندفعين الى الوراء ، كانوا دائما يقاومون غارات عنيفة تشنها كائنات مراوغة . وبدت شعاعاتهم القرمزية لا تجد قوة ارتكاز على أجساد أعدائها ، وبدا الأخيرون يتجنبونها بسهولة ، وهى آتية من كل جانب ، ببراعة لم يكن لها نظير .

حلم الفتى مرة بأن بنـدقيته كانت عصا عاجزة ، ففقد الاحساس بكل شيء الا بكراهيته وبرغبته فى أن يحطم حتى اللب ابتسامة النصر المتألقة التى كان يحس بها على وجوه أعدائه .

تجعد الصف الازرق الذى ابتلعه الدخان وتلوى مثل ثعبان منقض عليه . لقد أخذت أطرافه تتأرجح جيئة وذهابا فى ألم شديد من الخوف والغضب .

لم يكن الفتى يعى أنه كان قائما فوق قدميه . لم يكن يعلم اتجاه الارض ، وفى الحقيقة فقد مرة حتى عادة التوازن وسقط بكل ثقله ولكنه نهض ثانية على الفور ، وفى تلك الآونة مر بذهنه المشوش ، خاطر ، فقد تعجب عما اذا كان قد سقط لأنه أصيب بالرصاص ، ولكن الشك ما لبث أن ولى على الفور . لم يفكر كثيرا فى هذا الامر .

لقد اتخذ وضعا أوليا خلف شجرة صغيرة مع تصميم مباشر بأن يستمسك بها فى مواجهة العالم ، ولم يكن يحسب أن من المحتمل تمكن جيشـه من النصر فى ذلك اليـوم ، ومن هنا أحس بالقدرة على القتال قتالا أشد ، ولكن الحشد قد ماج فى كافة الاتجاهات حتى فقد اتجاهاته ومواقعه ، اللهم الا أنه كان يعلم أين مكان العدو .

وضربته أشعة الشمس وشـوى جلده الدخان الحـار ، وصارت ماسورة بندقيته شديدة الحرارة حتى أنه لم يستطع ، حسب المألوف ، أن يحمل بندقيته على راحة يده ، ولكنه داوم على حشوها بالخراطيش وكان يدق عليها فى قرقعة وهو يثنى مدكها . لو أنه صـوب الى بعض الأشـكال المتغيرة خلال الدخان ، لجذب زناد البندقية جذبة وحشية كما لو كان يكيل بضربة من قبضته بكل ما لديه من قوة .

وعندما بدأ العدو يتقهقر أمامه وأمام اخوانه ، توجه فورا الى الأمام مثل كلب رأى أعداءه يتقاعسون فيستدير ويصر على أن يكون متبوعا ، وعندما اضطر للتقهقر ، تقهقر في بطء وفي كآبة وهو يخطو خطوات يأس مغيظ ·

وذات مرة ، كاد يكون وحيدا ، في كراهيته المقصودة ، وكان يطلق النيران ، بينما كان كل من جاوره قد توقف · وكان مشغولا في عمله الى حد كبير حتى أنه لم يكن على علم بفترة السكون ·

وأثابته الى رشده ضحكة خشنة وعبارة ترامت الى سمعه في صوت فيه مزيج من الازدراء والدهشة : « أيها الشيطان الأحمق ، ألا تعلم تمام العلم أنك يجب أن تتوقف عندما لا تجد شيئا تصوب اليه النار ؟ يا الهي ! »

ثم تلفت ، وتوقف ، وكانت بندقيته شبه ملقاة في الموقع ، وتطلع الى الطابور الازرق ، طابور زملائه ، فبدوا جميعهم خلال هذه اللحظة من الراحة مشغولين في الحملقة فيه في دهشة · لقد صاروا مشاهدين ، ولما تلفت الى الجبهة مرة أخرى رأى ، تحت الدخان المنقشع ، أرضا مهجورة ·

وبدا مدهوشا للحظة ، ثم بدا على فراغ عينيه اللامع ذكاء حاد وقال في ادراك : «آه»

وعاد الى زملائه ورمى بنفسه على الارض، وتمدد مثل شخص مضروب بالسوط · بدا جلده كما لو كان يشوى شيا غريبا ، واستمرت أصوات المعركة في أذنيه وتلمس زمزميته بلا تبصر ·

كان الضابط يصيح · لقد بدا أنه كان نشوان بالقتال · لقد صاح على الفتى قائلا : « والله لو أن عنـدي عشرة آلاف قطة متوحشـة مثلك لاستطعت أن أمزق أحشـاء هـذه الحزب في أقل من أسـبوع ! » ونفخ صدره في شدة اعتزاز بنفسه وهو يقول هذه العبارة ·

وتمتم بعض الرجال وتطلعوا الى الفتى وهم في دهشة · كان واضحا أنه بينما كان مستمرا في حشو البندقية واطلاق الرصاص وفي السب

يدون توقف مناسب ، قـــد ســـنحت لهم الفرصة ليشاهدوه ؛ وكانوا يتطلعون اليه الآن على أنه شيطان حرب .

وجاء الصديق اليه مترنحا ، وكانت نبرات صـوته تنم عن بعض الخوف والرعب ، وقال : « هل أنت على ما يرام يافليمنج ؟ هـل تحس بأنك في صحة جيدة ؟ لا شيء بك يا هنرى ، أليس كذلك ؟ »

وقال الفتى بصعوبة : « كلا » وبدا حلقه وكأنه ممتلىء بكتل خشب وأشواك .

جعلت هـذه الأحداث الفتى يتأمل . لقد اتضح له أنه كان بربريا وحشا . لقد حارب مثل الوثنى الذى يدافع عن دينه . ولما تأمل فعلته وجد أنها كانت طريفة ، وحشية ، وفى بعض الاحيان سهلة . لقد كان شخصية عظيمة بلا شك . بهذا النضال تغلب على العـوائق التى اعتقد أنها جبال . لقد انهارت كقمم ورق ، وصار الآن ما يسميه بطلا . ولم يكن على علم بالامر . لقد نام واستيقظ فوجد نفسه فارسا . لقد رقـد وكان موضع فرحة فى نظر اخوانه من وقت لآخر . كانت وجوههم متفاوتة فى درجات سوادها من فعل البارود المحترق . كان بعضهم قـد تلطخ تماما بالدخان ، وكانت تفـوح منهم رائحة العرق وجاءت تنفسـاتهم صعبة مصحوبة بنشيج . ومن هذه الابعاد الملوثة كانوا يحملقون فيه .

وصاح الضابط فى هذيان : « عمل ساخن ! عمل ساخن ! » ومشى جيئة وذهابا فى قلق وحماس ، وكان يمكن سماع صـوته أحيانا فى ضحكة وحشية غير مفهومة .

وعندما كان يطوف به خاطر عميق خاصة عن علم الحرب كان دائما يوجه كلامه الى الفتى لا شعوريا .

وكان يتملك الرجال ابتهـاج عابس : « والله ، أنا أقامر أن هذا الجيش لن يشهد على الاطلاق فرقة جديدة مثل فرقتنا نحن ! »

« أنت تقامر »

« كلب وامرأة وشجرة جوز ،

« كلما زدتهم ضربا ، صلح حالهم ! » .

« هذا مثلنا . » .

« لقد فقدوا كومة من الرجال . لو أن امرأة عجوزا اكتسحت الغابات لجرفت الكثير . » .

« نعم ، ولو أنها عادت ثانية فى مدى نصف ساعة لحصلت على كومة أخرى . » .

كانت الغـــابة لا تزال تحمل عبء صخبها ، وجاءت من بعيـــد تحت الأشجار ، قرقعة متقلبة من نيران المدافع . وبدا كل دغل بعيـــد كقنفذ غريب ريشـــه من لهب . وارتفعت سحابة من الدخان الأســـود ، كتلك الصاعدة من الخرائب المحترقة ، ارتفعت تجاه الشمس التى كانت فى تلك الآونة ناصعة زاهية فى السماء الزرقاء التى اتخذت زخرفها .

# الفصل الثامن عشر

توقف الطابور الرث الثياب لبضع دقائق ، ولكن خلال توقفه كان النضال فى الغابة قد صار عظيما حتى بدت الأشجار ترتعد من اطلاق الرصاص ، والأرض تهتز من تدفق الرجال ، وكانت أصوات المدافع مختلطة فى صف طويل لا نهاية له ، لقد بدا من الصعب العيش فى مثل هذا الجو ، وكانت صدور الرجال تجاهد لتنعم بجانب من الهواء الطلق وحلوقهم تتوق الى الماء ٠

اخترقت طلقة واحدة الجسد الذى أصدر صرخة فى عويل مؤلم عندما حل هذا السكون ٠ ربما كان يصرخ أثناء القتال أيضا ، ولكن فى تلك الأثناء لم يكن يسمعه أحد ولكن الآن تلفت الرجال الى شكاياته المحزنة على الأرض ٠

« من هو ؟ من هو ؟ » ٠

وعندما التقت أعينهم به لأول مرة توقفوا هناك توقفا مفاجئا كما لو كانوا يخشون الاقتراب منه ٠ كان يضرب حوله فى الكلأ ، يلوى جسده المرتعد فى عدة أوضاع غريبة ٠ كان يصرخ بصوت عال ٠ يبدو أن هذا التردد المفاجىء من جانبهم قد أدى به الى أن تملكه ازدراء كبير غريب الشكل ، فلعنهم فى جمل صارخة ٠

كان لدى صديق الفتى فكرة جغرافية عن وجود جدول ماء ، وحصل على اذن ليذهب بحثا وراء بعض الماء ، وعلى الفور انهالت عليه زمزميات « املأ زمزميتى ، هلا ملأتها ؟ » « ايت لى ببعض الماء ، أيضا » « وأنا أيضا »

وانصرف وهو محمل · وذهب الفتى مع صديقه وهو يشعر بالرغبة فى أن يقذف بجسده الساخن فى جدول المياه ويبتل هناك ، ويشرب جالونات من المياه ·

وقاما ببحث سريع عن الجدول المفروض وجوده ولكنهما لم يعثرا عليه · وقال الفتى : « لا يوجد ماء هنا · » · واستدارا بدون ابطاء وبدءا يترسمان خطاهما ·

ومن موقعهما ، بينما كانا يواجهان ثانية مكان القتال ، كان فى استطاعتهما بطبيعة الحال أن يفهما جانبا أكبر من المعركة عما أدركاه عندما كانت الرؤية غير واضحة من جراء الدخان المندفع من الطابور · كان فى استطاعتهما رؤية مسطحات سوداء منحنية على طول الأرض ، وعلى مساحة مكشوفة كان هناك صف من البنادق تصدر عنه سحب رمادية اللون ، كانت ممتلئة بأومضة كبيرة من لهب برتقالى اللون ، وكان فى استطاعتهما أن يشاهدا من فوق بعض أوراق الأشجار ، سقف منزل ، وكانت نافذة متوهجة بلون أحمر قان كريه ، مضيئة بوضوح من خلال فروع الأشجار· ومن الواجهة أخذ برج طويل مائل من الدخان يتصاعد بعيدا الى السماء ·

ولما دققا النظر فى فرقهما رأيا كتلا مختلطة اتخذت فى بطء شكلا منتظما ، وأخذ ضوء الشمس يشكل نقطا متلألئة من الصلب اللامع · ونحو المؤخرة كانت هناك ومضة آتية من جانب طريق بعيد بينما كان ينحنى فوق منحدر · لقد كان مكتظا بالمدفعية المنسحبة · ومن الغابة بأسرها ، فى تشابكها ، ارتفع دخان وضجيج المعركة ، وكان الهواء دائما يسوده دوى ·

وبالقرب من حيث كانا يقفان كانت القنابل تقصف وتصفر ، والرصاصات تطنطن فى الهواء وترتطم بجذوع الأشجار · وتسلل من الغابات الجرحى والضالون الآخرون ·

ولما تطلعا الى أسفل ممشى الغابة الصغيرة شاهد الفتى ورفيقه قائدا يثير ضوضاء ومعه هراوته ، وهو يكاد يركب فوق رجل جريح كان يزحف

على يديه وقدميه • كان القائد يمسك بقوة بعنان فم جواده الذى كان فاغرا فاه ويخرج منه الزبد ، وقاده بمهارة الفارس تجاه الرجل ، فزحف الأخير فى سرعة وحشية ومؤلمة ، وكان واضحا أن قواه قد خارت عندما بلغ مكانا آمنـا ، وفجأة دب الوهن فى أحـد ذراعيه وسقط وتدحرج على ظهره ، ورقد ممددا يتنفس تنفسا خافتا •

وبعـــد ذلك بلحظة كان موكب الخيـالة الصغير بطريقه يمر أمام الجنديين مباشرة وأسرع ضابط آخر كان يمتطى جواده بالمهارة المطلقة لرعاة البقر ، الى موقع أمام القائد مباشرة • وأظهر الجنديان المشاة غير المرئيين ، الى حد ما ، أنهما سيتابعان سيرهما ولكنهما تباطآ عن كثب أملا فى تسمع الحديث ، لعلهما ينصتان الى بعض الأمور التاريخية الداخلية العظيمة •

أما القائد ، الذى عرف فيه الجنديان أنه قائد فرقتهم ، فقد تطلع الى الضابط الآخر وتحدث اليه فى برود كما لو كان ينتقد ملابسه وقال : « يقـوم العدو بتشـكيلات هناك استعدادا لهجوم آخر • » • واستطرد : « سيكون موجها ضد ( وايتر سايد ) وأخشى أن يكون اقتحامهم من هناك ، ما لم نعمل مثل الرعد على ايقافهم • » •

وأقسم الآخر وهو ممتط جواده الجموح ، ثم سلك حلقه ، وقام بحركة تجاه قبعته وقال باختصار : « سأكون كالجحيم فى تولى ايقافهم • » •

وعلق القائد قائلا : « أظن ذلك » ثم بدأ يتحدث بسرعة وفى نغمـة دون الأولى • كان يصور كلماته دائما باستمرار بالاشارة بسبابته ، وكاد جنديا المشاة ألا يسمعا شيئا حتى تساءل فى النهاية : « أية فرق تستطيع أن تبقى عليها ؟ »

وفكر الضابط الذى كان يركب جواده مثل رعاة البقر ، لحظـة ثم قال : « حسن ، لقد رتبت أن تقوم الفرقة ١٢ بمساعدة الفرقة ٧٦ ، ولم أقم فعلا بأى اجراء • ولكن هناك الفرقة ٣٤ • انهم يحاربون كمجموعة من سائقى البغال • اننى أستطيع أن أبقى عليهم خيرا من أية فرقة • » •

وتبادل الفتى وصديقه نظرات الدهشة ٠

وتحدث القائد بحدة : « أعدهم اذن ٠ سأشاهد التطورات من هنا ، وسأبعث اليك بكلمتى متى ستبدءون ، سيكون ذلك فى خلال خمس دقائق ٠ » ٠

ولما دفع الضابط الآخر بأصابعه تجاه قبعته وأدار جواده ، وانطلق ، صاح عليه القائد فى صوت رزين قائلا : لا أظن أن كثيرا من سائقى بغالك سيعودون ٠ »

فصاح الآخر بشىء ردا عليه وابتسم ٠

وبوجهين مذعورين أسرع الفتى ورفيقه عائدين الى الطابور ٠

استغرقت هذه الأحداث فترة قصيرة بصورة لا يمكن تصديقها ، ومع ذلك ، فقد أحس الفتى خلالها أن السن تتقدم به ٠ لقد وهبت له عيون جديدة ٠ كان أكثر شىء مفزع هو أن يعلم فجأة أنه قليل الأهمية ٠ لقد تحدث الضابط عن الفرقة كما لو كان يشير الى مكنسة ، ربما كان جانب من الغابات فى حاجة الى كنس وقد شبههم فقط بمكنسة فى نغمة لا تقيم وزنا بالمرة لمصيرهم ٠ لقد كانت حربا ، بلا شك ، ولكنها بدت غريبة ٠

وعندما اقتربا من الطابور ، أحس بهما الملازم وانتفخ غاضبا وقال : « فليمنج ـ ويلسون ـ كم قضيتما وقتا طويلا فى جلب الماء ! على أية حال ـ أين كنتما ؟ » ٠

ولكن بلاغته توقفت عندما شاهد عيونهما التى اتسعت وهى تحكى قصصا كبيرة ، وصاح صديق الفتى وهو يسرع بنبئه : « سنقوم بالهجوم ٠٠ سنقوم بالهجوم ! » ٠

وقال الملازم : « هجوم ؟ » واستطرد : « هجوم ؟ حسن : يا الهى ! الآن ، هذا هو القتال الحقيقى ٠ » ٠ وفوق محياه الملوث حلت ابتسامة فخر وقال : « هجوم ؟ حسن ، يا الهى ! » ٠

وأحاطت بالشابين مجموعة صغيرة من الجند وقالت لهما : « هل أنتما متأكدان تأكدا تاما ؟ حسن ، أعوذ بالله ! هجوم ؟ لماذا ؟ ماوراء ذلك ، أنت تكذب يا ويلسون · » ·

وقال الفتى : « اننى أتمنى الموت » قالها وقد رفع نغمات صوته الى مفتاح احتجاج غاضب · واستطرد : « أقول لكم ، اننى متأكد كمن يتأكد من اطلاق النار · » ·

وتحدث صديقه مؤيدا : « لا تظنوا أن بنظره ضعفا ، ولا تخالوه كاذبا · لقد سمعناهما يتحدثان » ·

لقد لمحا الشخصين المتطيين جواديهما على مسافة قريبة منهما ، وكان أحدهما كولونيل الفرقة والآخر الضـــابط الذى تلقى الأوامر من قائد الفرقة · كانا يومئان أحدهما للآخر ، وكان الجندى ، وهو يشير اليهما ، يفسر المشهد ·

واعترض رجل أخير قائلا : « كيف استطعتما أن تستمعا اليهما وهما يتحدثان ؟ » ولكن الرجال ، جلهم ، هزوا رءوسهم مقررين بأن الصديقين قد صدقا القول قبل ذلك ·

لقد عادوا واستقروا فى أوضاع مستريحة فى هيئة من تقبل الأمر · وفكروا فى الأمر فى أساليب مختلفة · لقد كان أمرا أعظم من أن يفكروا فيه · كثيرون ضيقوا الحزام بعناية وشدوا سراويلهم ·

بعد ذلك بلحظة بدأ الضـــباط يتحركون بين الرجال يدفعونهم الى مجموعة أكثر احكاما والى خط تنظيم أفضل · لقد تعقبوا أولئك الذين ضلوا السبيل ، واستشاطوا غضبا من تلك القلة من الرجال الذين قرروا أن يبقوا على تلك البقعة · كانوا كرعاة غنم فى وضع عصيب يناضلون مع أغنامهم ·

وعلى الفور ، بدت الفرقة تنهض وتجذب نفسا عميقا · لم تكن وجوه الرجال مرايا لخواطر كبيرة · كان الجنود منحنين مطأطئى الرءوس مثـل

جياد سباق أمام علامة • كانت تطل كثير من أزواج العيون البراقة من الوجوه الحزينة تجاه ستائر الغابات الأكثر عمقا • لقد بدوا مشغولين فى حسابات متعمقة عن الوقت والمسافة •

كانت تحوطهم ضوضاء الشجار الهائل بين الجيشين ، وكان العالم مشغولا تماما بأمور أخرى • كان واضحا أن الفرقة مشغولة هى نفسها بأمرها البسيط •

وتلفت الفتى ونظر الى صديقه نظرة سريعة متسائلة ، ورد عليه الأخير بنفس النظرة • لقد كانا الشخصين الوحيدين اللذين على معرفة ببواطن الأمور • «سانقو بغال ــ أعوذ بالله ــ لا أظن أن كثيرين سيعودون•» لقد كان سرا تهكميا ، ومع ذلك لم يشهدا ترددا في وجه كل منهما ، ثم أومآ بموافقة صامتة بدون اعتراض عندما قال رجل أشعث الشعر قريب منهما ، في صوت خفيض : « سيبتلعوننا • » •

# الفصل التاسع عشر

تطلع الفتى الى الأرض المترامية أمامه ، وبدت أوراقها تحجب القوى والأهوال • كان على علم بنظام الأوامر التى أعلنت عن بدء الهجوم . رغم أنه رأى ، من أطراف عينيه ، ضابطا بدا كصبى فوق صهوة جواد ، قادما يعدو ، يلوح بقبعته • وفجأة أحس بتوتر واضطراب بين الرجال • وسقط الطابور ببطء الى الأمام مثل حائط يسقط ، وبدأت الفرقة رحلتها بعد لهثة تشنجية كان يقصد بها هتاف • ودفعوا الفتى وتدافعوا عليه بالمناكب للحظة قبل أن يدرك الموقف بالمرة ، ولكنه اندفع مباشرة الى الأمام وبدأ يجرى •

ثبت عينيه على دغل من الأشجار بعيدا وبارزا حيث انتهى الى أن العدو سيلتقى به وجرى تجاهه كما لو كان متجها الى هدف • لقد اعتقد من بداية الأمر الى نهايته أن المشكلة كانت فحسب مشكلة التغلب على شىء كريه بأسرع ما يمكن ، وجرى يائسا كما لو أن أحدا يتعقبه ليغتاله • كان وجهه جامدا ينم عن الضيق مع اصرار على مسعاه • كانت عيناه مثبتتين فى لمعان جذاب ، وبزيه الملوث غير المرتب وملامحه الحمراء الملتهبة بما فوقها من ثياب بالية قذرة بها بقعة من دم ، وبندقيته التى تتأرجح فى وحشية ، وعتاده الذى يطرق ، بدا كجندى مجنون •

ولما تحركت الفرقة من موقعها وخرجت الى المكان الخالى استيقظت الغابات والأدغال التى كانت أمامها ؛ وزحف اللهب الأصفر تجاهها من مختلف الاتجاهات واعترضت الغابة اعتراضا شديدا •

مال الطابور لحظة في استقامة ثم قفز الجناح الأيمن الى الأمام ، وبدوره سبقه الجناح الأيسر وبعد ذلك سار الوسط الى الجبهة حتى صارت الفرقة ككتلة اسفين ، ولكن بعد ذلك ببرهة أدى اعتراض الشجيرات والأشجار والأماكن غير المستوية الى انقسام القيادة وبعثرتها الى مجموعات متفرقة ٠

وكان الفتى سريع الجرى ، متقدما لا شعوريا ، وظلت عيناه متعلقتين بدغل الأشجار ، وكان في الامكان سماع صرخة العدو العشائرية من كافة الأماكن القريبة منها ؛ وكان اللهب الصغير يقفز من البنادق ٠ وأغنية الرصاص تدوى في الهواء والقنابل تدمدم بين قمم الأشجار ، وسقطت واحدة مباشرة في منتصف المجموعة المسرعة وانفجرت في غضب بالغ ٠ وعلى الفور كان هناك منظر رجل ، يكاد يكون فوقها ، يرفع يده ليحمى عينيه ٠

وكان هناك رجال آخرون ، أصابتهم قنابل فوقعوا في كرب غريب الشكل ، وخلفت الفرقة مدقا متلاصقا من الجثث ٠

ومروا بجو أكثر صفاء ، وكان هناك تأثير كتأثير الوحى على الرؤيا الجديدة للمنظر الحلوى ٠ كان واضحا لهم أن بعض الأشخاص يعملون بجنون على بطارية ، وكانت خطوط المدفعية المواجهة تحددها جدران الدخان الرمادية وأهدابه ٠

وبدا للفتى أنه رأى كل شىء ٠ كان كل نصل للكلأ الأخضر جريئا واضحا ٠ لقد فكر في أنه كان على علم بكل تغيير في البخار الرقيق الشفاف الذى كان يطفو متكاسلا في صحائف ، وأوضحت جذور الأشجار البنية أو الرمادية كل خشونة في سطحها ، وكان رجال الفرقة بعيونهم الفزعة ووجوههم المتصببة عرقا يجرون في جنون أو يسقطون ، وكأنهم قد استحالوا بسرعة ، الى جثث غريبة مكومة ــ كان كل شىء مفهوما ٠ لقد اتخذ ذهنه انطباعا ميكانيكيا لكنه انطباع حازم ، حتى أن كل شىء بعد ذلك كان مصورا ومفسرا له ، فيما عدا السبب الذى كان من أجله هو نفسه هناك ٠

ولكن كان هناك جنون مرده الى هذا الاندفاع المثير ، وكان الرجال يتموجون الى الأمام في جنون وقد انفجروا في ابتهاجات سوقية وبربرية وان كانت قد لحنت بأنغام غريبة كان يمكن أن تحرك ثقيل الفهم ورابط الجاش . لقد بثت حماسا جنونيا حتى بدت عاجزة عن كبح جماح نفسها أمام الجرانيت والنحاس . كان هناك الهذيان الذى يلتقى باليأس والموت ولا يكترث ولا يعيز اهتماما لكل ما هو غريب . لقد تغيبت الأنانية مؤقتا ولكن في تسام ، ولما كان الأمر على هذا المنوال ، فلربما كان هذا هو السبب في أن تعجب الفتى ، بعد ذلك ، من الأسباب التى يمكن أن تكون قد دفعت به ليكون هناك .

وعلى الفور ابتلعت الخطى المتوترة أنشطة الرجال . وكما لو كان بناء على اتفاق ، بدأ القادة يبطئون من سرعتهم ، وصار للطلقات النارية الموجهة ضدهم تأثير يشبه تأثير الريح . وأخذت الفرقة تنفخ وتلهث . ومن بين الأشجار الراسخة بدأت تضطرب وتتردد . وبدأ الرجال وهم يتطلعون عن قصد ، ينتظرون بعض جدران الدخان البعيد لتنقشع وتكشف لهم المشهد . ولما كان الجانب الأكبر من قوتهم وأنفاسهم قد تبدد ، فقد عادوا الى الحذر ، وصاروا رجالا مرة أخرى .

كان لدى الفتى اعتقاد غامض بأنه قد جرى أميالا ، وظن ، بطريقة ما ، أنه قد صار الآن في أرض جديدة ومجهولة .

وفي اللحظة التى توقفت فيها الفرقة عن تقدمها صار لغط نيران البنادق المعترض زئيرا ثابتا ، وانتشرت أهداب طويلة محكمة من الدخان ، ومن قمة تل صغير جاءت قذائف أفقية من اللهب الأصفر أحدثت صفيرا وحشيا في الهواء .

وقد أتيحت للرجال ، وقد توقفوا ، فرصة مشاهدة بعض اخوانهم وهم يسقطون في نحيب وصراخ ، ورقد قلة منهم تحت الأقدام ، وكانوا اما ساكنين أو يولولون . والآن ، وقف الرجال لمدة لحظة وبنادقهم متراخية في أيديهم ، وشهدوا الفرصة تتضاءل . لقد بدوا فاقدى الوعي وحمقى . لقد

بدا أن هذا المشهد قد شلهم وران عليهم بسحر قاتل • لقد حملقوا ، كأنهم خشب ، الى المشاهد وغضوا الطرف وتطلعوا من وجه لآخر • لقد كانت وقفة غريبة وسكونا غريبا •

ثم ارتفع زئير الملازم فوق أصوات الاضطراب الخارجي • لقد خطا الملازم فجأة الى الأمام وكانت ملامحه الصبيانية قد اسودت من الغضب •

فجأر قائلا : « هيا ، هه ، أيها الحمقى • » واستطرد : « هيا ! لايمكن أن تظلوا هنا •• يجب أن تسرعوا • » لقد قال أكثر من هذا ولكن لم يكن فى المستطاع ادراك معظمه •

وتوجه مسرعا الى الأمام وكان يدير رأسه تجاه الرجال وهو يصيح: « هيا » وحملق الرجال فيه بعيون حائرة أشبه ما تكون بعيون الفلاحين • كان مضطرا لأن يتوقف وأن يقتفى أثر خطاه • ثم وقف بعد ذلك وظهره للعدو وأخذ يتفوه بلعنات ضخمة فى وجوه الرجال • كان جسده يهتز من ثقل وقوة لعناته ، وكان فى استطاعته أن ينظم أيمانا بالسهولة التى تنظم بها المرأة عقودا •

ونهض صديق الفتى • كان يترنح فجأة الى الأمام ويكبو على ركبتيه، ويطلق طلقة غاضبة على الغابات الدائمة • أيقظ هذا الاجراء الرجال • لم يعودوا للتزاحم مثل الغنم • لقد بدءوا فجأة يفكرون فى أسلحتهم ، وعلى الفور بدءوا فى اطلاق النار ، ونزولا على رغبة ضباطهم بدءوا يتحركون الى الأمام • وبدأت الفرقة ، وقد وقعت كما تقع عربة نقل فى وحل وارتباك ، بكثير من الهزات والارتجاجات بصـــــورة متقلبة • وتوقف الرجال الآن كل بضع خطوات ليطلقوا النار وليحشوا بنادقهم ، وفى هـذا الأسلوب تحركوا ببطء ، من مجموعة أشجار الى مجموعة أخرى •

كانت المقاومة الملتهبة فى جبهتهم تزداد بتقدمهم حتى بدا أن كل الطرق الأمامية تحجزها الألسنة الرفيعة القافزة ، والى أقصى اليمين أمكن احيانا أن يشاهد فى غير وضوح دليلا ينذر بالسوء ، وكان الدخان الذى

تولد أخيرا قد انتظم فى سحب مضطربة حتى صار من الصعب على الفرقة أن تتقدم فى تعقل وادراك • وكلما مر الفتى خلال كل كتلة ملتفة تعجب عما قد يواجهه فى أقصى جانب •

توجه القائد مغموما الى الأمام حتى اعترضت مساحة مكشوفة بينهم وبين الخطوط القاتمة • وهنا كان الرجال ، وهم جاثمون ورابضون خلف بعض الأشجار ، قد تملكهم اليأس ، كما لو كانت ريح تهددهم ، كانوا يبدون فزعين كما لو كانوا مشدوهين من هـذا الاضطراب الشديد الذى أثاروه • وفى العاصفة كان هناك تعبير تهكمى عن أهميتهم • لقد أظهرت وجوه الرجال أيضا نقص شعور معين عن مسئولية وجودهم هناك ، لقد كانوا أشـبه بالمساقين • كانوا كالحيـوان المتسـلط الذى يعجز عن أن يتذكر فى أسمى اللحظات الأسباب القوية لمختلف الصفات الظاهرية • لقد بدا الأمر كله بعيدا عن ادراك كثير منهم •

ولما توقفوا هكذا بدأ الملازم مرة أخرى يجأر فى تحقير وامتهان • وفى غير ما اكتراث لتهديدات الرصاص الانتقامية أخذ يجول ملاطفا ومعنفا ولاعنا • وصارت شفتاه اللتان كانتا بطبيعتهما فى تقوس رقيق كشفتى الأطفال ، صارتا الآن وقد التوتا التواءات غاضبة • لقد أقسم بمختلف الأيمـان •

وأمسك مرة بالفتى من ذراعه صائحا : « هيا ، هه ، أيها الأحمق ! » واستطرد : « هيا ! سنقتل جميعنا ان بقينا هنا • ان علينا فقط أن نعبر ذلك الكوم ، ثم » ــ واختفى ما تبقى من فكرته فى ضـباب أزرق من اللعنات •

ومد الفتى ذراعه بعيدا وقال : « نعبر هناك ؟ » وكان فمه مزموما فى شك ورهبة :

« بكل تأكيد • مجرد عبور الكوم ! اننا لا نستطيع أن نبقى هنا • » هكذا صرخ الملازم ودس بوجهـه قريبا من الفتى ولوح بيـده المعصوبة :

« هيا ! » وعلى الفور تصارع معه كما لو كان فى حلبة مصارعة • لقد كان كما لو أنه قد خطط ليسحب الفتى من أذنه ليقوم بالهجوم •

أحس النفر العسكرى بغضب مفاجىء لا يوصف ، من الضابط • لقد التوى بوحشية وتخلص منه •

فصرخ قائلا : « هيا ، أنت نفسك ، اذن » وكان فى صوته تحد عنيف •

وجريا معا أسفل جبهة الفرقة • وزحف الصديق خلفهما • وأمام علم الفرقة بدأ الرجال الثلاثة يصرخون : « هيا ! هيا ! » ورقصوا وداروا كما لو كانوا متوحشين معذبين •

ومال العلم ، فى طواعية لهذه المطالب ، مال بشكله المتلألىء وانجرف تجاههم • اهتز الرجال فى تردد للحظة ثم فى صرخة طويلة باكية ماجت الفرقة المتداعية الى الأمام وبدأت رحلتها الجديدة •

سارت الكتلة المارقة على ميدان القتال • كانت قلة من الرجال يذرون بها فى وجوه العدو • وفجأة اندفعت تجاهها الألسنة الصفراء ، وتعلقت أمامهم كمية ضخمة من الدخان الأزرق ، وكانت الضوضاء القوية قد جعلت الآذان لا قيمة لها •

جرى الفتى كالمجنون ليبلغ الغابات قبل أن تتمكن رصاصة من اكتشافه • أحنى رأسه الى أسفل مثل لاعب كرة القدم ، وفى اسراعه كانت عيناه شبه مغلقتين ، وكان المشهد غامضا موحشا • واستقر لعاب خانق عند طرفى فمه •

وفى داخل نفسه ، بينما كان يدفع بنفسه الى الأمام ، ولد حب ، اعجاب يائس بهذا العلم الذى كان قريبا منه • كان ابداعا للجمال واعجازا لأى هجوم • كان كالهة مشعة ، تثنى له هيأتها بحركة متغطرسة ، كان كامرأة حمراء وبيضاء كارهة ومحبة ، تدعوه بصوت من آمالها • ونظرا لأنه لم يصبه ضرر ، لذا فقد منحه القوة • ظل قريبا ، كما لو كان فى استطاعته أن يكون منقذا للأرواح ، وصدرت من ذهنه صرخة توسل •

كان على علم فى الزحف الجنونى بأن الجاويش حامل علم الفرقة قد سقط فجأة كما لو كان قد ضرب بهراوة · لقد تلعثم ثم صار بلا حراك فيما عدا ركبتيه اللتين كانتا ترتعدان ·

وقفز قفزة وأمسك بعمود العلم ، وفى اللحظة نفسها أمسك به صديقه من الجانب الآخر · لقد اهتزا عنده ، فى جرأة وغضب ، ولكن الجاويش حامل العلم كان ميتا ، ولم تتخل الجثة عن ثقتها · وكان هناك لقاء حزين لحظة · وبدا الرجل الميت ، وهو يتأرجح بظهره المائل ، يكافح فى عناد ، بأساليب غير معقولة ورهيبة ، من أجل الاستحواذ على العلم ·

لقد انتهى فى لحظة من الوقت وسحبا العلم من الرجل الميت فى غضب ، وعندما استدارا ثانية اذا بالجثة تتمايل الى الأمام مع رأس منكس، وتحركت ذراع الى أعلى وسقطت اليد المقوسة فى احتجاج ثقيل على كتف صديقه الذى لم يكن متلفتا اليه ·

# الفصل العشرون

عندما استدار الشابان بالعلم شاهدا أن الجانب الأكبر من الفرقة قد تحطم بعيدا ، وأن ما بقي منه خائر النفس ـ كان قادما ، وأن الرجال الذين كانوا قد دفعوا بأنفسهم على هيئة قذيفة ، قد استنفدوا قواهم الآن • لقد تقهقروا في بطء ، وما زالت وجوههم تجاه الغـــابات المتناثرة وبنادقهم الساخنة تجيب على الطنين •• وكان عدد كبير من الضباط يصـــدرون أوامر ، وتحولت أصواتهم الى صرخات •

وكان الملازم يتساءل في ولولة تهكمية : «الى أى جحيم أنت ذاهب؟» وضابط لحيته حمراء ، صوته ثلاثة أمثال صوت الآلات النحاسية ، كان يسمع بوضوح وهو يأمر : « صوبوا اليهم ! صوبوا اليهم ، لعنـــة الله على أرواحهم ! » كان هناك خليط من الصرخات ، صدرت فيها الأوامر للرجال بأن يقوموا بأعمال صراع وأعمال مستحيلة •

وتصارع الفتى وصديقه صراعا بسيطاً على العلم : « اعطنى اياه ! » « كلا ، دعني أحتفظ به ! » وأحس كل منهما بأنه راض بملكية الآخر له ، ولكن كلا منهما أحس بأنه مضطر لأن يعلن ، بمحاولته أن يحمل الرمز ، عن استعداده لأن يخاطر بنفســه الى أقصى حـــد • ودفع الفتى صـــديقه فى خشونة بعيدا عنه •

ارتدت الفرقة الى الأشجار الدائمة ، وهناك توقفت لحظة عن تدفق فى بعض الأشكال الســوداء التى بدأت تتلصص آثارها • وعلى الفور ،

استأنفت مسيرتها مرة أخرى ، منثنية بين جذوع الأشجار • وفي الوقت الذى بلغت فيه الفرقة المجهدة مرة أخرى أول مساحة مكشوفة تلقت نارا سريعة لا هوادة فيها • لقد بدا كما لو كان هناك دهماء حواليهم •

تصرف الجانب الأكبر من الرجال ، وقد ثبطت عزائمهم وانحطت روحهم المعنوية من الضوضاء كما لو كانوا قد صعقوا • لقد تلقوا الرصاص برءوس منكسة مجهدة • لم يكن هناك مقصد لمناهضة الجدران • لم تكن هناك من جدوى من أن يحطموا أنفسهم أمام الجرانيت • ومن هذا الوعى بأنهم قد حاولوا أن يقهروا شيئا لا يقهر ، بدا أنه قد استبد بهم شعور هو أنهم قد غدر بهم • وحملقوا فى بعض الضباط بحواجب منكسة بشكل خطير ، وكانت حملقتهم أشد بصورة خاصة على الضابط ذى اللحية الحمراء بصوته الذى كان يفوق صوت الآلات النحاسية بثلاثة أمثالها •

ومع ذلك ، فقد كان فى مؤخرة الفرقة رجال استمروا فى اطلاق النار فى انفعال على الأعداء المتقدمين ، ويبدو أنه قد قر عزمهم على أن يثيروا كل اضطراب ، وربما كان الملازم الشاب آخر رجل فى الحشد المضطرب • كان ظهره المنسى فى مواجهة العدو • كان قد أصيب فى ذراعه • لقد تدلى فى استقامة وتخشب ، ومن وقت لآخر قد يتوقف عن أن يتذكره ، وقد يكون على وشك أن يؤكد قسما بحركة كاسحة • وكان أمله المضاعف يدعوه لأن يقسم بقوة خارقة •

تقدم الفتى بقدمين منهارتين مترددتين ، وظل يتطلع الى مؤخرة الجيش بعينين يقظتين • وكان على وجهه تجهم غم وغضب • لقد فكر فى الثأر الحاد من الضابط الذى أشار اليه والى رفاقه على أنهم سائقو بغال ، ولكنه رأى أنه لا يمكن أن ينفذه • لقد انهارت أحلامه عندما أخذ سائقو البغال ، وهم ينكمشون بسرعة ، يترنحون ويترددون فوق المساحة البسيطة المكشوفة ثم تراجعوا • كان تقهقر سائقى البغال الآن مسيرة خزى فى نظره •

كانت نظرة منه مثل خنجر مدبب خارج من وجهه المسود، مشرع

تجاه العدو ، ولكن كراهيته الكبرى كانت منصبة فى ثبات على الرجل الذى كان فى جهله له قد دعاه سائق بغال ٠

ولما علم أنه وأقرانه قد فشلوا فى أداء شىء بأساليب ناجحة قد تنزل كروبا بسيطة من نوع الندم على الضابط ، سمح أن يتملكه غضب المخدوع ٠ كانَ يرى أن من الأفضل لهذا الضابط البارد الواقف على ربوة كأنها نصب تذكارى يطلق منها نعوتا ، بلا اكتراث ، من الأفضل لو كان ميتا ٠ كم كان حزينا فى تفكيره فى هذا الأمر حتى أنه لم يكن من حقه السرى قط أن يعنف حقيقة فى الجواب ٠

لقد تصور الأحرف الحمراء للثأر العجيب ٠ « نحن سائقو بغال ، السنا كذلك ؟ » وكان مضطرا الآن لأن يخلفها وراء ظهره ٠

وفى الحال دثر قلبه فى عباءة من عزة نفسه وأبقى على العلم منتصبا ٠ وخطب فى اخوانه ، وكان يدفع بيده الطليقة فى صدورهم ٠ كان يعلم جيدا أنه كان يتوسل الى أولئك الأشخاص يستغيثهم فى جنون ، يتوسل اليهم بالاسم ٠ وبينه وبين الملازم ، الذى كان يزجره وكان على وشك أن يفقد صوابه من الغضب ، أحس بأن هناك زمالة رقيقة أو مساواة ٠ كان يعاون كل منهما الآخر فى كافة أساليب الاحتجاجات الجافة الصارخة ٠

ولكن كانت الفرقة آلة كليلة ٠ كان الرجلان يثرثران حول شىء لا قيمة له ٠ وكان الجند الذين أتيحت لهم الشجاعة ليسيروا ببطء ، دائما يترددون فى قراراتهم اذا ما نمى الى علمهم أن الرفاق كانوا ينهارون بسرعة عائدين الى الصفوف ٠ كان من الصعب التفكير فى الشهرة فى حين أن الآخرين يفكرون فى جلودهم ٠ كان الجرحى قد تركوا وهم يصرخون فى هذه الرحلة السوداء ٠

كانت أهداب الدخان واللهب تعصف دائما ٠ وشهد الفتى ، وهو يرمق مرة من خلال فرجة فى سحابة ، حشودا بنية من الفرق ، متضافرة وعظيمة حتى بدت كأنها آلاف وكان علم ذو الوان عنيفة يخفق أمام ناظريه ٠

وعلى الفور . وكما لو كان انقشاع الدخان قد سبق ترتيبه من قبل ، اذا بالفرق المكتشفة تنفجر في صرخة حادة ، وانبثقت مائة من النيران تجاه المجموعة المتقهقرة • ومرة أخرى اعترضت سحابة رمادية متدحرجة بينما كانت الفرقة ترد في عناد واصرار • وكان على الفتى أن يعتمد مرة أخرى على أذنيه اللتين أسيء استعمالهما واللتين كانتا ترتعدان وتطنان من خليط نيران البنادق والصرخات •

وبدا الطريق سرمديا • وفي الضباب الكثير السحب صار الرجال مذعورين من فكرة أن الفرقة قد ضلت طريقها وانها تتقدم في اتجاه محفوف بالمخاطر • ومرة تلفت الرجال الذين كانوا يترأسون الموكب المضطرب وتراجعوا متدافعين ازاء رفاقهم وهم يصرخون بأنه كان يصوب اليهم الرصاص من أماكن كانوا يعتقدون أنها كانت تجاه خطوطهم نفسها • وعند هذه الصرخة تملك الفرق خوف هستيرى وفزع واذا بجندى ، كان طموحا فيما مضى لأن يحيل الفرقة الى زمرة صغيرة حكيمة قد تتقدم في هدوء وسط الغابات التى تبدو ضخمة ، اذا به يسقط فجأة ويدفن وجهه بين ذراعيه في صورة استسلام للقدر • ومن مكان آخر دوى عويل حاد مجلجل مصحوب بآراء فيها استخفاف بالقائد • ورجال كانوا يجرون هنا وهناك يبحثون بأعينهم عن طرق للهروب • وكان الرصاص يصوب الى الرجال في انتظام هادىء كما لو كان ينظم وفقا لجدول زمنى •

ومشى الفتى بثبات الى وسط الدهماء ، وعلمه بين يديه ، وتوقف كما لو كان يتوقع محاولة لطرحه على الأرض • لقد أخذ على عاتقه ، لا شعوريا ، أن يتخذ وضع حامل العلم في القتال في اليوم السابق • لقد مر بيد مرتعشة على حاجبه ، ولم يكن تنفسه يصدر طليقا ، وكانت به غصة خلال هذا الانتظار البسيط للأزمة •

وهرع اليه صديقه وقال : « حسن ، يا هنرى ، أظن أنه الوداع ـ يا جون • » •

وأجاب الفتى : « آه ، صه ، أيها الأحمق اللعين ! » ولم يكن متطلعا الى الآخر •

كان الضباط يعملون مثل الساسة لينظموا المجموعة لتتخذ شكل دائرة منتظمة لمواجهة المخاطر وكانت الأرض غير مستوية ومشققة · وتكوم الرجال فى منخفضات وأعدوا أنفسهم فى ترتيب خلف ما قد يبطل مفعول رصاصة ·

لاحظ الفتى بدهشة غريبة أن الملازم يقف صامتا ورجلاه متباعدتان وممسكا بسيفه كما لو كان عصا · لقد تعجب الفتى مما حل بحباله الصوتية حتى أنه لم يعد يلعن ·

كان هناك شىء غريب فى هذه الوقفة الصغيرة المتعمدة التى وقفها الملازم · كان مثل طفل ، بعد أن بكى ما فيه الكفاية ، يرفع عينيه ويثبتهما على دمية بعيدة · كان مستغرقا فى هذا التأمل ، وارتعشت الشفة السفلى الرقيقة من الكلمات التى كان يهمس بها لنفسه ·

وفى بطء التف بعض الدخان المتكاسل الساذج ، وانتظر الرجال الذين كانوا مختبئين من الرصاص ، انتظروه فى قلق لينقشع ويكشف عن حالة الفرقة ·

وفجأة اهتزت الصفوف الساكنة من الصوت الحماسى للملازم وهو يصرخ : « ها هم قادمون ! فى اتجاهنا مباشرة ، يا الهى ! » وضاعت كلماته التى أعقبت ذلك وسط زئير الرعد المؤذى الصادر من بنادق الرجال ·

استدارت عينا الفتى فجأة فى الاتجاه الذى أشار اليه الملازم المتيقظ المضطرب وشهد ضباب الخيانة ينقشع عن جماعة من جنود العدو · كانوا شديدى القرب حتى كان فى استطاعته أن يرى ملامحهم · وتعرف عليهم عندما تطلع الى أشكال وجوههم · لقد أدرك أيضا فى دهشة تظللها الكآبة أن زيهم الرسمى كان بالأحرى زاهيا فى الواقع ، اذ كان رماديا فاتحا ، وكان الصدر البراق مشذودا ، وبدت الملابس جديدة أيضا ·

كان واضحا أن هذه الفرق متجهة أماما فى حذر ، وكانت بنادقهم محمولة على أهبة الاستعداد ، عندما اكتشفهم الملازم الشاب ،

وتوقفت حركتهم من جراء الطلقات النارية المنطلقة من الفرقة الزرقاء . وقد تبين ، من نظرة طارئة ، أنهم لم يكونوا على علم بقرب أعدائهم ذوى الزى الأسود أو أنهم قد أخطأوا الاتجاه . لقد كادوا أن يغيبوا فجأة عن أعين الفتى تماما فى الدخان المتصاعد من بنادق أقرانه النشطة . لقد أجهد عينيه ليتعرف على ما حققته الطلقات النارية ولكن الدخان كان معلقا أمامه ؛

تبادلت مجموعتان من الفرق الطلقات كما لو كانتا اثنين من الملاكمين وكانت طلقاتهما الغاضبة السريعة تنطلق أماما وخلفا وكان الرجال ذوو الزى الأزرق مصممين مع يأس ظروفهم ، على أن يكون الثأر فى أقرب مدى . لقد أخذت طلقاتهم تزداد صخبا وبسالة . وكانت جبهتهم المنحنية تحفها الأومضـــة والمكان يدوى بطنين مدكات بنادقهم . أحنى الفتى رأســـه وتحرك بعيدا بسرعة للحظة ورأى بعض مشاهد غير مرضية للعدو . لقد بدا أن هناك كثيرين منهم وأنهم كانوا يجيبون بسرعة . لقد بدوا يتحركون تجاه الفرقة الزرقاء خطوة خطوة ؛ فأجلس نفسه وهو مكتئب على الأرض وعلمه بين ركبتيه .

ولما شهد عريكة أقرانه الشريرة الشبيهة بالذئاب خطر له خاطر طريف وهو أنه اذا كان العدو على وشك أن يأخذ مكنسة الفرقة على أنها أسير كبير ، فقد يكون لها العزاء على الأقل فى أن تسقط وشعرها مسدل الى الأمام .

ولكن ضربات الخصم بدأت فى الضعف المستمر ، وشقت قليل من الطلقات الهواء ، وأخيرا عندما تباطأ الرجال ليعلموا أنباء القتال ، كان فى استطاعتهم أن يشهدوا فقط دخانا أسود سابحا . ومكثت الفرقة ساكنة وحملقت . ومرت على الفور نسمة عابرة بالمظهر الغامض المرهق للأعصاب، لقد بدأ ينقشع بعيدا فى ثقل . لقد رأى الرجال الأرض خلوا من المقاتلين. لقد كان مسرحا فارغا ان لم تكن هناك قلة من جثث راقدة ملقاة وملتوية فى أشكال خيالية على المسرح .

وعند رؤية هذه اللوحة نهض كثير من الرجال ذوى الزى الأزرق من

خلف مخابئهم ، ورقصوا فى سماجة رقصة فرح · واحترقت عيــونهم ، وانطلق من شفاههم الجافة هتاف ابتهاج أجش ·

لقد أخذ يبدو لهم أن الأحداث كانت تحاول أن تبرهن على أنهم كانوا عاجزين · لقد حاولت هذه المعارك البسيطة أن توضح بجلاء أن الرجال لا يمكن أن يقاتلوا قتالا مجيدا · وعلى وشك التسليم بهذه الآراء ، أظهرت لهم هذه المبارزة البسيطة أن التعادل ليس مستحيلا ، وبه انتقموا لأنفسهم من الشكوك ومن العدو ·

كان دافع الحمـــاس هو دافعهم مرة أخرى · لقد حملقوا حواليهم بنظرات كبرياء رفيعة ، فى احساس بثقة جديدة فى الأسلحة البشعة التى كانوا على يقين دائما من وجودها فى أيديهم ، وكانوا رجالا ·

# الفصل الحادى والعشرون

لقد عرفوا فى الحال أن لا قتال يهددهم وبدت كل الطرق مفتوحة أمامهم مرة أخرى ؛ فقد تكشفت لهم على مسافة قصيرة منهم صفوف اخوانهم الزرقاء المغبرة ، وعلى بعد كانت هناك بعض الضوضاء الهائلة ، ولكن فى كافة هذا الجزء من الميدان كان هناك سكون مفاجىء ٠

لقد أدركوا أنهم كانوا أحرارا ، وتنفست المجموعة المنهكة الصعداء فى راحة وجمعت نفسها فى باقة لتتم رحلتها ٠

فى هذه النهاية الأخيرة للرحلة بدأ الرجال يعربون عن عواطف غريبة ٠ لقد أسرعوا فى خوف عصبى ٠ لم يكن فى استطاعة بعض من كانوا أسودا ولم يكونوا مترددين فى أحلك اللحظات ، لم يكن فى استطاعتهم الآن أن يخفوا تلك الحيرة التى أحالتهم مجانين ٠ ربما كانوا يخشون أن يقتلوا بطرق لا يعتد بها بعد أن مضت الأوقات المناسبة للموت فى المعارك الحربية أو ربما ظنوا أنه قد يكون من السخرية تماما أن يقتلوا وهم على أبواب السلم ٠ وأسرعوا وهم يتطلعون الى الخلف تطلعات تنم عن اضطراب ٠

ولما اقتربوا من خطوطهم هم أنفسهم كان هناك تهكم واضح على جانب من فرقة شاحبة وبرونزية كانت ترقد مستريحة فى ظل أشجار ، وحملت الريح هذه الأسئلة اليهم :

« أين كنتم أيها الملاعين ؟ » ٠

« لماذا أنتم عائدون ؟ » .

« لماذا لم تبقوا هنالك ؟ » .

« هل الجو دافىء هناك يا أولاد ؟ » .

« هل أنتم عائدون لدياركم الآن يا أولاد ؟ » .

وصاح واحد فى محاكاة فيها تقريع : « آه ، أماه ، تعالى مسرعة وتطلعى الى الجند ! » .

لم يكن هناك من رد من الفرقة المكدودة والمحطمة اللهم الا أن واحدا من الرجال قام باذاعة تحديات عراك باللكمات وكان الضابط ذو اللحية الحمراء يسير أكثر قربا وحدق فى تفاخر عظيم الى النقيب المديد القامة فى الفرقة الأخرى ؛ ولكن الملازم أوقف الرجل الذى كان يود أن يقاتل باللكمات . واحتقن وجه النقيب المديد القامة من تبجح الضابط ذى اللحية الحمراء ، وكان مضطرا لأن يتطلع متعمدا الى بعض الأشجار .

كان جسد الفتى الرقيق توخزه بعمق هذه الملاحظات ، وحملق من تحت حاجبيه المجعدين فى كراهية الى المازحين . لقد فكر فى بضع انتقامات ؛ وكان لا يزال كثير ممن فى الفرقة يرفعون رءوسهم فى صورة اجرامية ، حتى غلب على الظن أن الرجال كانوا يمشون بعناء من جراء ثقل مفاجىء ، كما لو كانوا يحملون على أكتافهم المنحنية نعش كرامتهم . وبما تمالك الملازم الشاب نفسه بدأ يتمتم فى خفوت بلعنات قذرة .

وتلفتوا عندما بلغوا موقعهم القديم ليتطلعوا الى الأرض التى حاربوا فوقها .

كان الفتى قد تملكته دهشة هائلة فى هذا التأمل . لقد اكتشف أن المسافات اذا ما قورنت بالمعايير الباهرة فى مخيلته كانت تافهة ومضحكة . وبدت الأشجار الدائمة حيث وقع الكثير ، قريبة قربا لا يمكن تصديقه . والزمن ، أيضا ، الذى كان يتأمله الآن ، رآه قصيرا . كان

يعجب من عدد العواطف والحوادث التى احتشدت فى مثل هذه المساحات البسيطة . لقد قال ان أفكارا شيطانية لابد أن بالغت وضخمت من كل شىء .

ثم بدا أن كانت هناك عدالة مرة فى أحاديث من حنكتهم الحروب من ذوى الوجوه الشاحبة والبرونزية . لقد حجب نظرة ازدراء عن اخوانه الذين كانوا يبذرون الأرض ويختنقون من التراب وقد احمروا من العرق، وعيونهم مضببة وشعرهم أشعث .

كانوا يشربون من زمزمياتهم وهم حريصـــون على اعتصار كل قطرة صغيرة من الماء منها . ونظفوا ملامحهم المنتفخة الدامعة بأكمام ستراتهم وبحزمة من الكلأ .

ومع ذلك فقد تملكت الفتى فرحة عظيمة وهو يفكر فى أعماله أثنــاء القتال . كان لديه وقت قصير جدا قبل ذلك لكى يقدر نفسه ، حتى صار الآن يحس برضا بالغ فى التفكير فى أعماله فى هدوء . لقد تذكر جانبا من أفكار كانت أثناء اضطرابه قد فرضت نفسها على مشاعره المتشابكة بلا قصد .

وبينمـــا كانت الفرقة تلهث ممـــا بذلته من مجهودات شاقة اذا بالضابط الذى كان قد نعتهم بسائقى البغال ، يأتى عدوا على طول الخط . لقد افتقد قبعته وكان شعره الأشعث يتطاير فى همجية ، وأسود وجهه من الغضب والسخط ، وكان مزاجه واضـــحا غاية الوضوح بالأسلوب الذى كان يقود به جواده . كان يهتز ويتلوى فى وحشية أمام لجامه ، ويوقف الحيوان العسير التنفس بجذبة غاضبة قرب كولونيل الفرقة . وعلى الفور انفجر فى تعنيفات بلغت آذان الرجال بوضوح : وفجأة كانوا فى حالة انتباه ، وكانوا دائما فضوليين بالنسبة للكلمات البذيئة المتبادلة بين الضباط .

وبدأ الضابط قائلا : « آه ، يا الهى ، كم تهول يا ماك تشسنى من هذا الأمر الذى فعلته ! » وكان يحاول أن يتكلم فى نغمات منخفضة ولكن

غضبه دفع بعض الأشخاص الى أن يدركوا معنى كلماته : « يا لها من ورطة خطيرة اقترفتها ! يا الهى ، يا رجل ، لقد توقفت على بعد حوالى مائة قدم من هذا الجانب من اتمام نجاح عظيم جدا ! لو أن رجالك ساروا مائة قدم أبعد ، فلربما قمت بهجوم عظيم ، ولكن والحالة هذه ـ على أية حال لقد حصلت على مجموعة من حفارى الوحل ! » ٠

وحول الرجال الآن عيونهم الفضولية عن الكولونيل وهم ينصتون فى ترقب ٠ كانوا يهتمون بهذا الأمر اهتمام الصعلوك به ٠

وشـهد الكولونيل وهو ينصب قامته ويمد يده الى الأمام فى أسلوب خطابى ٠ لقـد اتخذ مظهر الشخص الذى وجهت اليه اساءة ، وكأنه شماس اتهم بالسرقة ٠ وكان الرجال يروحون جيئـة وذهابا من فرط الدهشة ٠

ولكن فجأة تبدل أسلوب الكولونيل من أسلوب شماس الى أسلوب رجل فرنسى ٠ كان يهز كتفيه ويقول : « آه ، حسن ، أيها القائد ، لقد سرنا الى أبعد ما يمكننا ٠ » قالها فى هدوء ٠

وقال الآخر وهو ينفخ بأنفه : « أبعد ما يمكنك ؟ أليس كذلك ، يا الهى ؟ » واستطرد قائلا : « حسن ، لم يكن ذلك بعيدا جدا ، أليس كذلك ؟ » قال هذا مضيفا وهو يتطلع فى استخفاف بارد الى عينى الشخص الآخر واستطرد : « أظنه ليس ببعيد جدا ٠ لقد تعمدت أن تحدث تحولا فى صالح « وايترسايد » ٠ كم نجحت نجاحا تاما وأذناك ذاتهما تستطيعان الآن أن تخبراك » وأدار جواده وانطلق بعيدا فى صلابة ٠

أما وقد طلب من الكولونيل أن يستمع الى ضوضاء قعقعة اشتباك فى الغابات الى اليسار ، فقد ثار وأخذ يلعن لعنات غامضة ٠

وفجأة تحدث الملازم الذى كان ينصت فى غضب واهن الى اللقاء . تحدث فى نغمات حازمة وباسلة قائلا : « لا تهمنى مكانة الرجل ـ سواء كان قائدا أو أى شىء آخر ـ لو قال ان الأولاد لم يقاتلوا قتالا طيبا هناك فهو أحمق لعين » ٠

فبدأ الكولونيل حديثه في قسوة قائلا : « أيها الملازم ، هـــذا هو شأني أنا وحدى وسأسبب لك المتاعب ... » .

فأومأ الملازم ايماءة تنم عن أدب وقال : « وهو كذلك يا كولونيل ، وهو كذلك . » . وجلس وقد اتخذ هيئة شخص راض عن نفسه .

كان نبأ تعنيف الفرقة قد سرى على طـول الطابور ، وكان الرجال مدهوشين من ذلك لفترة وصاحوا : « يا الهى ! » وهم يتطلعون الى صورة القائد وهى تتلاشى . لقد أدركوا أنها كانت غلطة كبيرة.

ومع ذلك فقد بدءوا يعتقدون في الحـــال بأن جهودهم كانت فى الحقيقة بســـيطة ، وكان فى استطاعة الفتى أن يرى هــذه الادانة تقع على الفرقة بأسرها ، حتى صار الرجال أشبه بحيوانات مصفوعة وملعونة ، بل ومتمردة أيضا .

وذهب الصــــديق ، والأسى فى عينيه ، الى الفتى وقال : « اننى لأعجب ماذا يريد . » واستطرد : « لابد أنه ظن أننا خرجنا الى هناك ولعبنا البلى ! اننى لم أر قط مثل هذا الرجل ! » .

فأبدى الفتى فلسفة هادئة فى هذه اللحظات من القلق ورد قائلا : « آه ، حسن ! » واستطرد : « ربما لم يشهد شيئا منها على الاطلاق وصار مجنــونا كاللهب ، ووصــل الى نتيجة أننا كنا مجموعة من الغنم ، لمجرد أننا لم نفعل ما أراده أن يفعل . وا أسفاه ، لقد قتل بالأمس الجد العجوز هندرسيون ــ لعله علم أننا بذلنا كل ما فى وسعنا وقاتلنا قتالا مجيدا . انه مجرد حظ سيء لنا ، هذا هو كل ما فى الأمر . » .

ورد صديقه : « كان على أن أقول هكذا . » لقد بدا كما لو كان قد جرح جرحا عميقا من هذا الظلم ، واستطرد قائلا : « على أن أقـــول أن حظنا كان سيئا ! ليس هناك مزاح فى القتال من أجل أشخاص ، اذا كان كل شيء تفعله ــ بصرف النظر عن كنهه ــ لا يؤدى على الوجه الأكمل .

عندى فكرة وهى التخلف فى المرة التالية وأدعهم يتخذون هجومهم القديم وأذهب الى الشيطان . » .

وتحدث الفتى مهدئا رفيقه فقال : « حسن ، ان كلانا أدى واجبه على أكمل وجه . أفضل أن أرى الأحمق الذى قال ان كلينا لم يقاتل قتالا مجيدا قدر ما استطعنا ! » .

وأعلن الصديق فى جرأة : « قاتلنا قتالا مجيدا بطبيعة الحال . » واستطرد : « اننى أقطع رقبة ذلك الشخص حتى ولو كانت فى ضخامة الكنيسة . ولكن نحن على ما يرام ، على أية حال ، لأننى سمعت شخصا يقول اننا نحن الاثنين قاتلنا أبسل قتال فى الفرقة وأنهم قد تجادلوا جدلا كبيرا حول هذا الأمر . وكان على شخص آخر أن يصيح بطبيعة الحال ويقول انها أكذوبة ـ لقد شهد كل ما كان يجرى ولم يشهدنا من البداية الى النهاية ، فتصدى له عدد كبير وقالوا انها ليست أكذوبة ـ لقد حاربنا مثل الرعد ، وقد طردونا شر طردة . ولكن هذا مالا أستطيع احتماله ـ هؤلاء الجنود المعمرون وهم يستهزئون ويضحكون ، ثم ذلك القائد ، انه مجنون . » .

وقال الفتى متعجبا فى سخط مفاجىء : « انه أحمق ! انه سيحيلنى مجنونا . أود لو أتى المرة القادمة . سأريه ماذا ... » .

وتوقف لأن عددا كبيرا من الرجال كانوا يسرعون . كانت وجوههم تعبر عن أنهم قد جاءوا بنبأ عظيم .

وصاح واحد فى حماس : « أواه ، يا فليم ، لعلك سمعت ! » .

فقال الفتى : « سمعت ماذا ؟ » .

فكرر الآخر قائلا : « لقد سمعت فعلا ! » وأعد نفسه ليحيطه بالأنباء ، وشكل الآخرون دائرة متحفزة ، واستطرد قائلا : « حسن ، يا سيدى ، التقى الكولونيل بضابطك أمامنا ـ لقد كان ألعن شىء سمعته قط ـ وهو يقول : « آه ! آه ! » ويقول الآخر : « يا سيد هاسبروك ! »

ثم يستطرد : « على فكرة ، من ذلك الفتى الذى كان يحمل العلم ؟ » ويقول الملازم وهو يجيب على الفور : « انه فليمنج ، وهو متطوع » قال هذا على الفور • ماذا ؟ أقول قال هذا وقال : « متطوع » — كانت هذه كلماته • لقد قالها ، أيضا ، أقول قالها • اذا كان فى استطاعتك أن تقص القصة خيرا منى فهيا وقصها • حسن ، اذن ، أصمت • يقول الضابط : « انه متطوع » ويقول الكولونيل : « آه ! آه ! انه فى الحقيقة شخص ممتاز تفخر بأن يكون عندك ، آه ! انه يبقى على العلم فى المقدمة• لقد شاهدته • انه فتى ممتاز•» هذا ما قاله الكولونيل ، ويقول الضابط : « أنت تقامر » واستطرد : « لقد كان هو وفتى يدعى ويلسون فى مقدمة القتال وكانا يصرخان مثل الهنود طوال الوقت • » ويقول : « فى مقدمة القتال طوال الوقت » • ويقول : « فتى يدعى ويلسون » هيا ، يا ولدى ويلسون ، سجل هذا فى خطاب وابعث به الى أمك ، هه ؟ يقول : « فتى يدعى ويلسون » ويقول الكولونيل : « أين هما حقيقة ؟ آه ! آه ! لخاطرى ! » ويجيب : « انهما فى مقدمة الفرقة » ويقول الضابط « لقد كانا » ويقول الكولونيل : « لخاطرى ! » ويقول : حسن . حسن ، حسن • » ويقول « هذان الولدان ؟ » ويقول الملازم : « لقد كانا » ويقول الكولونيل : « حسن ، حسن » ويستطرد : « انهما يستحقان أن يرقيا الى رتبة لواء » ويكرر قوله : « يستحقان أن يرقيا الى رتبة لواء • » •

وقال الفتى وصديقه : « هه ! » « أنت تكذب يا طومسون » « آه ، اذهب الى الجحيم ! » « انه لم يقلها قط » « آه ، يا لها من أكذوبة ! » « هه » ؟ • وعلى الرغم من هذه التهكمات والارتباكات الفتية ، فقد كانا يعلمان أن وجهيهما كانا شديدى الاحتقان من روعة الفرحة ، وتبادلا سرا نظرة فرح وتهنئة •

لقد نسيا بسرعة أمورا كثيرة • لم يحمل الماضى أية صور للخطأ وخيبة الأمل ، وكانا سعيدين سعادة بالغة وكان قلباهما مفعمين بحب المعترف بالجميل للكولونيل وللملازم الشاب •

# الفصل الثاني والعشرون

عندما بدأت الغابات مرة أخرى تلفظ بعيدا مجموعات العدو بزيها الأسود ، أحس الفتى بالثقة الذاتية الهادئة وابتسم باختصار عندما رأى الرجال يروغون وينحنون عند سماع الصرخات الطويلة للقنابل التى كان يقذف بها بكميات هائلة فوقهم • لقد وقف منتصبا وهادئا يراقب الاشتباك مرة أخرى مع جانب من الطابور الذى كان يشكل انحناء أزرق على طـول جانب من التل المتاخم • كانت رؤيته واضحة من دخان بنادق اخوانه ، وكانت أمامه فرص ليشـــهد جوانب من القتال الضارى • كان يستشعر الراحة فى أن يدرك فى النهاية من أين أتى جانب من هذه الضوضاء التى كانت تزأر فى أذنيه •

لقد رأى بعيدا على مدى قصير فرقتين تقاتلان فى معركة منفصلة مع فرقتين أخريين • كانت المعركة فى مســـاحة مكشوفة تتخـــذ مظهر الاستقلالية • كانتا تلتهبان كما لو كانتا فى رهان تتلقيان وتدفعان ضربات عنيفـــة ، وكان التراشق بالنيران قاسيا وسريعا لا يمكن تصــــديقه ومن الواضح أن هاتين الفرقتين المتحمستين تجهلان كل الأغراض الكبرى للحرب ، وكانتا تبطىء احداهما من حركة الأخرى كما لو كانتا فى حفل سباق •

وفى اتجاه آخر رأى لواء ضخما سائرا ، وكان قصده واضحا وهو طرد العـدو من الغابة • لقد ابتعدوا عن مرأى العين ، وفى الحال ، كانت

هنـــاك جلبة توحي بالرهبة الشديدة فى الغابة · لم يكن ممكنا وصف الصوت · وبعد اثارة هذه الضوضاء الضخمة ، وبعد أن تبين بوضـوح أيضا أنها كانت ضخمة جدا ، اذا باللواء ، بعد قليل من الوقت ، وقد جاء يمشي مبتهجا مرة أخرى بتشكيله البديع فى غير ما اضطراب على الاطلاق· لم تكن هناك آثار للسرعة في حركاته · كان اللواء مرحا وبدا يشـير في فخر الى الغابة التى كانت تعج بالصراخ ·

وعلى منحدر الى اليسار كان هناك صف طويل من البنـادق ، فظ مجنون . يتوعد العـدو ، الذى كان أسفل منه عبر الغـابات . يقوم بتشكيلات لهجوم جديد لصراعات مطردة قاسية · وأدى انطلاق النـار الحمراء الدائرية من البنادق ، الى انطلاق وهج قرمزى والى دخان مرتفع سميك · ومن وقت لآخر كان يمكن أن تلمح مجموعات من رجال المدفعية وهم يعملون · وفى مؤخرة هذا الصف من البنـادق كان هناك منزل ساكن . أبيض اللون وسط القنابل المتفجرة ، وكانت مجموعة من الجياد مربوطة في درابزين طويل ، تجذب لجامها في جنون ، والرجال يجرون هنا وهناك ·

دامت المعركة المنفصلة بين الفرق الأربع بعض الوقت · وقد شاءت الظروف ألا يحدث أى تدخل ؛ وسووا نزاعهم فيما بينهم · كانوا يضربون بعضهم بعضـا بقسوة وشـدة لمدة دقائق ، ثم اضطربت الفرق ذات الزى الأزرق الفاتح وانسحبت مخلفة وراءها الفرق ذات الزى الأزرق الداكن وهي تصيح · وكان فى استطاعة الفتى أن يرى العلمين يهتزان من الضحك وسط بقايا الدخان ·

وفى الحال كان هناك سكون له مغزى · كانت الخطوط الزرقاء قد بدلت نوبتها وغيرت قليلا ، وتطلعت قليلا مترقبة الى الغابات والحقول الساكنة أمامها ، وكان السكون مهيبا مثل سكون الكنيسة فيما عدا بطارية بعيدة كانت عاجزة بوضوح عن أن تظل ساكنة ، وكانت تصدر ضوضاء مضطربة خافتة على الأرض · لقـد أثارت سخطا مثل ضوضاء أولاد لا تحركهم

العواطف • لقد تخيل الرجال أنها قد تحول دون سماع آذانهم الجائمة لأول كلمات عن المعركة الجديدة •

وفجأة اذا بالبنادق على المنحدر تزأر ، وبدأ صوت غمغمة فى الغابات • لقد تضخم بسرعة مذهلة الى صخب عميق أغرق الأرض فى ضوضاء • واجتاحت التحطيمات المشققة طول الخطوط حتى تطورت الى ضوضاء لا نهاية لها ؛ وصارت فى نظر أولئك الذين كانوا وسطها ضوضاء تناسب العالم • كان طنينا وطرق آلات ضخمة ، اشتباكات بين النجوم الصغرى ؛ وكانت أذنا الفتى مملوءتين بهذه الأصوات حتى آخرها وكانتا غير قادرتين على أن تسمعا أكثر •

وعلى منحدر يعلوه طريق ملتو ، رأى تدفقا وحشيا يائسا لرجال يندفعون على الدوام الى الخلف والى الأمام فى موجات مشاغبة • كانت هذه الأجزاء المتقابلة للجيوش أشبه بموجتين طويلتين تعصف احداهما بالأخرى فى جنون فى مواقع محددة • وانتفخت الى الأمام والخلف ، وأحيانا قد يعلن جانب بصرخاته وهتافاته صرخات حاسمة ، ولكن بعد ذلك بلحظة اذا بالجانب الآخر وقد صار كله صرخات وهتافات • ومرة شهد الفتى أغصانا من أشكال خفيفة تقفز ككلاب الصيد تجاه الخطوط الزرقاء المتموجة • كان هناك نباح كثير ، وفى الحال ، ذهب مع قلة قليلة جدا من الأسرى • ورأى ثانية موجة زرقاء تندفع بتلك القوة العارمة تجاه سد رمادى حتى بدا أنها تطهر الأرض منه ولا تترك شيئا سوى كلأ داسته الأقدام • وكان الرجال دائما فى تدفقاتهم السريعة المميتة الى الأمام والخلف يضيحون ويصرخون كالمجانين •

كان هناك تشاحن على أجزاء معينة من السياج أو المواقع الآمنة خلف مجموعات الأشجار كما لو كانت عروشا من ذهب أو أسرة من لآلىء• وكل لحظة تقريبا كانت هناك ضربات يائسة حول هذه الأماكن المختارة، وكان معظمها مكوما كالدمى الصغيرة بين القوى المتنافسة ، ولم يكن فى استطاعة الفتى أن يعرف من أعلام المعركة التى تطير كالزبد القرمزى فى اتجاهات عديدة ، أى لون من القماش كانت له الغلبة •

وعندما حل ميقات فرقته الهزيلة ، اذا بها كثيرة الضوضاء من بعيد مع وحشية كاملة · وعندما هوجم الرجال ثانية بالقنابل ، انفجروا فى صيحة بربرية من الغضب والألم · كانوا ينكسون رءوسهم فى أهداف كراهية متعمدة خلف زناد بنادقهم الناتئة ، وأخذت مدكات بنادقهم تقعقع عاليا في غضب بينما كانت أذرعتهم المتحمسة تدق بالطلقات فى مواسير البنادق ، وكانت جبهة الفرقة جدارا من الدخان تخترقه نقط لامعة من اللونين الأصفر والأحمر ·

وبينما كانوا منهمكين في القتال تلطخت وجوههم مرة أخرى بصورة مذهلة فى فترة قصيرة · لقد فاقوا فى تلطخ وجوههم وقذارتها كل مظاهرهم السابقة ؛ وكانوا وهم يتحركون ، جيئة وذهابا فى اجهاد شديد . يتمتمون لحظة ، وكانوا بأجسادهم المتمايلة ووجوههم السوداء وعيونهم البراقة ، كشياطين قبيحة تتحرك مهتزة بثقل فى الدخان ·

ولما عاد الملازم من جولة بعد أن ضمدوه ، أطلق من مكان خفى فى ذهنه أيمانا جديدة هائلة تناسب الطوارىء · لقد أخذ ينهال بسيل من الأيمان كانت كالسياط فوق ظهور رجاله ، وكان واضحا أن جهوده السابقة قد قللت أصلا من حيله ·

ولم يحس الفتى بكسله ، وكان لا يزال يحمل العلم ؛ مستغرقا استغراقا عميقا كمشاهد ، وكان فشل تأثير المسرحية الكبرى قد جعله يميل الى الأمام بعين شاخصة ووجهه يتلوى التواءات بسيطة · وكان يثرثر أحيانا والكلمات تخرج منه لا شعوريا فى تعجبات غريبة الشكل · ولم يكن يعلم أنه كان يتنفس وأن العلم معلق فوقه في سكون، اذ كان مستغرقا في التفكير ·

كان طابور ضخم من العدو قد جاء داخل المرمى الخطر · كان فى الامكان رؤيتهم بوضوح ـ رجال طوال هزيلون ، وجوههم مستفزة يجرون بخطى واسعة تجاه السياج العارى ·

توقف الرجال فجأة عن لعناتهم المطردة عند رؤية هـــذا الخطر . وسادت لحظة من سكون متوتر قبل أن يرفعوا بنادقهم ويطلقوا رصاصا ثقيلا على الأعـــداء . لم تكن قد صدرت لهم أوامر ، ونظرا لمعرفة الرجال للخطر ، أطلقوا سيلا من قنابلهم دون انتظار لكلمة من القيادة .

ولكن العدو كان سريعا فى حماية نفسه بالخط العارى للسياج . لقـــد تدحرجوا خلفه بسرعة عظيمة ، ومن هـــذا الموقع بدءوا بسرعة فى تشريح الرجال الزرق .

وزاد هؤلاء الأخيرون من أنشطتهم لكفاح كبير . وغالبا ما شوهدت أسنان بيضاء ثابتة تلمع من خـــلال وجوه قاتمة . كانت رءوس كثيرة تمـوج جيئـــة وذهابا تطفو فوق نهـر شـاحب من الدخـــان ؛ أما من كانوا خلف السياج فقد كانوا يصيحون باستمرار ويصرخون فى نبـاح تقريع وسخرية ، ولكن الفرقة لزمت صمتا ثقيلا . فى هـــذا الهجوم الجديد ربما يتذكر الرجال حقيقة أنهم كانوا قد أطلق عليهم اسم «حفارى الوحل» ، وكان موقفهم عصيبا ثلاث مرات . لقد كانوا مصممين وهم لاهثون على الحفاظ على الأرض وطرد جماعة العدو المرحة . لقد حاربوا بسرعة وفى وحشية يائسة واضحة فى تعبيراتهم .

وصمم الفتى على ألا يتزحزح مهما حدث . كانت بعض سهام الاحتقار التى كانت قد دفنت نفســـها فى قلبه قد ولدت كراهية غريبة لا يمكن وصفها . كان واضحا أن انتقامه النهائى المطلق يجب أن يحقق بجسده الميت راقدا ممزقا ، ملتهما ، على الميدان ؛ وقد يكون هذا أخذا جادا بالثأر من الضابط الذى قال : « سائقو بغال » وأخيرا « حفارو الوحل » اذ أن كل ما فى ذهنه من مفاهيم طائشة عن فرد مسئول عن معاناته واضطراباته كان ينصب دائما على الرجل الذى أخطـــأ فى تلقيبه . وكانت فكرته غامضة الشكل ، حتى أن جثته قد تكون فى نظر هذه الأعين تعنيفا عظيما وبارعا .

نزفت الفرقة فى اسراف وبدأت تتســاقط مجموعات متبرمة من

الزرق . كان الجاويش المراسلة في فرقة الفتى قد أصيب برصاصة اخترقت وجنتيه ، فأصيبت دعامتها وتدلى فكه الى أسفل فى تباعد ، كاشفا فى التجويف العريض لفمه عن كتلة نابضة من الدم والأسنان ، حاول بها أن يصرخ . وكان هناك انفعال مخيف فى محاولته كما لو أنه أدرك أن صرخة عظيمة كفيلة بأن تجعله على خير حال .

شاهده الفتى وهو يتوجه في الحال الى مؤخرة الجيش . لقد بدت قوته عاجزة أصلا ، وجرى بسرعة متطلعا فى نظرات وحشية بحثا عن مغيث .

وسقط آخرون حول أقدام اخوانهم ، وزحف بعض الجرحى الى الخارج والى مكان قصى ، ولكن ظل كثيرون ساكنين وكانت أجسادهم تتلوى فى أشكال مستحيلة .

وتطلع الفتى مرة لصديقه . لقد شهد شابا متوقدا ، ملطخا بالبارود ، مشعثا عرف أنه هو . ولم يصب الملازم ضرر أيضا في موقعه فى مؤخرة الجيش . لقد استمر يلعن ولكنه صار الآن فى هيئة رجل كان يستخدم ما فى جعبته من أيمان .

أما عن نار الفرقة فقد بدأت فى التناقص والوهن ، وأخذ الصوت القوى ، الذى كان آتيا بشكل غريب من الصفوف النحيلة ، يزداد وهنا فى سرعة .

# الفصل الثالث والعشرون

جاء الكولونيل يجرى قدما خلف الطابور • كان هناك ضباط آخرون يتبعونه ، فصاحوا : « يجب أن نهاجمهم ! » واستطردوا : « يجب أن نهاجمهم ! » صاحوا بأصـوات مستاءة كما لو كانت تتوقع ثورة من جانب الرجال على هذه الخطة •

وعند سماع الفتى لهذه الصيحات بدأ فى دراسة المسافة بينه وبين العدو • لقد حسب حسابات غامضة ، ورأى أنه لكى يكونوا جنودا أقوياء العزيمة يجب أن يتوجهوا الى الأمام • قد يكون الموت فى أن تبقى فى المكان الراهن ، وقد يمجد كثيرون آخرون ، فى كل الحالات التى يتوجه فيها البعض الى الخلف • كان أملهم أن يدفعوا الأعداء المزعجين بعيدا عن السياج •

كان يتوقع أن يدفع باخوانه ، وهم مجهدون ومتصلبون ، الى هذا الهجوم ، ولكنه عندما استدار تجاههم أدرك فى دهشة ما ، أنهم كانوا يعبرون تعبيرات سريعة كاملة عن الموافقة • كان هناك استهلال للقتال فى صورة قعقعة تنذر بالسوء ، بينما كانت أعمدة السونكى تجلجل على مواسـير البنادق • وعند سماع كلمات القيادة المجلجلة نهض الجند الى الأمام فى قفزات حماسية • لم تكن هناك قوة جديدة غير متوقعة فى حركة الفرقة • ونظرا لمعرفة حالتها الضعيفة المنهكة ، بدا القتال كنوبة مرض شديدة ، كعرض للقوة التى تدب قبل الضعف النهائى • وهرب الرجال فى سرعة

جنونية محمومة ، فى سباق كما لو كانوا يحققون نجاحا مفاجئا قبل أن يتخلى عنهم سيل فرحتهم • كان اندفاعا أعمى ويائسا لمجموعة من الرجال ذوى الزى الأزرق البالى المغبر فوق مرج أخضر وتحت سماء زرقاء تجاه سياج غامض الحدود فى الدخان ، ولغطت من خلفها بنادق العدو الوحشية •

أبقى الفتى على العلم البراق فى المقدمة • كان يحرك ذراعه الخالية فى دوائر غاضبة فى الوقت الذى كانت فيه الصيحات الجنونية الصارخة تشجع أولئك الذين لا يحتاجون الى تشجيع ، اذ بدا أن جمهرة الرجال الزرق الذين كانوا يرمون بأنفسهم على المجموعة الخطرة من البنادق اذا بهم مرة أخرى وقد صاروا فجأة متوحشين بحماس الايثار • ومن طلقات النيران العديدة التى بدأت فى اتجاههم ، بدا كما لو أنهم قد ينجحون فقط فى أن ينثروا فى بطولة رائعة جثثا على الكلأ بين موقعهم السابق والسياج• ولكن كان قد استبد بهم الجنون ربما من جراء أباطيل منسية . وكان مظهرا لطيش بالغ • لم يكن هناك استفهام واضح ولا صور ولا رسوم بيانية • كان واضحا أنه لم يكن هناك فى الاعتبار أى مخرج • لقد بدا أن الأجنحة السريعة لرغباتهم ربما حطمت البوابات الحديدية للمستحيل•

وأحس هو نفسه بجنون الروح الجريئة للديانة الهمجية • كان قادرا على تضحيات عميقة ، موت مروع • لم يكن لديه وقت للانتقادات ، ولكنه كان يعلم أنه فكر فى القنابل فقط على أنها أشياء يمكن أن تعوقه عن بلوغ مكان مسعاه • كانت هناك بداخل نفسه شعاعات فرح رقيقة بأن ذهنه يجب أن يكون على هذه الصورة •

وجمع كل قواه ، كان ابصاره مهتزا ومبهورا من توتر الفكر والعضل• لم ير شيئا فيما عدا ضباب الدخان الذى جرحته ألسنة النار البسيطة ولكنه علم أنه كان يقبع فيه السياج القديم لفلاح اختفى ، وكان السياج يحمى الأجساد المستكنة للرجال ذوى الزى الرمادى •

وبينما كان يجرى ومض فى ذهنه خاطر صدمة اللقاء • لقد توقع

اصطداما ضخما عندما تتصادم مجموعتا الفرقتين معا • لقد صار هذا جزءا من معركة جنونه الوحشي • كان في اســـتطاعته أن يحس بتحرك أمامي للفرقة حوله ، وكان على علم بأن ضربة مدوية طاحنة قد تنهك قوى المقاومة وتنشر الفزع والدهشة لأميال • سيكون للفرقة الطائرة تأثـير مباغت ، وقد جعله هـــذا الحلم يجرى أسرع بين اخوانه الذين كانوا ينطلقون بهتافات مبحوحة ومجنونة •

ولكن كان فى استطاعته أن يرى في الحال كثيرا من الرجال ذوى الزى الرمادى لا ينوون أن يتحملوا الضربة • لقد كشف الدخان المتقلب عن رجال يجرون وكانت وجوههم لا تزال تتلفت حولها ؛ وزاد هـؤلاء حتى صاروا حشدا ، وانسحبوا فى اصرار • ومن وقت لآخر كان الأفراد يستديرون ليرموا بقنبلة على الموج الأزرق •

بيد أنه على جانب واحد من الخطر • كانت هناك مجموعة عابسة عنيدة لم تتحرك • لقد استقروا بثبات خلف مواقع وقضـــبان ، وكان يرفرف فوقهم علم مجعد ومفترس ، وكانت بنادقهم تطنطن بقسوة •

ازداد اقتراب الدائرة الزرقاء من الرجـــال حتى بدا فى الحقيقة أنه قد يكون هناك شغب قريب ومخيف • كان هناك خزى عبرت عنه مقاومة المجموعة الصغيرة كما يدل معنى هتافات الرجال الزرق • صارت صرخات سخط : موجهة ، وشخصـــة • كانت صيحات الفرقتين تســمع الآن فى تبادل للسباب المؤذى •

وكشر من كانوا فى الزى الأزرق ، عن أنيـــابهم ، وأخـــذت عيونهم تشع كلها ضـــياء • لقد تقدموا هم أنفسهم كأنهم يتقدمون الى حناجر أولئك الذين وقفوا صامدين • لقد قلت المسافة بينهما الى مسافة لا يعتد بها •

كان الفتى قد ركز نظرة ملكت روحه على ذلك العلم الآخر • قـــد يكون امتـــلاكه فخرا ساميا ، قد يعبر عن امتزاجات دموية أو ضربات

قريبة • كان يكن كراهية شديدة لمن كانوا يثيرون المصاعب والتعقيدات الضخمة وقد جعلوه ككنز أسطورى يلتمسه الناس وهو يعد ضمن الأعمال والاختراعات الخطرة •

واندفع اليه كالجواد المجنـــون • كان مصمما على ألا يفلت منه حتى لو كانت الضربات الهائجة وجرأة الضربات ستمسك بتلابيبه • كان رمزه هو نفسه يرتعد ويخفق ، وكان يطير تجاه الآخر • لقد بدا أنه سيكون هنـاك لقاء قريب لمناقير ومخالب غريبة ، كمـا لو أنها مناقير ومخالب نسور •

كانت جماعة الرجال الزرق التى كانت تدور فى دوامة قد توقفت فجأة على مدى قريب وخطير ، وزأروا بطلقات رصاص سريعة • ومزقت هذه النيران المجموعة الرمادية وكسرتها ، ولكن وسطها المحير كان لايزال يحارب ، وصرخ الرجال الزرق مرة أخرى واندفعوا اليها •

رأى الفتى فى قفزاته كما لو أنه يرى خلال ضباب ، صورة أربعة أو خمسة رجال ممددين على الأرض يتلوون على ركبهم ، برءوس منكسة كأنما سقطت عليهم صواعق من الســـماء • كان يهتز بينهم حامل العلم المنافس ، الذى شـــهد الفتى كيف كان يضرب بشدة بقنابل هائلة من أحـدث أنواع الرصاص • لقد أدرك أن هذا الرجل كان يناضل النضال الأخير • كانت معركة مروعة • وعلى وجهـه شحوب الموت ، ولكن كانت قد رسمت عليه خطوط سـوداء جامدة لهـــدف لا جـدوى منه • ومع هذا التجهم الهائل بما فيه من اصرار ، ضم علمه الغالى اليه وهـو يتعثر ويترنح فى تصميمه ليسلك السبيل الذى أدى الى سلامته •

ولـــكن جراحه جعلته دائمـــا يتخيل أن قدميه كانتـــا معوقتين وممسكوتين ، وحارب حربا بشعة كما لو كان يحارب غيلانا خفية قـد أمسكت بأعضائه فى شراهة • وكان من يتقدمون الرجال الزرق الهاربين يصيحون فى هتافات ، وقفزوا على السياج • كانت فى عينيه خيبة أمل مفقود ، وهو يتطلع وراءه اليهم •

وتخطى صديق الفتى بعناية العائق فى صورة كوم متهدم وانقض على العلم كما ينقض نمر أرقط على فريسته ، وجذبه وخلصه وحرك قماشه الأحمر الزاهى فى صيحة اعتزاز جنونية حتى أن حامل العلم بينما كان يلهث ويترنح فى آخر غصة ، ثم تجمد فى تشنج ، أدار وجهه الميت الى الأرض ، كان هناك دم غزير على أوراق الكلأ ٠

بدأ المزيد من هتافات صاخبة هائجة عند مكان النصر ، كان الرجال يومئون ويصيحون فى طرب ٠ وعندما كانوا يتحدثون كانوا كما لو كان مستمعوهم على بعد ميل ، وكل ما تخلف لهم من قبعات وقلنسوات غالبا ما كانوا يقذفون بها عاليا فى الهواء ٠

وفى جانب من الطابور تم القبض على أربعة رجال ، وجلسوا الآن كأسرى ٠ كان حولهم بعض الرجال الزرق فى دائرة تنم عن شوق وفضول٠ لقد اصطاد الجند طيورا غريبة ، وكانت هناك تحريات ، وتعددت أسئلة سريعة متخبطة ٠

كان أحد الأسرى يضمد جرحا سطحيا فى قدمه ، لقد احتضنها كما لو كانت طفلا ، ولكنه غالبا ما كان يرفع ناظريه عنها ليعلن علانية فى استهتار تام مذهل رغم أنف آسريه ٠ لقد أحاطهم علما بمناطق القتال ، واستنجد بالآلهة الغريبة لتصب جام غضبها ٠ ومع كل هذا كان متحررا بشكل غريب من مراعاة أدق نقاط وسلوك أسرى الحرب ٠ لقد كان عنده بمثابة قطعة طين خرقاء قد داست على أصبع قدمه ، وكان يدرك أن من حقه وواجبه أن يستخدم أنكر الأيمان وأعمقها أثرا ٠

وآخر ، كان فتى متقدما فى السن ، تقبل وضعه فى هدوء تام وطبيعة طيبة بشكل واضح٠ كان يتحدث مع الرجال الزرق ، يتفحص وجوههم بعينيه البراقتين الحادتين ٠ لقد تحدثوا عن المعركة والظروف٠ كان هناك اهتمام شديد على كل وجوههم أثناء هذا التبادل لوجهات النظر٠ لقد بدا أن هناك رضا كبيرا لسماع أصوات من مكان كان كله ظلمة وفيه ما يوحى بالتأمل ٠

وجلس الأسير الثالث وملامحه مكتئبة · كان يحتفظ بهيئة رابطة الجاش رزينة ، ولم يجب عن كل عـــروض الصداقة الا باجابة واحدة لا تتبدل : « آه ، اذهبوا الى الجحيم ! » ·

وكان آخر الأربعـة صامتا دائما ، يبقى على وجهــه ، فى غالبية الوقت ، متلفتا فى اتجاهات لاتبعث على الضيق · ومن المشاهد التى شاهدها الفتى بدا أنه فى حالة من الكآبة المطلقة · لقد حل به الحزن مصــحوبا بأسف عميق لأنه ، ربما ، لم يعد يحسب فى مســتوى أقرانه · لم يكن فى استطاعة الفتى أن يكتشف أى تعبير يمكن أن يتيح له الاعتقاد بأن الآخر كان يفكر فى مستقبله الضيق ، ربما السجون المصورة ، والموت من الجوع والمعاملات الوحشية التى يمكن تخيلها · ان كل ما يمكن رؤيته هو الحزن للأسرى والأسف على حق المقاومة ·

بعد أن احتفــل الرجال بما فيه الكفاية ، اســتقروا جلوسا خلف قضيب السياج القديم على الجانب المقابل للجانب الآخر الذى انسحب منه أعداؤهم ، وأطلق قلة الرصاص بدون اكتراث على علامات بعيدة ·

كان هناك بعض الكلأ الطويل ، فاستقر فيه الفتى واستراح واتخذ من قضيب مناسب دعامة للعلم ، وجاء صديقه ، متهللا شامخا ، ممسكا بكنزه فى خيلاء ، جاء اليه هناك · لقد جلسا جنبا الى جنب وأخذ يهنىء أحدهما الآخر ·

# الفصل الرابع والعشرون

كان الزئير الذى امتد فى خط صوتى طويل عبر سطح الغابة ، قد بدأ يزداد فتـورا وضعفا ، واستمرت أحاديث المدفعيـة الجهورية فى بعض لقاءات بعيدة ، ولكن كانت أصوات تكسرات نيران البنادق قد أوشكت أن تتوقف ٠ وصعد الفتى وصديقه نظرهما ، وقد أحسا بصورة مميتة من القلق عند تناقص هـذه الضوضاء التى كانت قد صارت جزءا من الحياة ٠ كان فى استطاعتهما أن يشهدا تغييرات تجرى وسط الفرق ٠ كانت هنـاك مسيرات هذه الناحية وتلك ٠ واستدارت بطارية وسارت على مهل ، وكان على قمة تل صغير وميض كثيف لعدد كبير من البنادق الراحلة ٠

ونهض الفتى وقال : « حسن ، اننى لأعجب ، ماذا الآن ؟ » لقد بدا من نغمته أنه كان يستعد لاستنكار بعض البشاعات الجـديدة الممثلة فى الضوضاء والدمار ، وظلل عينيه بيده القذرة والقى بنظرة على الميدان ٠

ونهض صديقه أيضا وحملق قائلا : « أقامر أننا سنسير خارجين من هنا ونقفل راجعين فوق النهر ٠ » ٠

وقال الفتى : « حسن ، أنا بجعة ! » ٠

وانتظرا وهما يراقبان ، وفى خلال فترة قصيرة تلقت الفرقة اوامر باقتفاء طـريقها ، فنهض الرجال غاضـبين من الكلأ آسـفين على الراحة

اليسيرة · وحركوا أرجلهم المتصلبة ، ومددوا أذرعهم فوق رءوسهم ، وأقسم رجل وهو يفرك عينيه ، وزمجروا جميعهم قائلين : « يا الهى ! » وكانت لهم اعتراضات عديدة على هذا التغيير كما لو كانوا يعترضون على اقتراح لمعركة جديدة ·

ومشوا عائدين فى بطء فوق الميدان الذى كان عليهم أن يجروا عبره فى هروب جنونى ·

وعاد السياج المهجور ، يتخذ بمواقفه المائلة وقضبانه المنزوعة ، طابع الفساد الريفى الهادى ، وفيما وراءه رقدت ممددة قلة من الجثث ، كم كان واضحا ذلك الجسد الملتوى لحامل العلم ذى الزى الرمادى الذى كان يحمل علمه الآن صديق الفتى ·

سارت الفرقة حتى انضمت الى اخوانها ، وانتظم اللواء الذى أصلح من شأنه فى طابور وسار عبر غابة ، وجهته الطريق العام · وصاروا ، مباشرة فى كتلة من الفرق التى غطاها التراب ، وكانوا يمشون قدما بعناء فى طريق مواز لخطوط العدو نظرا لأن هذه سبق أن حددتها الضوضاء السابقة ·

ومروا بمشهد منزل أبيض ثابت شهدوا فى مقدمته مجموعات من اخوانهم راقدين منتظرين خلف متراس أنيق · كان صف من البنادق مندفعا الى عدو بعيد ، وكانت القنابل المقذوفة ردا على ذلك تثير سحبا من التراب والشظايا ، واندفع الخيالة على طول خط الخنادق ·

وبينما كانوا يمرون قرب القيادات الأخرى ، اذا برجال من الفرقة المقوضة يستولون على العلم المأسور من ويلسون ، ويقذفون به عاليا فى الهواء ويهتفون هتافات مدوية وهو ينقلب فى تردد واضح ، وينقلب وينقلب فى بطء ·

عند هذه النقطة من سير الفرقة انعطفت الفرقة بعيدا عن الميدان وأخذت تنعطف بعيدا فى اتجاه النهر · ولما كان معنى هذه الحركة قد

أثر هو نفسه فى الفتى ، لذا فقد أدار رأسه وتطلع من فوق كتفه تجاه الأرض التى داستها الأقدام وتبعثرت عليها الانقاض ، وتنفس تنفسا ينم عن رضا جديد ، ولكز صديقه أخيرا وقال له : «حسن ، لقد انتهى كل شيء»

وحملق صديقه الى الخلف وقال مؤيدا : « يا الهى ، انه لكذلك » وفكرا ·

كان الفتى مضطرا لأن يفكر ، لفترة ، فى أسلوب مضطرب متردد· كان ذهنه يمر بتغيير غير واضح · لقد استغرق دقائق ليتخلى عن أساليبه الحربية ويستأنف طريقه المعتاد فى التفكير · وبالتدريج انبثق ذهنه من السحب المعوقة وتمكن فى النهاية من أن يكون أكثر ادراكا لنفسه وللظروف ·

ثم أدرك بعد ذلك أن الطلق النارى والطلق النارى المضاد كان لهما وجود فى الماضى · لقد عاش فى أرض مرتفعات تجتاحها عواصف غريبة، وقد تركها · وكان يرى دما أحمر وتتملكه عاطفة مكتئبة ، ثم هرب · كانت خواطره الاولى متجهة الى الابتهاجات بهذه الحقيقة ·

وأخيرا بدأ فى دراسة أفعاله ، فشله وانجازاته · ومن ثم ، فانه ما كاد يخرج من المشاهد التى كان فيها الكثير من أدوات تفكيره المعتادة خاملة ، والتى كان يتحرك فيها كالاغنام ، حتى كافح لينظم كل أفعاله ·

وأخيرا مرت أمامه فى وضوح · وكان فى استطاعته من وجهة النظر الراهنة هذه أن ينظر اليها نظرة المشاهد وأن ينتقدها انتقادا فيه جانب من الصحة ، لان ظرفه الجديد قد قهر بالفعل أحاسيس معينة ·

وبدا صديقه منهمكا أيضا فى جانب من التفكير فى الماضى لأنه أومأ فجأة وقال : « يا الهى ! »

- وتساءل الفتى : « ماذا ؟ »

فكر صديقه : « يا الهي! أنت تعرف جيمي روجرز ؟ حسن ، انه ـ ويحك ، عندما أصيب ، انطلقت لآتي له ببعض الماء ، وعجبا ، لم أره منذ ذلك الوقت حتى هذه اللحظة ، لقد نسيت تماما ما أنا ـ أقول ، هل رأى أحد جيمي روجرز ؟ »

فقالوا له : « رأيناه ؟ كلا ! لقد مات • » •

وأقسم صديقه •

ولكن الفتى أحس ، وهو يراقب موكب ذكرياته ، بالطرب ، وعدم الندم اذ أنه استعرض فيها أعماله بوجه عام في جلاء تام ناصع • لقد مرت الآن تلك الانجازات التى شهدها اخوانه ، لون قرمزى وذهبى عريض ، وكانت تتسم بمختلف الانحرافات • لقد مرت مرحة مصحوبة بموسيقى • وكانت هناك متعة في مشاهدة هذه الاشياء • لقد أنفق دقائق سعيدة يشاهد صور ذكرياته الذهبية •

لقد رأى أنه كان على خير حال ، وتذكر برجفة فرح تعليقات اخوانه، التى تنم عن احترام سلوكه • قال لنفسه مرة أخرى عبارة الملازم المجنون : « لو كان عندى عشرة آلاف قطة متوحشة مثلك ، لاستطعت أن أمزق معدة هذه الحرب في أقل من أسبوع » لقد كان تتويجا بسيطا له •

وعلى الرغم من ذلك فقد بدا له شبح الهروب من أول اشتباك ، ورقص • كانت أصداء معركته الرهيبة مع القوى المنظمة للكون قد بلغت أذنيه • كانت هناك صرخات بسيطة في ذهنه عن هذه الأمور • وللحظة احتقن وجهه وأخذ ضياء روحه يخفق بالخزى •

ومع ذلك فقد وجد على الفور تفسيرا وتبريرا • لقد قال ان تلك اللحظات العاصفة كانت لحظات أخطاء متهورة وحب وهمي لشخص حديث التجربة لم يكن على جانب من الادراك • لقد كان مجرد شخص يلوم ظرفا ، ولكنه الآن خارجه وكان في استطاعته أن يرى أنه كان مناسبا تماما ومشروعا • لقد كان من الضرورى له أن يبتلع السيوف حتى يكون

له حلق صالح لأكل الكرم · كان القدر ، فى الحقيقة ، شفوقا عليه · لقد طعنه بغرض جميد وضربه بالعصا بقوة لصالحه · كان فى ثورته مريعا جدا ، بلا شك ، ومخلصا وقلقا على الانسانية ، ولكنه الآن ، وقد صار فى أمان ، غير هياب ولا وجل ، قد اتضح له فجأة أنه كان مخطئا فى أنه لم يتقبل الطعنة ، ولم ينحن للعصا · لقد تلوى فى حماقة ·

ولكن السماء قد تنسى · حقيقة أن السماء ، كما صرح ، كان من عادتها أن تسلط الشيطان على أشخاص رفضوا أن يثقوا بما لا يمكن أن يثقوا فيه ، ولكنه ظن أن النجوم ربما تصرفت تصرفا مختلفا ؛ فالشمس الهادئة تلقى بأشعتها على المسىء والمتعبد ·

وبينما كان فليمنج يتآخى مرة أخرى ، هكذا ، مع الطبيعة ، كان طيف تعنيف يحل به · هناك لاحت الذكرى العنيدة للجندى المهلهل الثياب ، انه هو الذى جرحته القنابل وأغمى عليه من الدم واضطرب لجرح خيالى الم به ، انه هو الذى أعار ما تبقى من قوته وادراكه للجندى المديد القامة، انه هو الذى كان قد أعماه الاجهاد والنصب ، قد ترك وحده فى الميدان·

وللحظة تملكته قشـــعريرة حزينة من العرق عنـــدما فكر أنه قد يكتشف أمره · وبينما كان يقف باصرار أمام رؤياه ، أطلق صرخة تنم عن انفعال وكرب ·

واستدار صاحبه وتســاءل : « ما الخطب يا هنرى ؟ » وكان جواب الفتى أن انفجر فى أيمان تبعث على الخجل ·

وبينما كان يسير بين أقرانه الثرثارين على طول الطريق القصير ذى الأغصان المتدلية ، كان هذا المشهد الذى ينم عن الوحشية قد ملك عليه تفكيره ، وكان دائما لاصقا بجواره يسود نظرته فى هذه الاعمال الكف· الباهرة ، وحيثما اتجهت أفكاره كان يعقبها طيف كئيب عن الهروب فى الميادين · تطلع فى تلصص الى اخوانه وكله ثقة فى أنهم لابد أنهم أبصروا فى وجهه دلالات على هذا التعقب ، ولكنهم كانوا يتهادون فى مشيتهم بملابسهم الرثة يناقشون بالسنة سريعة ما تم فى المعركة الأخيرة ·

« آه ، لو أن انسانا جاء وسألني لقلت له اننـــا قد تلقينـــا ضربة لعينة • » •

« ضربة — في عينك ! اننا لم نتلق ضربة يا ولد • اننا ننزل دائما هنا ونلف حوالينا ثم نأتى من خلفهم • » •

« آه ، لا تتحدث عن قدومك من خلفهم • لقد شهدت كل شيء وهذا ما أريده • لا تخبرني عن الاستدارة من خلف ••• » •

« يقول «بيل سميذرز» انه يفضل أن يشترك فى ألف معركة على أن يبقى فى تلك المستشفى اللعينة ويقول انهم كانوا يطلقـــون الرصاص بالليل وكانت القنابل تســقط مدوية بينهم فى المستشفى ؛ ويقـول انه لم يشهد مثل هذه الصرخات • » •

« هاسبروك ؟ انه أحسن ضابط فى هذه الفرقة هنا•انه حوت•» •

« ألم أقل لكم اننـــا استدرنا حتى صرنا خلفهم ؟ ألم أقل ذلك ؟ نحن ••• » •

« آه ، اصمت ! »

« انك تضايقنى » •

« عد لدارك أيها الأحمق » •

كانت هذه الذكرى التى تلاحقه للرجل المهلهل الثياب ، تجرد مزاج الفتى من كل زهو — لفترة • لقـد رأى خطأه الجسيم ، وكان يخشى أن يشخص أمامه طوال حياته • لم يأخذ بنصيب فى تجاذب الحـــديث مع اخـوانه ، ولم يتطلع اليهم ولا عرفهم الا حينما أحس بتشـكك مفاجىء فى أنهم كانوا يشهدون أفكاره ويتفحصون كل تفاصيل المشهد مع الجندى المهلهل الثياب •

ومع ذلك فقد جمع قوته تدريجيا ليبعد الخطيئة • ثم تطلع اليهـا بما كان يظن أنه هدوء تام ، وخلص أخيرا الى أنه شهد فيها فوائد نادرة•

لقد صاح بأن أهميتها فى المستقبل قد تكون كبيرة بالنسـبة له لو أنها نجحت حتى فى اعاقة أعمال أنانيته . قـد تؤدى الى توازن رزين ، قد تصبح جزءا صالحا منه ؛ وغالبا ما تملـكه ادراك بخطأ كبير ، وقد يتعـلم ليتصرف برقة وعناية ، اذ سيصبح رجلا .

هذه الخطة من الانتفاع من الخطيئة لم تتح له فرحة كاملة ولكنها كانت أحسن رأى يمكن أن يكونه فى ظل هذه الظروف ، ولما كان مرتبطا بنجاحه أو بالأعمـال العـامة ، فقد أدرك أنه كان فى رضا تام . وأخيرا بدت عيناه وقد تفتحتا على بعض الاساليب الجديدة . لقـد اكتشف أنه يستطيع تذكر العبارات الطنـانة والوقحة فى كتبه الاولى ويراها رأى العين . كان مبتهجا عندما اكتشف أنه يحتقرها الآن .

لقد خرج من معاركه بعطف شديد على ميكانيكية الكون ؛ وبعينيه الجديدتين كان فى استطاعته أن يرى أن الضربات الخفية والواضحة التى حلت بالعالم بمثل هذا الاسراف ، انما كانت فى الحقيقة بركات . لقد كانت الها يتعقبه فى حماس ليقوم من شأنه .

وفقد الجعجعة ازاء هذه الأمور عندما توقفت العاصفة . لم يعـد يقف على أماكن عالية وزائفة ، ويتوعد الأجرام البعيدة . لقد شـهد أنه كان ضئيلا ولم يكن شيئا يعتد به بالنسبة للشمس ؛ ولكن فى دوامة الحوادث التى تبلغ الفضاء فى مداها ، لا يمكن أن تضيع خردلة مثله .

بهذا الاعتقاد حل به قدر من الثقة . لقـد أحس برجولة هادئة ، ولكنها غير حقيقية ، بيد أنها من قوام متين وقوى . لقد عرف أنه لن يعود واهنا أمام مرشديه حيثما يشيرون . كان عليه أن يذوق الموت الاكبر ، ووجد أنه ، على أية حال ، لم يكن سوى الموت الأكبر وكان كذلك بالنسبة للآخرين . لقد كان رجلا .

ومن ثم فقـد حدث أنه بينما كان يمشى بتـؤدة من مكان الدم والغضب ، اذ تبدلت روحه . لقد انتقل فى هدوء من أسلحة المحاريث الى

مناظر البرسيم ، وكان أسلحة المحـاريث السـاخنة لم تكن · وذبلت الندبات كما ذبلت الازهار ·

وأمطرت السماء ، وصار موكب الجند المنهوكي القوى كقطار قذر؛ كانوا خائري العزيمة يسيرون في جهد مضن في حوض وحل سائل بني اللون تحت سماء منخفضة بائسة ، ومع ذلك ابتسم الفتى لأنه رأى أن العالم كان عالما خاصا به رغم أن الكثيرين قد اكتشفوا أنه قائم على أيمان وعكازات · لقـد خلص نفسه من مرض المعركة الاحمر · كان الكابوس العنيف في خبر كان · لقد كان حيوانا كريها يتضـح بالعرق في الحر ويحس بألم الحرب · وتلفت الآن في تعطش المتيم الى صـور السموات الهادئة والمروج النضرة والجداول الباردة ـ مظاهر وجود السلام الرقيق الدائم ·

وفوق النهر مر شعاع ذهبي من أشعة الشمس خلال كثير من سحب المطر القاتمة ·

# الوْجــه المقلوبُ

قال الملازم فى اضطراب وثورة : « ماذا سنفعل الآن ؟ » ٠

فرد عليه « تيموثى لين » : « ندفنه » ٠

وصوب الضابطان نظرهما الى أسفل بالقرب من أصابع قدمى الجثة حيث رقد جسد زميلهما ٠ كان وجهه طباشيرى اللون مشوبا بزرقة ، وعيناه اللامعتان تحملقان فى السماء ؛ وصوت القنابل العاصف يظلل الشكلين المنتصبين ، وعلى قمة التل كانت فرقة «لين» المنهوكة القوى والتابعة لمدفعية « سبيتز بيرجن » تطلق طلقات منتظمة ٠

وبدأ الملازم حديثه فقال : « ألا تظن أن من الخير ٠٠٠ » واستطرد : « أن نتركه حتى الغد ؟ » ٠

فقال لين : « كلا » ثم استطرد « اننى لا أستطيع البقـاء فى ذلك المكان أكثر من سـاعة ٠ اذ على أن أعود ، وعلينا أن ندفن « بيـل » صديقنا العزيز ٠ » ٠

فقال الملازم على الفور : « طبعا » واستطرد : « هل عند رجالك أدوات حفر الخنادق ؟ » ٠

صاح لين على طابوره الصغير فقدم رجلان فى بطء ، واحد يحمل معولا والآخر جاروفا ٠ وحملق الجميع فى اتجاه نشانجية « روستينا » ٠ كان الرصاص ينفجر بالقرب من آذانهم ، وقال لين فى خشونة : « احفر

هنا » واذا بالرجلين ، وقد اضطرا هكذا لأن يخفضا ناظريهما الى التربة المكسوة بالخضرة ، يسرعان وهما وجلان لا لشيء سوى أنهما لا يستطيعان أن ينظرا ليريا من أين كان يأتى الرصاص · كان الطرق الأصم للمعول وهو يضرب الأرض يصدر صوتا وسط القصف السريع للرصاص القريب ، وفى الحال بدأ النفر الآخر يستخدم الجاروف ·

وقال الملازم فى بطء : « أعتقد » ثم استطرد : « أن من الأفضل لنا أن نبحث فى ملابسه عن ـ أشياء · » ·

وأومأ لين وتطلعا معا فى شرود فكرى غريب الى الجسد · ثم هز « لين » كتفيه فجأة ، موقظا نفسه :

قال : « نعم » واستطرد : « من الأفضل أن نرى ما معه · » وركع على ركبتيه واقتربت يداه من جسد الضابط الميت ، ولكنهما اهتزتا فوق أزرار السترة · كان الزرار الأول أحمر قانيا من الدم الذى جف ، ويبدو أنه لم يجرؤ على أن يلمسه ·

وقال الملازم فى صوت أجش : « هيا » ·

ومد « لين » يده التى تخشبت ، وتحسست أصابعه الأزرار الملطخة بالدم ، وأخيرا نهض بوجه شاحب وقد جمع ساعة وصفارة وغليونا وكيس تبغ ومنديلا وحافظة صغيرة للبطاقات والورق ، وتطلع الى الملازم ، وران سكون · كان الملازم يحس بأنه كان جبانا ليدفع بـ « لين » ليقوم بكل العمل البشع ·

وقال لين : « حسن » واستطرد : « هذا هو كل شيء على ما أعتقد · معك سيفه وغدارته ؟ » ·

وأجاب الملازم : « نعم » وكان وجهه مليئا بالانفعالات ثم انفجر فجأة فى غضب غريب فى النفرين العسكريين ، قائلا : « لماذا لا تسرعا فى اعداد تلك المقبرة ؟ ماذا تفعلان على أية حال ؟ أسرعا ، ألا تسمعان ؟ لم أر أحدا قط فى مثل حماقتكما ··· » ·

وحتى وهو يصيح غاضبا كان الرجلان يعملان من أجل حياتهما ؛ اذ كان الرصاص يتساقط دائما فوق رءوسهما ٠

وانتهى اعداد المقبرة ، لم يكن عملا فريدا ـ لقد كانت حفرة بسيطة ضحلة سقيمة ٠ ومرة أخرى تطلع لين والملازم أحدهما الى الآخر فى نظرة صامتة غريبة الشكل ٠

وفجأة ضحك الملازم ضحكة غريبة ، كانت ضحكة مروعة منشوهة فى ذلك الجزء من الذهن الذى يتأثر أول ما يتأثر بغناء الأعصاب ٠ وقال ل « لين » مازحا : « حسن ، أعتقد أن من الأفضل أن نواريه التراب ٠ » ٠

فقال لين : « نعم » ووقف النفران العسكريان منتظرين وهما مائلان على أدواتهما ، وقال لين : « أعتقد أنه قد يكون من الخـير لو واريناه التراب نحن أنفسنا ٠ » ٠

وقال الملازم : « نعم » ثم يبـــدو أنه لمـا تذكر أنه طلب من لين أن يفتش الجثة ، انحنى بثبات تام وأمسك بملابس الضـــابط الميت ٠ وانضم اليه لين ٠ كان كلاهما حريصا على ألا تلمس أصابعهما الجثة ، وجذبوها بعيدا ، ورفعت الجثة وصعدت ثم أسقطت ورميت فى المقبرة ،

ولما انتصب الضابطان تطلعا مرة أخرى الى بعضهما البعض ـ كانا دائمة يتطلعان كل منهما للآخر ٠ وتنهدا فى ارتياح ٠

وقال الملازم : « أعتقد أننا يجب ـ أننا يجب أن نقول شيئا ٠ هل تعرف الصلاة يا « تيم » ؟ » ٠

فقال لين ضاغطا شفتيه فى تعبير أكاديمى : « انهم لا يقرءون صلاة الموتى حتى تغلق المقبرة ؟ » ٠

وقال الضابط وقد صدمه ما اقترفه من خطأ : « ألا يقرءون ؟ » وصاح فجأة : آه ، حسن ٠ » واستطرد : « دعنا ـ دعنا نقل شيئا ـ فى حين يستطيع أن يسمعنا ٠ » ٠

وقال لين : « وهو كذلك » واستطرد : « هل تعرف الصلاة ؟ » .

وقال الضابط : « انني لا أستطيع أن أتذكر سطرا واحدا منها . » .

وكان لين متشككا تماما وقال : « انني أستطيع ترديد سطرين ، ولكن ... » .

فقال الضابط : « حسن ، أد الصلاة . » واستطرد : « أدها الى أقصى ما تستطيع . هذا أفضل من لا شيء . لقد بلغت الحيوانات مدانا تماما . » .

وتطلع لين الى الرجلين وقال وهو يصيح : « انتباه » . وقف النفران العسكريان ووقفا فى وضع انتباه بفرقعة ، وقد بدا عليهما الحزن الشديد ونزع الضابط خوذته وخفضها حتى ركبته ، ووقف لين حاسر الرأس ، على المقبرة . وبسرعة أطلق نشانجية « روستينا » النيران .

« يا الهى ، لقد تردى صديقنا فى مياه الموت السحيقة ، ولكن صعدت روحه اليك كما تصعد الفقاعات من شفتى الغريق . انظر اليه ، اننا نتضرع اليك ، يا الهى ... » .

وعلى الرغم من أن « لين » كان أجش الصوت يتملكه الخجل ، لم يعان أى تردد حتى هذه النقطة ، ولكنه توقف وقد تملكه احساس ميئوس منه وتطلع الى الجثة .

وتحرك الضابط فى اضطراب وبدأ يقول : « ومن عليائك ... » ثم توقف ثانية .

وقال لين : « ومن عليائك . » .

وفجاة تذكر الضابط عبارة فى آخر صلاة الدفن فى « سبتيز برجن » واستغلها بأسلوب انتصارى لرجل قد تذكر كل شيء ويستطيع أن يستمر .

« يا الهى ، اسبغ رحمتك ... » .

وقال لين : « يا الهى ، اسبغ رحمتك ... » .

وكرر الضابط « الرحمة » كررها فى خفوت .

وقال لين : « الرحمة » ثم تأثر بنوع من الشعور العنيف ، لأنه تلفت الى نفريه وقال كما لو كان نمرا : « هيلا التراب » .

وكانت نيران بنادق نشانجية روستينا حادة ومستمرة .

وتقدم واحد من النفرين العسكريين الحزينين الى الأمام بمجرافه ، ورفع أول حمولة للمجراف من التراب، وبعد لحظة من التردد الذى لا يمكن تفسيره ، هيلت فى اتزان فوق هذه الجثة التى كان يتطلع منها وجهها الطباشيرى المشوب بالزرقة ، يتطلع فى صرامة من المقبرة . ثم أفرغ الجندى مجرافه على القدمين .

أحس « تيموثى لين » كمـا لو أن أطنانا رفعت بسرعة من فوق جبينه . لقد خشى أن يكون النفر العسكرى قد أفرغ الحمولة فوق الوجه ، ولكنه أفرغ على القدمين . لقد حققا قدرا عظيما من مأربهما : افراغ أول حمولة كاملة للمجراف على القدمين ــ يا له من شىء مرض !

وبدأ الضابط يهذى : « حسن ، لا شك أننا قد فقدنا شخصا كان رجلا طوال هذه السنين ــ مستحيل أن تترك أصدقاءك الحميمين يتعفنون فى الميدان ، استمر ، لوجه الله ، واجرف ، أنت . » .

وفجأة انحنى الرجل ذو الجاروف وأمسك ذراعه اليسرى بيده اليمنى وتطلع الى الضابط فى انتظار الأوامر. التقط «لين» الجاروف من الأرض وقال للرجل الجريح : « اذهب الى مؤخرة الجيش . » ووجه خطابه أيضا الى النفر الآخر وقال : « ارجع متخفيا أيضا ، سأنهى هذا الأمر . » .

كان الرجل الجريح لا يزال يزحف بصعوبة دون أن يوجه أية نظرات الى الاتجاه الذى كانت تأتى منه طلقات الرصاص ، واتبعه الرجل الآخر

على خطـوة متسـاوية ، ولكن على عكســه ، كان يتطلع خلفه فى قلق ، ثلاث مرات ٠

كان هذا فى الغالب هو السبيل الوحيد ـ للاصابة وعدم الاصابة ٠

ملأ « تيموثى لين » الجاروف وتردد ، ثم ، فى حركة أشبه بحركة كراهية ألقى بالتراب الى المقبرة ، وبينما كان يهيله كان يحدث صوتا ـ بلوب ٠ توقف «لين» فجأة وجفف حاجبيه ـ كان كعامل مجهد ٠

وقال الضابط : « ربما كنا مخطئين » وكانت نظرته فيها تردد أخرق ، واستطرد : « قد يكون من الأفضل لو أننا لم ندفنه فى هـذا الوقت بالذات ٠ لا شك أننـا لو قمنا بذلك فى الغـد فلربما كانت الجثة ٠٠٠ » ٠

وقال لين : «لعنة الله عليك» واستطرد : : «اصمت» ٠ لم يكن الملازم الأول ٠

ومرة أخرى ملأ الجاروف وهال التراب ، وكان التراب دائما يحدث ذلك الصوت ـ بلوب ٠ وأخذ «لين» يعمل فترة كالمجنون ، كرجل يخلص نفسه من الخطر ٠

وبعد ذلك لم يكن هناك من شىء يرى سـوى الوجه الطباشـيرى المشوب بالزرقة ٠ وملأ لين الجاروف وصاح فى الضابط : « يا الهى » واستطرد : « لمـاذا لا تقلبه بصـــورة ما عنـدما تدفنه ؟ ٠٠٠٠ » ثم بدأ لين يتهته ٠

وأدرك الضابط واكتسبت شفتاه لونا شاحبا وصاح فى تضرع يكاد يكون صراخا : « استمر يا رجل ٠ » ٠

حرك لين الجاروف الى الخلف فاتجه الجاروف الى الأمام فى تقوس كرقاص ساعة ، فلما استقر التراب على الأرض أحدث صوتا ـ بلوب ٠

# القارب المكشوف

(هي قصة مستوحاة من الواقع ، فهي عبارة عن تجربة خاضها أربعة رجال جنحت بهم السفينة البخارية «كومودور» )

# ١

لم يعرف أحد منهم لون السماء · كانت عيونهم تلمح الأفق وهى مثبتة على الأمواج المنـدفعة تجاههم ، وكان لون هـذه الأمواج اردوازيا فيما عدا قممها كانت ذات زبد أبيض ، وكان كل الرجال يعرفون ألوان البحر · أخذ الأفق يضيق ويتسع وينغمس ويصعد ، وفى كل حين كانت حافته مسننة بأمواج تبدو مشققة فى نقط كالصخور ·

كم من رجل يجب أن يكون حوض استحمامه أكبر من القارب الذى يجرى هنا فوق البحر · كانت هذه الأمواج مفاجئة وعالية بصورة أكثر عدوانا ووحشية ، وكانت كل قمة أمامية تعد مشكلة فى ملاحة القارب الصغير ·

وجلس الطاهى القرفصاء فى القاع وتطلع بكلتا عينيه الى البوصات الست لحافة القارب التى كانت تفصله عن المحيط ، وكانت أكمامه قد شمرها فوق ساعديه الغليظتين وكان مردا صـديريته الخالى من الأزرار يتدليان وهو ينحنى وينزح المـاء من القارب ، وغالبا ما كان يقـول : « يا الهى ، يا له من قارب ضيق ، » وبينما كان يدلى بملاحظته ، كان يتطلع ، بصورة لا تتغير ، شرقا فوق البحر المتكسر ·

وكان الزيات أحيانا ، وهو يقود الدفة بأحد المجدافين فى القارب ، يرفع نفسه فجأة ليتخلص من الماء الذى التف وسقط فوق مؤخرة القارب· كان القارب قاربا رقيقا وصغيرا وغالبا ما بدا أنه على أهبة أن يتصدع ·

وجذب المراسل المجداف الآخر وشاهد الأمواج وتعجب لما كان هناك .

فى ذلك الوقت كان الكابتن الجريح ، الذى كان راقدا فى الطرف الأمامى من القارب ، غارقا فى تلك الكآبة العميقة واللامبالاة التى تحل ، من حين لآخر على الأقل ، حتى بأشجع الشجعان وأعظمهم احتمالا عندما يحدث ، طوعا أو كرها ، أن تفشل شركة أو يخسر جيش معركة أو تجنح سفينة . ومن عادة قائد القارب أن يفكر تفكيرا عميقا فى أخشاب القارب برغم أنه يقوده يوما أو عشرة أيام ، بيد أن هذا الكابتن كان على وجهه انطباع متجهم كمن شهد فى ظلمة الفجر سبعة وجوه متغيرة . ثم شهد قطعة من أعلى الصارى عليها كرة بيضاء ، وقد شطرت جيئة وذهابا بفعل الأمواج ، أخذت تهبط ويزداد هبوطها ثم تسقط . كما كان هناك شيء غريب فى صوته . وعلى الرغم من ثباته فقد كان به حزن عميق ، وكان حزنا أبلغ من الخطابة أو الدموع .

وقال : « اجعل وجهته أكثر قليلا تجاه الجنوب يا بيلى . » .

وقال الزيات عند الدفة : « أكثر قليلا تجاه الجنوب ، يا سيدى . » .

لم يكن المقعد فى هذا القارب مخالفا لمقعد على ظهر جواد أنيق ، وبالمثل لم يكن الجواد أصغر كثيرا من القارب ، وتبختر القارب وقفز ووثب كما لو كان حيوانا . وكلما جاءت موجة وقفز القارب نتيجة لها بدا القارب كجواد يقفز عاليا فوق سياج قفزة فظيعة . كانت كيفية سحبه فوق هذه الجدران من الماء أمرا غامضا . وفضلا عن هذا ، فقد كانت هناك مشاكل ، فى ذروتها حسب المألوف ، هذه المشاكل فى المياه البيضاء ، الزبد وهو يركض الى أسفل من قمة كل موجة مستتبعا وثبة جديدة ووثبة من الهواء ، ثم بعد أن تضرب قمة الموجة فى استخفاف قد تنزلق وترقد وترش أسفل منحدر طويل ويصل متمايلا خافض الرأس أمام الخطر المقبل .

ويكمن الخطر الغريب للبحر فى حقيقة أنه بعد التغلب بنجاح على موجة واحدة تكتشف أن هناك موجة أخـرى خلفها فى نفس أهميتها ، تواقة تماما ، فى عصبية ، الى أن تضطلع بشىء فعال فى طريق القوارب الغارقة · وفى قارب طوله عشرة أقدام يستطيع المرء أن يأخذ فكرة عن جبروت البحر وحركة الأمواج ، كلما اقترب كل حائط مائى اردوازى، حجب كل ما عداه من مناظر عن الرجال فى القارب ، ولم يكن من الصعب التخيل ان هذه الموجة بعينها هى الثورة الأخيرة للمحيط ، الجهـد الأخير للماء العابس . وكانت هناك رشاقة هائلة فى حركة الأمواج ، ثم سكنت فيما عدا زمجرة قممها ·

وفى الضوء الشاحب كانت وجوه الرجال لابد أن تبدو رمادية ، ولا بد أن عيونهم قد لمعت بطريقة غريبة وهم يحملقون فى ثبات الى دفة القـــارب · لو نظر اليهم من شرفة لكان الأمر كله بلا شك مشـــهدا ساحرا يستحق التصوير ، ولكن الرجال فى القارب لم يكن لديهم وقت ليشهدوه . ولو كان لديهم متسع من الوقت لاحتلت تفكيرهم أمور أخرى·· وأخذت الشمس تتحرك فى ثبات فى كبد السماء · وعلموا أنه كان يوما رائعا لأن لون البحر قد تبدل من اللون الاردوازى الى الأخضر الزمردى مخططا بألوان الكهرمان ، وكان الزبد كالجليد المتســاقط ، وكانت عملية بزوغ النهار مجهولة لهم اذ كانوا على علم فقط بهذا التأثير على لون الأمواج التى كانت تتدحرج تجاههم ·

وفى جمل مفككة تجادل الطاهى والمراسل حول الفرق بين محطة انقاذ الحياة والملجأ · فقال الطاهى : « هناك ملجأ يقع الى الشمال تماما من فنارة شرم « موسكيتو » ، وحالما يروننا سيهرعون الينا فى قواربهم ويلتقطوننا · » ·

وقال المراسل : « حالما من يرانا ؟ » ·

فأجاب الطاهى : « طاقم البحارة · » ·

فرد المراسل : « ليس لبيوت الملاجىء طاقم بحارة » واستطرد : « وكما أعرفها فهى مجرد أماكن تخزن فيهـا ملابس وأطعمة لصـــالح الأشخاص الغرقى ، وهى لا تضم بحارة · » ·

فقال الطاهى : « آه ، نعم ، انها لكذلك · » ·

فرد المراسل : « كلا ، انها ليست كذلك · » ·

فقـال الزيات عنـــد الدفة : « حسن ، لســـنا هناك بعد ، على أية حال · » ·

وقال الطاهى : « حسن » واستطرد : « ربما ليس بملجأ ذلك الذى أفكر فى وجوده بالقرب من فنار شرم « موسكيتو » ، ربما كان محطة انقــاذ · » ·

فرد الزيات عند الدفة : « اننا لسنا هناك بعد » ·

## ٢

كلما قفز القارب من فعل قمة كل موجة تخلل الريح شعر الرجال الحاسرى الرأس ، وكلما أسقط القارب دفته مرة أخرى محدثا صــوتا تناثر الرذاذ تجاههم · كانت قمة كل موجة من هذه الأمواج تلا ، يشرف الرجال من قمتها للحظة على مدى مضطرب عريض لامع تشقه الأمواج · ربما كان هذا اللعب الذى يقوم به البحر الحر ، باهرا ، وربما كان رائعا وربما كان موحشا بألوان الزمرد والأبيض والكهرمان ·

وقال الطاهى : « مرحى ! شىء جميل ، انها ريح على الشاطىء » واستطرد : « لو لم تكن فأين يمكن أن تكون ؟ وكما شهدناها · » ·

فقال المراسل : « هذا صحيح · » ·

فأومأ الزيات المشغول ، برأسه موافقا ٠

وفى انحناءة ، ضحك الكابتن ضحكة مكتومة بطريقة عبرت عن الفكاهة والاستخفاف والأسى معا ، وقال « هل تظنون أننا قد رأينا الكثير من المناظر الآن يا أولاد ؟ »

على أثرها لاذ الرجال الثلاثة بالصمت فيما عدا نحنحة طفيفة ولو أنهم عبروا عن أى تفاؤل غريب فى هذه الآونة لأحسوا بأنهم أطفال وحمقى ، ولكنهم ، بلا شك ، كان يسيطر على عقولهم جميعا هذا الادراك للموقف ٠ لا شك أن أى شاب يفكر فى اصرار فى مثل هذه الأوقات ، ومن ناحية أخرى ، كانت حالتهم لا تحتمل حتما أى ايحاء صريح باليأس ؛ ولذا فقد لاذوا بالصمت ٠

وقال الكابتن وهو يهدىء من روع أولاده : « آه ، حسن ، سنصل الى الشاطىء تماما ٠ » ٠

ولكن كان فى نغمته ذلك الشىء الذى جعلهم يتأملون ، ولذا قال الزيات : « نعم ، اذا توقفت هذه الريح ٠ » ٠

وكان الطاهى ينزح الماء فقال : « نعم ! اذا لم نصب بسوء فى أمواج الشاطى ٠ »

طارت طيور النورس فى المنطقة بريشها الذى يشبه الفانلة ، قريبا وبعيدا ، وكانت تجلس أحيانا على البحر قرب بقع بنية من كلأ البحر الذى نشرته الأمواج بحركة تشبه حركة نشر الطنافس فى صف فى مهب ريح شديدة ٠ وجلست الطيور فى راحة فى مجموعات وكان يحسدها بعض من فى القارب لأن غضب البحر ازاءها لا يعدو أن يكون موقفه أكثر من موقفه ازاء سرب من كتاكيت البرارى على بعد آلاف الأميال من البحر ، وغالبا ما كان يزداد اقترابها وتتطلع الى الرجال بعيون سوداء تشبه الخرز ٠ كانت غامضة أحيانا وخطرة فى فحصها السرى ، فصفر لها الرجال فى غضب وطلبوا منها أن تنصرف ٠ وجاء واحد منها وكان واضحا أنه قرر أن يحط على قمة رأس الكابتن ٠ وطار الطائر موازيا

للقارب ، ولم يدر فى دائرة ولكنه قام بقفزات قصيرة وجانبية فى الهواء على طريقة الكتاكيت ، وكانت عيناه السوداوان مثبتتين فى تفكير على رأس الكابتن ، فقال الزيات للطائر : « وحش قبيح » واستطرد : « تبدو كما لو كنت قد خلقت ولك مطواة كبيرة » وأقسم الطاهى والمراسل فى غموض للطائر . وكان الكابتن يرغب بطبيعة الحال فى أن يضربه بالحبل الثقيل ولكنه لم يجرؤ على ذلك لأن أى شىء يشبه أية حركة مثيرة ربما قلبت هذا القارب بمن فيه ، ومن ثم ، فقد قام الكابتن بإبعاد طائر النورس بعيدا فى رقة وعناية . وبعد أن خمدت همة الطائر من التعقب ، تنفس الكابتن تنفسا أسهل من ذى قبل لأنه أحس بأن شعره بمنأى عن الطائر ، وتنفس الآخرون تنفسا أيسر اذ كان قد جال بخاطرهم وقتذاك ان مقدم الطائر شىء مخيف ومشئوم .

وأثنـــاء ذلك كان الزيات والمراســل يجدفان وقد جلســا معا على المقعد نفسه ، وكان يجدف كل منهما بمجداف، ثم أخذ الزيات كلا المجدافين، ثم أخذ المراسل كلا المجدافين ، ثم الزيات ، ثم المراسل واستمرا فى التجديف . كان هذا الجانب البالغ الصعوبة من العمل قد أنجز عندما حل الوقت على الشــــخص المســـتند الى الدفة ليأخذ دوره فى التجديف بالمجدافين . ان ما تذكره الحقيقة هو أنه من السهل أن تسرق بيضا من تحت دجاجة عن أن تغير مقاعد فى قارب ، فقد حدث أولا أن الرجل حارس الدفة زلق يده على طول المجداف وتحرك بعناية كما لو كان المجداف من الخزف السيفر ، ثم اذا بالرجل فى مقعد التجديف يزلق يده على طول المجداف الآخر . حدث كل هذا بعناية فائقة ، وبينما كان الاثنان يزلقان صـــوب الآخر كانت الجماعة بأسرها تشخص بعيونها نحو الموجة القــادمة ، وصاح الكابتن ، « احترسوا الآن ، اثبتوا ! هناك ! » .

أما الحصر البنية من كلأ البحر التى كانت تبدو من وقت لآخر أشبه بالجزر ، فقد كانت قطعا من اليابس . وكان واضحا أنها لم تكن تنتقل لا الى هذا الاتجاه ولا الى ذاك ، بل كانت فى الحقيقة مستقرة . لقد أعلمت الرجال فى القارب أنهم كانوا يتقدمون ببطء تجاه اليابس .

كان الكابتن قد نهض في حذر عند مقدمة القارب بعد أن ارتفع القارب على مرتفع ضخم وقال انه قد رأى الفنار عند شرم موسكيتو ، وعلى الفور علق الطاهي بأنه شاهده • وكان المراسل عند المجدافين وقتذاك ، ولبعض الأسباب أراد هو أيضا أن يتطلع الى الفنار ولكن ظهره كان تجاه الشاطيء البعيد ، وكانت الأمواج خطيرة ، ولم يكن في استطاعته لبعض الوقت أن ينتهز فرصة ليدير رأسه ، ولكن جاءت أخيرا موجة أكثر رقة من الأمواج الأخرى ، وعند قدوم قمتها بحث بدقة وبسرعة عن الأفق الغربي •

وقال الكابتن : « هل رأيته ؟ » •

فرد المراسل في بطء : « كلا ، انني لم أر شيئا • » •

فقال الكابتن : « انظر ثانية » وقال مشيرا : « انه في ذلك الاتجاه تماما • » •

وعلى قمة موجة أخرى فعل المراسل كما أمر ، وفي هذه الأثناء ، تصادف أن وقعت عيناه على شيء ثابت على حافة الأفق المتمايل : لقد كان مثل رأس الدبوس تماما ، وتطلع بعين قلقة ليجد فنارا دقيقا جدا •

« أتظن أننا بالغوه ؟ » •

فقال الكابتن : « لو توقفت هذه الريح واذا لم يغرق القارب ، فلا نستطيع أن نفعل شيئا آخر أكثر من هذا • » •

واذا بالقارب الصغير ، وقد رفعه كل بحر شامخ ورشته قمم الأمواج بصورة مؤذية ، يقوم بتقدم حتى انه لم يكن باديا لأولئك الذين به ، أثناء غياب كلأ البحر • لقد بدا مجرد شيء صغير يتمرغ ، يقفز الى أعلى في اعجاز ، تحت رحمة خمسة محيطات • ومن وقت لآخر كانت المياه الغزيرة تغمر القارب كما لو كانت نيرانا بيضاء •

وقال الكابتن في هدوء : « انزح القارب أيها الطاهي • » •

فقال الطاهي مبتهجا : « وهو كذلك ، أيها الكابتن • » •

# ٣

قد يصعب وصف أخوة الرجال الرقيقة التى توطدت هناك على البحار · لم يقل أحد انها كانت كذلك ، ولم يذكرها أحد ، ولكنها كانت تعيش فى القارب ، ويحس كل انسان بها تدفئه · انهم كابتن وزيات وطاه ومراسل ، كانوا أصدقاء ـ أصدقاء بدرجة أكثر تطويقا بالحديد بصورة غريبة مما يمكن أن يكون رابطة عادية · كان الكابتن الجريح راقدا قبالة الزمزمية فى مقدمة القارب ، يتحدث دائما فى صوت خافت وفى هدوء ، ولكن لم يكن فى استطاعته قط أن يأمر بحارة أكثر استعدادا وأسرع استجابة فى أدب من الثلاثة المختلفى المشارب فى القارب · لقد كان الأمر أكثر من مجرد دراية بما هو أفضل للأمن العام · وكان الأمر بكل تأكيد أمر احساس شخصى وقلبى · وبعد هذا الولاء لقائد القارب ، كانت هذه الصداقة ، هى أن المراسل ، على سبيل المثال ، وكان قد تعلم أن يسخر من الرجال ، عرف حتى فى هذه الآونة أنها أفضل تجربة فى حياته ، ولكن لم يقل أحد انها كانت كذلك ، ولم يذكرها أحد ·

وعلق الكابتن قائلا : « وددت لو كان لنا شراع » واستطرد : « قد نجرب معطفى على نهاية المجداف ، ونتيح لكما فرصة للراحة أيها الولدان · » ومن ثم أمسك الطاهى والمراسل بالصارى ونشرا المعطف على اتساعه وقاد الزيات القارب وشق القارب الصغير طريقه القويم بقلعه الجديد · وكان على الزيات أن يجدف فى بعض الأحيان بمجداف واحد بشدة ليمنع مياه البحر من أن تقتحم القارب ، ولكن دون ذلك كان اقلاع القارب توفيقا ·

فى هذه الأثناء كان الفنار يبدو أكبر فى بطء · لقد أوشك الآن أن يتخذ لنفسه لونا ، وبدا كظل رمادى بسيط فى السماء · لم يكن فى استطاعة المرء أن يمنع نفسه من أن يدير رأسه مرارا ليحاول أن ينقى بنظرة على هذا الظل الرمادى البسيط ·

واخيرا ، كان في استطاعة الرجال في القارب الذى تتقاذفه الأمواج أن يروا اليابس من قمة كل موجة ، وحتى بعد أن صار هذا الفنار ظلا مستقيما على السماء ، لم يبد اليابس الا كظل طويل أسود على البحر . لقد كان أقل سمكا من الورق بكل تأكيد . وقال الطاهى : « لابد أننا أوشكنا أن نكون قبالة « ازمير الجديدة » وكان الطاهى كثيرا ما بلغ هذا الشاطىء فى سفن ذات قلعين ، واستطرد الطاهى قائلا : « كابتن ، على فكرة ، أعتقد أنهم قد تخلوا عن محطة الانقاذ هناك منذ حوالى سنة . »

فقال الكابتن : « أفعلوا ذلك ؟ »

وخمدت الريح ببطء ، ولم يكن الطاهى والمراسل مجبرين الآن على أن يعملا بجد كي يرفعا المجداف عاليا . ولكن الأمواج استمرت فى انقضاضها الشديد على القارب ، ولم يعد القارب الصغير يتقدم وكافح فى عناد فوقها ، وأمسك الزيات أو المراسل بالمجدافين ثانية .

ولا يعد غرق السفن شيئا بالقياس الى هذا . ولو كان فى استطاعة الرجال أن يدربوا عليه فحسب ، ولو كانوا واجهوه عند بلوغهم وضعا خطرا ، لكان مجال الغرق فى البحر أقل . لم ينم أحد من الرجال الأربعة فى القارب أية فترة جديرة بالذكر طوال يومين وليلتين سابقتين للابحار فى القارب ، وفي هرج التسلق على ظهر سفينة غارقة كانوا قد نسوا أيضا أن يأكلوا بشهية .

ولهذه الأسباب ، ولأسباب غيرها ، لم يكن الزيات ولا المراسل مولعين بالتجديف فى هذه الآونة . لقد تعجب المراسل فى صراحة كيف يعقل أن يكون هناك أناس يظنون أن من المتعة أن يجدفوا فى قارب . لم تكن متعة ، لقد كانت عقابا شيطانيا ، بل ان المتضلع فى الانحرافات العقلية لا يمكن أن يخلص مطلقا الا الى أنها كانت ضربا من ارهاق للأعصاب وجريمة من الخلف . لقد أشار الى القارب وذكر بوجه عام كيف أن متعة التجديف قد طرأت على باله ، وابتسم الزيات بوجهه المكدود ،

ابتسم فى حنان تام • وعلى فكرة ، كان الزيات قبل غرق السفينة قد قام برقابة مزدوجة فى غرفة الآلات بالسفينة •

وقال الكابتن : « خذوا الأمر ببساطة الآن يا أولاد • » واستطرد : « لا تستنفدوا طاقتكم • اذا كان علينا أن نجرى الى الشاطىء فستحتا جون الى كل قواكم ، فعلينا بكل تأكيد أن نسبح اليه • تمهلوا ! » •

وفى بطء بدا اليابس من البحر وبعد أن كان هناك خط أسود بدا خط أسود وخط أبيض • أشجار ورمال • وأخيرا قال الكابتن انه يمكن أن يتبين بيتا على الشاطىء • وقال الطاهى : « هـذا هو مبنى الملجأ ، بلا شك » واستطرد الطاهى قائلا : « سيروننا قبل مضي وقت طويل ، ويخرجون فى أثرنا • » •

وبدا الفنار البعيد عاليـا ، وقال الكابتن : « على الحارس أن يكون قادرا على أن يكتشفنا الآن ، اذا كان يتطلع من خلال منظار • » واستطرد قائلا : « سيخطر رجال الانقاذ • » •

وقال الزيات فى صوت خافت : « لايمكن أن تكون واحدة من تلك القوارب الأخرى قد بلغت الشاطىء لتبلغ عن هذا الغرق • » واستطرد : « والا لكان قارب الانقاذ قد خرج ليتعقبنا • » •

وفى بطء وجمال أخذ اليابس ينبلج من البحر وجاءت الريح ثانية • لقد انحرفت من الشـمال الشرقى الى الجنـوب الشرقى • وأخيرا طرق آذان الرجال فى القارب صوت جديد • لقد كان صوت رعد خافت لأمواج البحر وهى ترتطم بالشاطىء • وقال الكابتن : « لن نتمكن على الاطلاق من أن نتبين الفنار الآن • » واستطرد : « حرك راس القارب أكثر قليـلا تجاه الشمال يا بيلى • » •

وقال الزيات : « أكثر قليلا الى الشمال يا سيدى • » •

وعلى اثرها حول القارب مقدمته مرة أخرى دون الريح كثيرا ، وشهد الجميع ، عدا الجداف ، الشاطىء وهو يكبر • وتحت تأثير هذا الاتسـاع

تخلى الشك والخوف الهائل عن أذهان الرجال • كانت ادارة القارب لاتزال أكثر الأمور التى تشغل بالهم ، ولكنها لم تستطع أن تحول دون سريان فرحة هادئة ، اذ فى خلال ساعة ربما بلغوا الشاطىء •

لقد صــار عمودهم الفقرى معتادا تماما على التوازن فى القارب ، وكانوا اذن يركبون هذا القارب الذى هو أشبه بالمهر الجامح كما لو كانوا رجال سيرك ، وظن المراسل أنه قد ابتل حتى بلغ البلل جسده ، ولكن حدث أنه تحسس الجيب العلوى فى معطفه فوجد فيه ثمانية سيجارات ، تبللت أربعة منها بفعل مياه البحر وأربعة كانت سليمة تماما•وبعد بحث، أخرج أحــد الأفراد ثلاثة أعواد ثقاب جافة ، ومن ثم فقد أخــذ الأربعة الضالون الذين كانوا يركبون فى جراة فى قاربهم الصغير ويشـــع من عيونهم توكيد بأنهم سينقذون قريبــا ، أخذوا ينفثون دخان سيجارهم الكبير ، وأخذوا يحكمون بالخير والشر على كل الناس • وجرع كل فرد جرعة من الماء •

## ٤

وعلق الكابتن قائلا : « أيها الطاهى ، لاتبدو هناك أية دلالات على الحياة حول مبنى الملجأ » •

وأجاب الطاهى : « كلا ، من المضحك أنهم لم يرونا ! »

الساحل المنخفض يمتد عريضا أمام أعين الرجال • كان مؤلفا من كثبان منخفضة تعلوها نباتات سوداء ، وكان زئير أمواج الشاطىء واضحا ، وأصبح فى امكانهم أحيانا أن يشهدوا الشفة البيضاء للموجة وهى تدور فوق الشاطىء • لقد بدا بيت صغير وقد انعكست له صورة سوداء فى السماء ، والى الجنوب بدا الفنار النحيل بارتفاعه الرمادى الفاتح •

أخـــذ المد والريح والأمواج فى تحريك القارب تجاه الشمال وقال الرجال : « من المضحك أنهم لا يروننا • » •

وكان زئير أمواج الشاطىء قد سكن ، ولو أن نغمتها كانت مدوية وقوية رغم ذلك ، وبينما كان القـــارب يسبح فوق الأمواج المتـــلاطمة الضخمة ، جلس الرجال منصتين الى هذا الزئير ، وقال كل فـــرد : « سنغرق لا محالة • » •

ومن الانصاف أن نقول هنا انه لم تكن هناك محطة انقاذ فى مدى عشرين ميلا فى أى اتجاه ، ولكن لم يكن الرجال على علم بهذه الحقيقة . وكنتيجة لذلك علقوا تعليقات غامضة ومعيبة على قوة ابصار رجال الانقاذ فى البلاد • وجلس الرجال الأربعـــة متجهمين فى القارب ، وتجـاوزوا ما سجل فى اختراع النعوت •

« من المضحك أنهم لم يرونا • »

لقد خبت تماما خفة الروح التى تملكتهم فى الفترة السابقة • كان من السهل على عقولهم المشحوذة أن تستحضر صـــورا من كل أنواع القصور والغباء ، بل الجبن • لقد كان هنـــاك شاطىء الأرض الآهلة بالسـكان ، ومما بعث المرارة فى نفوســهم أنه لم تنبعث منه اية دلالة على أن أحدا قد رآهم •

وقال الكابتن أخـيرا : « حسن ، أظن أن علينا أن نقوم بمحـاولة نحن أنفسنا ؛ اذ لو بقينا هنا وقتا طويلا ، فلن يكون لأحد منا من قوة باقية تمكنه من أن يسبح بعد أن يغرق القارب • » •

ومن ثم ، فقد قام الزيات ، بما معه من مجدافين ، بتحويل القارب فى اتجاه الشاطىء • كان هناك توتر مفاجىء للأعصاب ، مع جانب من التفـكير •

وقال الكابتن : « اذا لم نبلغ الشاطىء جميعنا » واستطرد « اذا لم نبلغ الشاطى جميعنا ، فأعتقد أنكم أيها الاخوان تعلمون الجهة التى تبعثون اليها بنبأ نهايتى • » •

ثم تبادلوا فى اختصار بعض العناوين والتحذيرات • أما بالنسبة لتأملات الرجال فقد كان هنـــاك قدر كبير من الثـورة فيما بينهم ، ومن الممكن أن تصاغ على هذه الصورة : « اذا كنت من المغرقين ـ اذا كنت من المغرقين ـ ويحكم ، هل كان مقدرا لى أن آتى الى هذا المكان القصى لأتأمل الرمال والأشجار ؟ هى جىء بى الى هنا لأغرق فى مكان بعيد وأنا على وشك أن أتذوق حلاوة الحياة ؟ هذا أمر لا يقبله العقل • اذا كان القدر لا يستطيع أن يفعل خيرا من هذا فيجب أن يجرد من التحكم فى مصائر الناس • لو قرر القدر أن يغرقنى فلماذا لا يفعل ذلك منذ البداية وينقذنى من كل هذا التعب ؟ ان الأمر كله عبث ، ولـــكن كلا ، انه لا يمكن أن يعنى أن يغرقنى • انه لا يجرؤ أن يغرقنى • لا يمكن أن يغرقنى ، بعد كل هذا العمل • » وبعد ذلك قد يكون لدى الرجل باعث لكى يهز قبضة يده الى السحب ويقول : « أغرقينى اذن الآن ثم اسمعى ماذا أدعوك ! » •

بدت الأمواج التى جاءت فى هذه الآونة هائلة جدا ، وعلى وشـك أن تتكســـر وتدور فوق القـــارب الصـــغير فى ضـــوضاء الزبد • كانت هناك زمجرة سابقة طويلة فى حديثهم • ان أى عقل غير معتاد على البحر ربما خلص الى أن القارب يمكن أن يرتقى المرتفعـات العمودية فى الوقت المناسب • كان الشاطىء لا يزال بعيدا ، وكان الزيات ، عامل السكة الحديد ، داهية ، فقال بسرعة : « يا أولاد ، لن يعيش القارب أكثر من ثلاث دقائق ، ونحن بعيـدون كل البعد عن أن نسـبح • هـل أقود القارب ثانية الى البحر يا كابتن ؟ » •

فقال الكابتن : « نعم ، انطلق ! » •

واذا بهـذا الزيات ، بسلسلة من المعجزات السريعة وبالتجديف السريع الثـابت ، يوجه القـارب الى منتصف أمواج الشـاطى ويقوده الى البحر بسلام مرة أخرى •

كان هناك سكون بالغ بينما كان القارب يرتطم فوق البحر المخطط

حتى بلغ المياه العميقة ، ثم تحدث شخص ما فى كآبة قائلا : « حسن ، على أية حال لابد أنهم رأونا الآن من الشاطىء » .

وأخذت طيور النورس تطير فى انحراف فوق الريح تجاه الشرق الرمادى المقفر ، وبدت من الجنــوب الشرقى عاصفة اختلطت بها سحب غبراء وسحب حمراء قانية فبدت كدخان صادر من منزل يحترق .

« ما ظنكم بأولئك الرجـــال ، رجـــال الانقاذ ؟ أليسوا بنات فاتنات ؟ » .

« من المضحك أنهم لم يشاهدونا » .

« ربما ظنوا أننـــا جئنا الى هنا للرياضة ! ربما ظنوا أننا نصطاد ! ربما ظنوا أننا حمقى ملاعين » .

لقد كان كان مساء طويلا . وقد حاول مد متقلب ، أن يدفع بهم تجاه الجنوب ولكن الريح والموج اتجها شمالا . والى أقصى الأمام ، حيث حدود الشـــاطىء ، شكل البحر والســـماء زاويتهما القوية ، وكانت هنـــاك نقط صغيرة بدت تشير الى مدينة على الشاطىء .

« سنت أوجاستين ؟ » .

وهز الكابتن رأسه وقال : « قريبا جدا من شرم موسكيتو » .

وجدف الزيات ، ثم جدف المراسل ، ثم جدف الزيات . لقد كانت مهمة شاقة يمكن أن يصبح ظهر الانسان مســــتقرا لكثير من الأوجاع والآلام أكثر مما هو مسجل فى الكتب عن التشريح المركب لعـــدد كبير منها ، ورغم أنه منطقة محدودة الا أنه يمكن أن يصبح مسرحا لصراعات عضلية تفوق الحصر ، وتشابكات والتواءات وعقد ، كما يمكن أن يصبح مسرحا لأحاسيس أخرى بالراحة .

وتساءل المراسل : « ألم تحب قط أن تجدف يا بيلى ؟ » .

وقال الزيات : « كلا ، لعنة الله ! » .

عنـدما يبدل شخص مقعد التجديف بمكان فى قاع القــارب ، يعانى من اجهاد بدنى يدفعه لأن يهمل فى كل شىء سوى التزام تحريك أصبعه جيئة وذهابا · كان لمياه البحر الباردة عجيجها وهى تتحرك جيئة وذهابا فى القارب ، وهو راقد فيه · لقد كان رأسه الذى توسد مقعد ماسك المجــداف ، داخل نطاق بوصــة من دوامة قمة الموجة ، والبحر الصاخب يندفع أحيانا بصورة خاصة داخل القارب ويبلله مرة أخرى ، ولكن هذه الأمور لا تضايقه · كاد أن يجزم لو أن القارب انقلب لسقط مستريحا على المحيط · كما لو كان متأكدا كل التأكد أنه حشية ضخمة لينــة ·

« أنظروا ! هناك على الشاطىء ! » ·

« أين ؟ » ·

« هناك ! هل رأيتموه ؟ هل رأيتموه ؟ » ·

« نعم ، مؤكد ! انه يسير قدما · » ·

« كلا ، لقو توقف · أنظروا ! انه يواجهنا ! » ·

« انه يلوح لنا ! » ·

« انه يفعل ذلك ! ، يا الهى ! » ·

« آه ، الآن نعم ، نحن على ما يرام ! الآن نحن على ما يرام ! سيأتى قارب الى هنا ، ··· الينا فى مدى نصف ساعة · » ·

« انه مستمر فى السير · انه يجرى · انه يتجــه الى ذلك المنزل هناك » ·

وبدا الشاطىء البعيد منخفضا عن مستوى البحر ، وكان يستلزم نظرة فاحصــة ليتبينوا الشكل الأسود القصير · رأى الكابتن عصــا طافية فجدفوا اليها · كانت هناك مصـــادفة غريبة اذ كانت بالقــارب

منشفة حمام ، وبعد أن ربطوا هذه المنشفة على العصا لوح بها الكابتن ، ولم يجرؤ المجدف أن يدير رأسه ، ومن ثم كان عليه أن يوجه أسئلة :

« ماذا يفعل الآن ؟ » .

« انه يقف ثابتا مرة أخرى ... انه يتطلع . أظنه ـ ها هو يمشى مرة أخرى ـ تجاه الدار ـ توقف الآن مرة أخرى . » .

« هل يلوح لنا ؟ » .

« كلا ، ليس الآن ، ومع ذلك .... » .

« انتظروا ! ها قد قدم رجل آخر ! » .

« انه يجرى » .

« أنظروه وهو يمشى ، ألا ترونه ؟ » .

« ويحكم ! انه يركب دراجة . وقد التقى الآن بالرجل الآخر ، وكلاهما يلوح لنا . أنظروا ! » .

« هناك شيء يقترب من الشاطيء . » .

« ما هو ذلك الشيء بحق الشيطان ؟ » .

« ويحكم ! انه يبدو كالقارب . » .

« ويحكم ، هو قارب بكل تأكيد . » .

« كلا ، انه يسحب على عجل . » .

« نعم ، انه لكذلك . حسن ، لابد أنه قارب نجاة ... يسحبونه على طول الشاطيء على عربة نقل . » .

« هو قارب النجاة بكل تأكيد . » .

« كلا ، والله ، انه ، انه سيارة عامة » .

« أقول لك انه قارب نجاة • » •

« ليس الأمر كذلك ! انها سيارة عامة • انني أستطيع أن أراها بوضوح • أنظروا ؟ هي واحدة من هذه السيارات العامة لفندق كبير • » •

« يا الهى ! أنت على حق • انها سيارة عامة ، أنا متأكد من هذا كتأكدى من مصيرى • ربما يتجولون يجمعون رجال الانقاذ ، هه ؟ »

« ربما كان هذا ، أنظروا ! هناك فتى يلوح بعلم أسود صغير ، ويقف على درجات السيارة العامة • وهناك فتيان آخران ، وجميعهم يتحدثون الآن بعضهم مع بعض • أنظروا الى الفتى الذى يحمل العـــلم • ربما لم يكن يلوح به ! » •

« انه ليس بعلم ، أليس كذلك ؟ انه معطفه • ويحكم ! انه معطفه بكل تأكيد • » •

« هو كذلك ، انه معطفه • لقد خلعه وهو يلوح به حول رأسه ، ولكن انظروا اليه وهو يؤرجحه ! » •

« آه ، أقول ، لا وجود لأية محطة انقاذ •• انها مجرد سيارة عامة لفندق شتوى جاءت ببعض النزلاء ليشاهدونا نغرق • » •

« ماذا يقصد ذلك الأحمق صاحب المعطف ؟ ماذا تنطوى عليـــه اشاراته على أية حال ؟ » •

« يبدو كما لو كان يحاول أن يقول لنا بأن نتوجه الى الشمال • لابد أن هناك محطة انقاذ • » •

« كلا ، انه يظن أننا نصطاد وهو يلوح لنا فى مرح فحسب ، أنظروا ؟ آه ، هناك يا ويلى ! » •

« حسن ، أود لو استطعت أن أفهم شيئا من هـــذه الاشارات • ماذا تظنون انه يعنى ؟ » •

« انه لا يعنى شيئا ، بل مجرد لهو . » .

« حسبن ، اذا لم يكن يشير مجرد اشارة لنا فلنجرب بلوغ الشاطىء مرة أخرى أو نتوجه الى البحر وننتظر أو نتوجه شمالا أو نتوجه جنوبا أو نذهب الى الجحيم ، فلربما كان هناك سبب وراء هذا . ولكن أنظروا اليه ! انه يقف هناك الآن ويدير معطفه كالعجلة . الحمار ! » .

« أتى هناك بعض الأشخاص » .

« الآن هناك حشد من الناس فعلا . أنظروا ! أليس هذا بقارب ؟ » .

« أين ؟ آه ، أرى المكان الذى تعنيه . كلا ، ليس هذا بالقارب . » .

« ذلك الفتى ما زال يلوح بمعطفه » .

« لابد أنه يظن أننا نود أن نراه يفعل ذلك . لماذا لا يدع هذا الأمر ؟ » .

« لا أدرى . أظن أنه يحاول أن يدفعنا لنتجه شمالا . لابد أن هناك محطة انقاذ فى أى مكان . » .

« أقول انه لم يتعب بعد ، أنظروا اليه وهو يلوح ! »

« اننى لأعجب كم من الوقت يمكن أن يظل على ذلك المنوال .. منذ أن شاهدنا وهو يدير معطفه . انه أحمق . لماذا لا يأتون برجال ليخرجوا قاربا ؟ قارب صيد ــ واحد من تلك اليخوت الكبيرة ــ يمكن أن يأتى الى هنا رأسا . لماذا لا يفعل شيئا ؟ » .

« آه ، كل شيء على ما يرام الآن . » .

« سيخرجون قاربا لنا فى مدة أقل من ارتداد البصر ، الآن ، قد رأونا . » .

اصطبغت السماء بمسحة صفراء باهتة فعكستها على اليابس المنخفض . وما لبثت الظلال أن ازداد عمقها ببطء على البحر ، وكانت الريح تحمل معها البرودة ، وبدأ الرجال يرتعدون .

وقال واحد ، وقد سمح لصوته أن يعبر عن حالته اللعينـــة : « الدخان المقـدس ! » واستطرد : « لو ظللنا على حريتنا هنا لكان علينا أن نبقى هنا طوال الليل ! »

« آه ، اننا لن نبقى هنا طول الليل ! لا تقلق · لقد رأونا الآن ، ولن يمضي وقت طويل حتى يأتوا مقتفين أثرنا · » ·

ازداد الشاطىء ظلمة ، واذا بالرجل الذى يلوح بالمعطف ، يبتلعه تدريجيا هـذا الظلام ، الذى ابتلع بالطريقة نفسها ، السـيارة العامة ومجموعة الرجال · كان الرذاذ ، وهو يندفع مدويا فوق جانب القارب ، قد جعل المسـافرين ينكمشون ويقسمون بأغلظ الأيمان ، كمـا لو كانوا يوسمون كيا بالنار ·

« وددت لو أمسكت بالفتى الذى كان يلوح بالمعطف · أحس بأننى أريد أن أضربه ضربة واحدة ، لمجرد أن يسعدنى الحظ · » ·

« لماذا ؟ ما الذى فعله ؟ » ·

« آه ، لا شيء ، ولكنه يبدو مسرورا للغاية · » ·

فى هذه الأثناء جدف الزيات ، ثم جدف المراسل ، ثم جـدف الزيات ، واسـود وجهاهما وكانا منحنيين الى الأمام ، وفى ميكانيكية ، انكبا ، الواحـد تلو الآخر ، على المجـدافين الرصاصيين · كان شكل الفنار قد تلاشى من الأفق الجنوبى ولكن بدا أخيرا نجم شاحب يصـعد لتوه من البحر · ومر الزعفران المعرق فى الغرب قبل الظلمة الدامسة ، وكان البحر أسود فى اتجـاه الشرق ، وتلاشى اليابس ولم يعبر عنه الا الدوى المنخفض الموحش لأمواج الشاطىء ·

« لو كنت من المغرقين ، هل كان مقدرا لى أن آتى الى هذا المكان القصى لأتأمل الرمال والأشجار ؟ هل جيء بى الى هنا لمجرد أن أغرق فى مكان بعيد ، وأنا على وشك أن أتذوق حلاوة الدنيا ؟ » ·

كان الكابتن المريض ، وهو منحن على الزمزمية ، مضطرا أحيانا الى أن يتحدث الى ماسك المجداف ·

« ارفع رأس القارب عاليا ! ارفع رأسه عاليا ! » ·

كانت الأصوات مكدودة وخافتة « ارفع رأسه عاليا ، يا سيدى · » ·

كانت هذه أمسية هادئة بكل تأكيد · رقد الجميع متثاقلين وفاترى الهمة فى قاع القارب فيما عدا ماسك المجداف الذى كانت عيناه قادرتين على أن تشهدا الأمواج العالية السوداء وهى تكتسح أماما فى سكون أكثر رهبة ، فيما عدا زمجرة مكتومة لقمة الموج من وقت لآخر ·

كان رأس الطاهى على مقعد ماسك المجداف ، اوتطلع بلا اكتراث الى الماء تحت أنفه · لقد كان غارقا فى مشاهد أخرى ، وتحدث أخيرا وقال : « بيلى » وتمتم كما لو كان يحلم :

« أى نوع من الفطائر تفضله ؟ »

٥

وقال الزيات والمراسل فى قلق : « فطيرة ! » واستطردا : « لا تتحدث عن هذه الأمور ، لعنة الله عليك ! » ·

وقال الطاهى : « حسن ، كنت أفكر فقط فى ساندويتش لحم فخذ الخنزير و ··· » ·

ان قضاء ليلة فى البحر فى قارب مكشوف قضاء لليلة طويلة · ولما استقرت الظلمة فى النهاية تحول شعاع الضوء ، المتصاعد من البحر فى الجنوب ، الى لون ذهبى خالص · وعلى الأفق الشمالى بدا ضوء جديد

وشعاع بسيط ضارب للزرقة على حافة المياه · كان هذان الضوءان هما متاع الدنيا ، وفيما عداهما لم يكن هناك من شىء سوى الأمواج ·

وتجمع رجلان فى الدفة ، وكانت المسافات فى القارب هائلة حتى كان فى استطاعة ماسك المجداف أن يبقى على قدميه دافئتين الى حد ما بأن يدسهما تحت أقرانه · كانت أرجلهم ممتدة على استطالة تحت مقعد ماسك المجداف حتى لمست قدمى الكابتن أماما · وأحيانا ، رغم جهود ماسك المجداف المكدود ، كانت تأتى موجة عارمة الى القارب ، موجة ثلجية من أمواج الليل ويبللهم الماء البارد من جديد ، وقد يلوون أجسادهم لفترة ويزمجرون وينامون النومة المميتة مرة أخرى بينما يصدر الماء فى القارب خريرا حولهم ، ويهتز القارب ·

وكانت خطة الزيات والمراسل هى أن واحدا يجـدف حتى تخور قواه ثم يوقظ الآخر من متكئه من ماء البحر فى قاع القارب ·

أخـــذ الزيات يعمل بجد بالمجدافين حتى انحنى رأســه الى الأمام وأعماه النوم الطاغى ، ومع ذلك كان يجدف ، ثم لمس المراسل فى قاع القارب وناداه باسمه : « هلا حللت محلى لفترة قصيرة من الوقت ؟ » قالها فى تواضع ·

وقال المراسل وهو يستيقظ ويجر نفسه ليقعد : « بكل تأكيـــد يا بيلى » وتبادلا مكانهما بحذر ، وبدا الزيات وهو يهبط محتضنا نفسه فى ماء البحر الى جانب الطاهى أنه سينام فورا ·

توقف عنف البحر الغريب ، وجاءت الأمواج فى غير زمجرة · كان من مستلزمات الرجل الذى يتولى التجديف أن يحافظ على القـارب فى اتجاه رأسى حتى لا يقلبه انحراف الأمواج المتلاطمة ويحميه من الامتـلاء اذا ما ارتطمت به قمم الأمواج · كانت الأمواج الداكنة ساكنة ، من الصعب مشاهدتها فى الظلام ، وما توشك واحـــدة أن تهب على القارب الا وكان ماسك المجداف على علم بذلك ·

وفى صوت خافت نادى المراسل على الكابتن · لم يكن متأكدا من

ان الكابتن كان يقظـــا ، رغم أن هــذا الرجـل الفولاذى بدا دائمـــا يقظا : « يا كابتن ، هل أبقى عليه متجها الى ذلك الضوء الموجود شمالا ، يا سيدى ؟ » ٠

فرد عليه الصــوت الرزين الثابت : « نعم ، اجعله على بعــد حوالى نقطتين من انحناءة الميناء ٠ » ٠

كان الطاهى قد ربط طوق النجاة حول نفسه كى يحصـــل على الدفء ، الذى يســتطيع أن يمنحه له هــذا الطوق الفلينى ، بدا أشبه بالموقد فى نظر ماسك المجداف الذى كانت تصطك أسنانه بدون توقف اصطكاكا شديدا حالما توقف عن العمل وارتمى لينام ٠

والقى المراسل ، وهو يجــدف ، بنظرة على الرجلين اللذين كانا ينامان تحت قدميه ٠ كان ذراع الطـــاهى حول كتفى الزيات ، وكانا بملابسهما الممزقة ووجهيهما المكدودين كطفلين من أطفال البحر ــ كان مشهدا غريبا يذكر بالأطفال الكبار فى الغابة ٠

لابد أنه صار أحمق فى عمله بعد ذلك ، اذ حدث فجأة أن كانت هناك زمجرة للماء ، وأحدثت قمة موجة زئيرا وعجيجا فى القارب ، وكان عجبا أنها لم تجعل الطاهى يطفو وهو يرتدى طوق النجاة ٠ واســـتمر الطاهى فى النوم ، ولكن انتصب الزيات وهو يرمش بعينيه ويرتعد من البرد الجديد ٠

وقال المراسل فى ندم : « آه ، أنا آسف أشد الأسف يا بيلى ٠ » ٠

فقال الزيات : «هذا العمل على مايرام ياصديقى العزيز» ورقد ثانية وغط فى نومه ٠

وعلى الفور بدا أن الكابتن قد غفا أيضا ، وظن المراسل أنه الرجل الوحيد الذى يطفو فوق كافة المحيطات ، وكان للريح صوت وهى قادمة فوق الأمواج وكانت أكثر حزنا من النهاية ٠

كان هنـاك حفيف طويل عال خلف القـارب ، وبدا فوق الميـــاه الداكنة ذيل لامع فسفورى ، كلهب أزرق ، وقد تشقق كما لو أن سكينا ضخمة قد شقته ٠

ثم ران سكون فى حين كان المراسل يتنفس وفمه مفتوح ، وتطلع الى البحر ٠

وفجأة كان هناك حفيف آخر ثم وميض آخر طويل من الضـــوء الأزرق ، ولكنه فى هذه المرة كان على طول القارب ، وربما أمكن بلوغه بمجداف ٠ ورأى المراسل حوتا ضخما يسرع كأنه الظل ، خلال الماء ، يدفع بالرذاذ البللورى ، مخلفا الذيل الطويل اللامع ٠

وتطلع المراسل من فوق كتفيه على الكابتن ٠ كان وجهـه مختفيا وبدا أنه نائم ٠ وتطلع الى طفلى البحر ، كانا نائمين بكل تأكيد ٠ ومن ثم ، فلما لم يجد من يحنو عليه ، مال قليـــلا الى جانب وأقسم للبحر فى رقة ٠

ولكن الشىء لم يكن قد ترك المنطقة القريبة من القارب ٠ وجرى الخط الطويل اللامع أماما أو خلفا ، على جانب أو آخر فى فترات طويلة أو قصيرة ؛ وكان يسمع صـوت « ويررو » صادرا من الحوت الأسود ، كانت سرعة وقوة الشىء عظيمة تثير الدهشة ٠ لقـــد شق الماء كقذيفة ضخمة حادة ٠

لم يؤثر وجود هذا الشىء المنتظر على الرجل بنفس الفزع الذى قد يتملكه لو كان يتنزه ٠ لقـد تطلع فى بساطة الى البحر فى كآبة واقسم فى صوت خافت ٠

وعلى الرغم من ذلك ، لم يكن يرغب فى الحقيقة أن يكون وحيدا مع الشىء ٠ لقد تمنى أن يستيقظ واحد من رفاقه بمحض الصدفة ليؤنس وحـدته ، ولكن الكابتن كان دائمـا بلا حراك على الزمزمية ، والزيات والطاهى ، فى قاع القارب وقد راحا فى سبات عميق ٠

## ٦

« لو كنت من المغرقين ، هل كان مقدرا لى أن آتى الى هذا المكان القصى لأتأمل الرمل والأشجار ؟ » ٠

خلال هذه الليلة الموحشة ، ربما لوحظ أن المرء قد يخلص الى أنه كان فى نية القدر ، حقيقة ، أن يغرقه برغم أنه قد عمل بجد بالغ ٠ لقـد غرق أناس آخرون فى البحر منذ أن احتشد بزوارق كبيرة بأشرعتها الملونة ، ولكن ما زال ٠٠

ولكن عندما يظن انسان أن الطبيعة لا تعيره اهتماما وتحس بأنهـا لن تعجز الكون بالتخلص منه ، اذا به يكاد أن يكفر بمقدساته ٠

ثم ، اذا لم يكن هناك شىء ملموس يستهزىء به ، فلربمـا أحس الرغبة فى مواجهة تشخيص المعنويات ، وينهمك فى اعتذارات وينحنى على احدى ركبتيه ، وبيدين ضارعتين يقول :

« نعم ، ولكننى أحب نفسى ٠ » ٠

ويحس بأن النجم البارد الشاهق فى ليلة من ليالى الشتاء ، هى الكلمة التى تتحدث بها اليه ٠ ومن ثم يعرف أشجان موقفه ٠

لم يناقش الرجال فى القارب هذه الأمور ، ولكن كان كل منهم قد فكر فيها ، بلا شك ، فى صمت وطبقا لتفكيره ٠ كان يندر أن يكون هناك أى تعبير على وجوههم سوى التعبير العام عن الاجهاد التام ٠ كان الحديث مقصورا على مهمة القارب ٠

وتمشيا مع أنغام عواطفه تذكر المراسل شعرا غامضا ٠ لقد نسى أنه قد نسى حتى هذا الشعر ولكنه فجأة استرجعه :

**« كان جندى من جنود الفرقة فى الجزائر راقدا يموت ،**
**وكانت هناك حاجة الى ممرضة لتمريضه،وكانت دموع المرأة شحيحة،**
**ولكن رفيقا وقف بجواره ، وامسك الجندى بيد رفيقه •**
**وقال : « انني لن اشاهد بعد هذه اللحظة ارض وطنى ، وطنى انا » •**

كان المراسل فى طفولته قد عرف حقيقة أن جنديا فى الفرقة كان يرقد وهو يموت فى الجزائر ولكنه لم يعر قط الحقيقة أية أهمية • لقد أخبره عدد كبير من اخوانه فى الدراسة بما قطعه الجندى على نفسه من عهد ، ولكن صخب الحياة أدى به بطبيعة الحال الى أنه لم يعر للأمر اهمية • لم يشغل فكره على الاطلاق بأن جنديا فى الفرقة قد رقد يموت فى الجزائر ، ولم يبد له كأمر يثير الأسى • لم يكن فى نظره أمرا يثير اهتمامه قدر مايثيره كسر سن قلم رصاص •

ومع ذلك ، فقد عاد اليه الآن ، فى صورة غير مألوفة ، كبشر ، ككائن حى • لم يعد مجرد صورة لبضع آلام فى صدر شاعر ، كان يشرب أثناءها الشاى ويدفىء قدميه عند الموقد ، لقد كانت حقيقة ـ عنيفة مفجعة وقاطعة •

لقد رأى المراسل الجندى بوضوح • كان يرقد على الرمل وقدماه ممددتان على استقامتهما وساكنتان بينما كانت يده اليسرى الشاحبة على صدره فى محاولة يعوق بها مفارقته للحياة ، وكان الدم ينساب من بين أصابعه • وعلى مسافة بعيدة فى الجزائر أقيمت مدينة ذات مبان مربعة منخفضة لا ترتفع الى السماء ، باهتة مع ألوان الغروب الأخيرة ، كان المراسل وهو يكد مع المجدافين ويحلم بالحركات البطيئة والأكثر بطئا لشفتى الجندى ، كان متأثرا بادراك عميق مبهم تمام الابهام • كان أسفا على جندى الفرقة الذى كان يرقد وهو يموت بالجزائر .

أما عن الشيء الذى كان يتعقب القارب وينتظره ، فلقد كان من الواضح أنه قد ازداد ضجره من التأخير • لم يعد يسمع شطر للمياه ولم يعد هناك لهيب للذيل الطويل • وكان الضوء فى الشمال لا يزال لامعا • ولكن كان واضحا أنه لم يعد أقرب للقارب • وكان دوى أمواج الشاطىء يطرق آذان المراسل أحيانا ، وأدار القارب تجاه البحر ثم جدف تجديفا أشد • وكان واضحا ، تجاه الجنوب ، أن أحد الأفراد قد أوقد نارا كالتى توقد فى المخيمات على الشاطىء • كانت منخفضة جدا وبعيدة جدا حتى يصعب رؤيتها ولكنها كانت تصدر وميضا ذا انعكاس وردى على الجرف العالى وراءها ، وكان يمكن مشاهدة ذلك من القارب•وجاءت الريح أقوى ، وأحيانا تزمجر الموجة فجأة ، كقطة متوحشة ، وكان فى الامكان مشاهدة بهاء ولمعان قمة الموجة المتكسرة •

تحرك الكابتن ، فى مقدمة القارب ، على زمزميته وجلس منتصبا وقال للمراسل معلقا : « ليلة طويلة جدا • » وتطلع الى الشاطىء وقال : « أولئك الرجال ، رجال رجال الانقاذ ، يتمهلون • » •

« هل رأيت ذلك الحوت يلعب حولنا ؟ »

« نعم ، رأيته ، انه حوت ضخم فعلا • » •

« ليتنى كنت أعلم أنك مستيقظ • » •

وبعد ذلك تحدث المراسل الى قاع القارب قائلا : « بيلى ! » كان هناك تفسير بطىء وتدريجى لما ألم به من تعب ثم قال : « بيلى ، هلا حللت محلى ؟ » •

فقال الزيات : « بكل تاكيد • » •

كان الضوء فى الشمال قد اختفى فى غموض ، ولكن المراسل اتبع الطريق الذى رسمه له الكابتن الذى كان متيقظا تمام التيقظ •

وفى وقت متأخر من الليل جاوزوا بالقارب مسافة أبعد الى البحر وأصدر الكابتن أمره الى الطاهى بأن يأخذ أحد المجدافين ويترك القارب يواجه البحار ، كان عليه أن يصيح لو أنه سمع دوى أمواج الشاطىء ٠ لقد مكنت هذه الخطة كلا من الزيات والمراسل من أن يستريحا معا ، وقال الكابتن : « سنعطى هذين الولدين فرصة ليستعيدا نشاطهما مرة أخرى ٠ » والتويا وهما يهبطان ، وبعد بضع ثرثرات فى بادىء الأمر ، وارتعاشات ، ناما مرة أخرى نوما عميقا ، ولم يعرفا أنهما قد خلفا للطاهى رفقة حوت آخر ، أو ربما الحوت نفسه ٠

وبينما كانت الأمواج تقصف القارب كان الرذاذ ، من وقت لآخر ، يصيب جانب القارب ويسبب لهم بللا جديدا ، ولكن لم يكن لهـذا الأمر من القوة مايقلق رقادهم ٠ كان قد أثر عليهم شطر الريح والمـاء المشئوم ، كما لو كان قد أثر على مومياءات ٠

وقال الطـاهى وبصوته كل نغمات المضض كله : « يا أولاد ، لقد انجرف القارب الى نهاية قريبة جدا ٠ أظن أن من الأفضل أن يقوم واحد منكم باعادته إلى البحر ثانية ٠ » فنهض المراسل وقد سمع صوت تكسر قمم الأمواج الساقطة ٠

وبينما كان يجدف ، أخذ الكابتن يسقيه بعض الويسكى والماء ، مما أخرج البرد من جسده ، وقال : « لو أننى بلغت الشاطىء وأرانى أحـد صورة فوتوغرافية لمجداف ٠٠٠ » ٠

وكان هناك أخيرا حديث قصير :

« بيلى ! ــ بيلى ، هلا حللت مكانى ؟ »

وقال الزيات : « بكل تأكيد ٠ »

## ٧

لما فتح المراسل عينيه مرة أخرى كان البحر والسماء قد اصطبغا باللون الرمادى للون الفجر ، ثم اصطبغت المياه بعد ذلك باللون القرمزى والذهبى ، وانبلج النهار ببهائه ، بسماء زرقاء صافية وضوء شمس ملتهب على أطراف الأمواج •

لقد شيدت على الكثبان البعيدة كثير من الأكواخ الصغيرة الداكنة وكانت تتحرك فوقها طاحونة هواء طويلة بيضاء • لم يظهر على الشاطىء لا انسان ولا كلب ولا دراجة • ربما كانت الأمواج قد شكلت قرية مهجورة • وتفرس الركاب الشاطىء ، وعقد مؤتمر فى القارب ، وقال الكابتن : « حسن ، اذا لم تصلنا أية معونة ، فقد يكون من الأفضل أن نجرب دفعه خلال أمواج الشاطىء لتدفعه بعيدا • اننا ان بقينا هنا مدة أطول ، فسيزداد وهننا ولا نقوى على أن تقوم بشىء على الاطلاق • » وافق الباقون فى سكون على هذه الحكمة • وكانت وجهة القارب نحو الشاطىء ، وتعجب المراسل عما اذا لم يكن هناك من أحد قط قد صعد طاحونة الهواء العالية ، أو أطلوا قط تجاه البحر • كانت هذه الطاحونة ماردا يقف وقد أدار ظهره لهم فى محنتهم • كانت تمثل فى نظر المراسل ، الى حد ما ، صفاء الطبيعة وسط نضالات الفرد — الطبيعة فى الريح والطبيعة فى رؤيا الرجال • لا تبدو فى نظره قاسية اذن ، ولا خيرة ولا خائنة ولا حكيمة ، ولكنها كانت لا تبالى ، لا تبالى بصراحة • ربما كان من الصواب لرجل فى هذا الوضع ، متأثر بلا مبالاة الكون ، أن يرى عيوب حياته العديدة ويرى فى مخيلته أنها شريرة ، ويأمل أن تتاح له فرصة أخرى ؛ ويبدو التمييز بين الصواب والخطأ واضحا له بصورة غير معقولة ، اذن ، فى هذا الجهل الجديد لحافة القبر ، ويدرك أنه لو أتيحت له فرصة أخرى قد يصلح من سلوكه وكلماته وقد يصبح أفضل وأكثر اشراقا أثناء تقديم أو شرب الشاى •

وقال الكابتن : « والآن ، يا أولاد ، من المؤكد أن القارب سيغرق •

ان كل ما نستطيع أن نفعله هو أن نستغله الى أقصى حد ممكن ، ثم اذا ما غرق ، نقفز منه سابحين تجاه الشاطىء • اهدأوا الآن ولا تقفزوا حتى يغرق تماما • » •

وأمسك الزيات بالمجـدافين ورأى من فوق كتفيه أمواج الشاطىء وقال : « كابتن ، أظن أن من الافضل أن نمهد له الســبيل ونبقى على اصطدامه بالبحار ونعيده للداخل • » •

فقال الكابتن : « وهو كذلك يا بيلى ، أعده الى الداخل » • ثم قام الزيات بأرجحة القارب وكان الطاهي والمراسل وهما جالسان في الدفة مضطرين لأن يتطلعا فوق أكتافهما ليتأملا الشاطىء المهجور الذى لا يبالى بهم •

كانت الامواج الضخمة القريبة من الشاطىء ترفع القارب عاليا حتى كان في امكان الرجال أن يروا مرة أخرى صحائف المياه البيضاء تندفع أعلى الشــاطىء المنحرف ، وقال الكابتن : «اننا لن نتمكن من الاقتراب اقترابا شديدا • » • وفى كل مرة كان فى استطاعة المرء أن يشد انتباهه من الأمواج المتلاطمة ويدير بصره الى الشاطىء ، كانت هناك ميزة فريدة فى التعبير بالعيون أثناء هذا التأمل ، اذ عنـدما لاحظ المراسل الآخرين علم أنهم لم يكونوا خائفين ، وان كان المعنى الكامل لنظراتهم مستتر •

أما بالنسبة لنفسه فقد كان شديد الاجهاد حتى أنه لا يستطيع أن يتقبل أساسا هذه الحقيقة • لقد حاول أن يجبر ذهنه على التفكير فيها ، ولكن كان ذهنه تتحكم فيه العضلات فى هذه الآونة وقالت العضلات انها لا تبالى • لقد خطر له فقط أنه لو غرق فقد يكون فى هذا خزى •

لم تكن هناك كلمات سريعة ولم يكن هنــاك شحوب ولا اضطراب واضح • كان الرجال يتطلعون فقط الى الشــاطىء ، ثم قال الكابتن : « تذكروا الآن أن تتخلصوا تماما من القارب عندما تقفزون • »

وفجأة سقطت تجاه البحر قمة موجة متلاطمة سقطت بتكسر مدو وجاء السمك الابيض الطويل مندفعا الى القارب محدثا دويا ٠

وقال الكابتن : « اثبتـوا الآن » وكان الرجال سـاكتين ثم أداروا وجوههم من الشاطىء الى السمك وانتظروا ٠ وتحرك القارب أعلى المنحدر وقفز على القمة الثائرة ووثب فوقها وتحرك أسفل ظهر الموجة ، وشحن القارب ببعض الماء ونزحه الطاهى ٠

ولكن قمة الموجة التالية تكسرت أيضا ، وأصاب القارب الفيضان المتساقط الفائر من المـاء الأبيض ، فأخــذ القارب يدور دورة تكاد تكون عمودية ، وتدفق الماء من كل الجوانب ٠ وفى تلك الاثنــاء كان المراسل يضع يديه على حافة القارب ، وعندما دخل المــاء الى ذلك المكان سحب أصابعه بسرعة ، كما لو كان يعارض فى بللها ٠

واذا بالقارب الصغير ، وقد ثمل من هذا الثقل المائى ، يترنح ويزداد عمقا فى البحر ٠

فقال الكابتن : « انزحه أيها الطاهى ! انزحه ! » ٠

فقال الطاهى : « وهو كذلك يا كابتن ٠ » ٠

وقال الزيات : « والآن ، يا أولاد ، ستكون الموجة التالية فى صالحنا بكل تأكيد ٠ » واستطرد : « فكروا فى أن تقفزوا من القارب ٠ »

وتحركت الموجة الثالثة أماما وكانت ضخمة هائجة لاتخمد ٠ لقـد ابتلعت القارب تماما ، وفى آن واحد تقريبا سقط الرجال الى البحر ٠ وكان جزء من طوق النجاة قابعا فى قاع القارب ، ولما قفز المراسل من القارب الى البحر أمسك بهذا الجزء الى صدره بيده اليسرى ٠

كانت مياه شهر يناير ثلجية وتذكر المراسل على الفور أنها كانت أبرد مما كان يتوقع أن يجدها عليه على شاطىء فلوريدا ٠ لقد بدا هذا

لذهنه المبهور كحقيقة هامة تكفي ملاحظتها في وقتها • كانت برودة الماء محزنة بل مفجعة • كانت هذه الحقيقة مشوبة نوعا ما وملتبسة برأيه عن موقفه الشخصي ، ومن ثم فقد بدا أنه سبب ملائم لذرف الدموع • لقد كان الماء باردا •

وعندما بلغ السطح كان لا يعي من شيء الا وجود الماء الصاخب ، وبعد ذلك رأى أقرانه في البحر • كان الزيات في مقدمة السباق ، يسبح بقوة وبسرعة • وبعيدا الى يسار المراسل كان ظهر الطاهي الضخم الأبيض بما به من حروق بارزا من الماء ، وفي المؤخرة كان الكابتن ممسكا بيد قوية بقاعدة القارب المقلوب •

هناك صفة معينة ثابتة لأى شاطيء ، تعجب لها المراسل بين غموض البحر •

لقد بدت الرحلة أيضا شديدة الجاذبية ، ولكن المراسل كان على علم بأنها رحلة طويلة ، وأخذ يجدف على مهل ، ووقعت تحته قطعة من جهاز الانقاذ • كان يدور أحيانا أسفل منحدر الموجة كما لو كان على مركبة تسحب باليد •

ولكنه بلغ أخيرا مكانا في البحر كان التنقل فيه محفوفا بالصعاب • لم يتوقف عن السباحة ليتعرف على سلوك التيار الذى ألم به ، ولكن تقدمه توقف هناك • كان الشاطيء شاخصا أمامه كجزء من مشهد على المسرح ، وتطلع اليه وأدرك بعينيه كل تفاصيله •

ولما ابتعد الطاهي كثيرا الى اليسار ، ناداه الكابتن قائلا : « در الى الخلف أيها الطاهي ، در الى الخلف واستخدم المجداف • »

« وهو كذلك يا سيدى » واستدار الطاهي الى الخلف وجدف بمجداف ، واتجه الى الأمام كما لو كان زورقا صغيرا •

وعلى الفور مر القارب أيضا متجها الى يسار المراسل والكابتن ممسك بيد بقاعدة القارب • لقد بدا كرجل يرفع نفسه ليطل فوق سياج

عريض ان لم يكن يطل على الألعاب غير العادية التى يقوم بها القارب • ان ما أثار دهشة المراسل هو أن الكابتن كان لايزال ممسكا به •

لقد ازداد قربهم من الشاطىء ـ الزيات ، الطاهى والكابتن ـ وفى أعقابهم الزمزمية وهى تثب مرحة فوق البحار •

وظل المراسل فى قبضة هذا العدو الغريب ـ التيار • وامتد أمامه الشاطىء بمنحدره الأبيض من الرمال وجرفه الأخضر الذى تعلوه الأكواخ الصغيرة الساكنة ، كما لو كان صورة • لقد كان شديد القرب منه فى تلك الآونة ، وكان متأثرا كشخص بأعلى المسرح يتطلع الى مشـــهد من « بريتانى » أو « الجزائر » •

وفكر : « هل أنا مقدم على الغرق ؟ هل هذا ممكن ؟ أيمكن أن يكون هذا ؟ أيمكن أن يكون هذا ؟ » ربما فكر المرء أن موته الشخصى هو آخر ظاهرة من ظواهر الطبيعة •

ولكن ربما لفته بعد ذلك موجة وأخرجته من هذا التيار البسيط المميت ، اذ اكتشف فجأة أنه يستطيع أن يتقدم ثانية تجاه الشاطىء وبعد ذلك كان لا يزال على علم بأن الكابتن كان ممسكا بيد بقاعدة القارب ، وكان قد أشاح بوجهه عن الشاطىء وأداره تجاهه وكان يناديه باسمه قائلا : « عد الى القارب ! عد الى القارب ! »

وفى نضاله لبلوغ الكابتن والقارب ، فكر فى أنه فى حالة ما اذا صار المرء مجهدا تمام الاجهاد ، فلابد أن يكون الغرق ، فى الحقيقة ، أمرا مريحا ـ فيه زوال للخصومات مصحوب بدرجة كبيرة من الراحة ، وكان مغتبطاً بهذا ، لأن الشىء الرئيسى الذى كان يشغل تفكيره لبضع لحظات هو الفزع من الألم الشديد المؤقت • لم يشأ أن يصاب بضر •

ورأى فى الحال رجلا يجرى على طول الشاطىء ، كان ينزع ملابسه بسرعة مذهلة جدا : السترة ، السروال ، القميص ، وكل شىء نزعه عنه بسرعة سحرية •

وصاح الكابتن : « عد الى القارب ! »

« وهو كذلك يا كابتن · » وبينما كان المراسل يجدف رأى الكابتن يترك نفسه ليسقط فى القاع ويترك القارب · ثم قام المراسل بمعجزته الوحيدة البسيطة فى الرحلة · أمسكت به موجة هائلة وقذفت به بسهولة وبسرعة فائقة تماما فوق القارب ، وبعيدا فيما وراءه · لقد ظن أنها حادثة من حوادث الرياضة ومعجزة حقيقية من معجزات البحر ، اذ ليس القارب المقلوب فى أمواج الشاطىء بلعبة يلهو بها انسان يسبح ·

وبلغ المراسل منطقة يصل فيها الماء فقط الى وسطه ولكن حالته لم تمكنه من أن يصمد لأكثر من لحظة ، وكانت كل موجة توقعه فى كوم ، والتيار السفلى يمتصه ·

ثم رأى الرجل الذى كان يجرى وينزع ملابسه وينزع ملابسه وهو يجرى ، رآه يثب الى الماء · لقد جذب الطاهى للشاطىء ، ثم خاض الماء فى اتجاه الكابتن ، ولكن الكابتن لوح له بأن يبتعد عنه وأن يتوجه الى المراسل · لقد كان عاريا ــ عاريا كشجرة فى الشتاء ، ولكن كانت تحوط رأسه هالة ، وكان يتلألأ كقديس · لقد جذب جذبة قوية وسحب سحبة طويلة ، جذب يد المراسل جذبة عنيفة · أما المراسل ، فقد قال وهو يعنف فى أبسط الصور : « شكرا أيها الرجل العجوز » ولكن الرجل صاح فجأة : « ما هذا ؟ » وهو يشير بأصبع سريع ، فقال المراسل : « أغرب عنى · »

وكان الزيات راقدا فى المياه الضحلة ووجهه الى أسفل · لقد لمست جبهته الرمال التى كان ينحسر عنها البحر من وقت لآخر وبين كل موجة ·

لم يعلم المراسل كل ما حدث بعد ذلك · ولما بلغ مكانا آمنا تهاوى يضرب الرمل بكل جزء دقيق فى جسده · لقد كان كمن سقط من فوق سقف ، ولكنها كانت سقطة هو راض عنها ·

وبدا الشاطىء وقد أصبح فجأة مكتظا برجال معهم بطانيات وملابس وزمزميات ، ونساء معهن كنكات قهوة وكل الأدوية التى تقدسها عقولهم . كان ترحيب اليابس بالرجال المنتشلين من البحر ترحيبا حارا كريما ، ولكن مع ذلك كان هناك شخص يقطر ماء يحملونه ببطء الى الشاطىء ، وكان ترحيب اليابس به يمكن أن يكون فحسب كرم ضيافة مختلف ومشئوم ، لقد كان كرم ضيافة القبر .

وعندما حل الليل أخذت الأمواج البيضاء تخطو جيئة وذهابا فى ضوء القمر ، وأخذت الريح تنقل صوت البحر العظيم للرجال الذين بلغوا الشاطىء فأحسوا بأنهم يمكن أن يكونوا اذن مترجمين لصوته .

# الفندق الأزرق

# ١

كان فندق بالاس فى « فورت رومبر » مطليا باللون الأزرق الفاتح ، فى لون ظل أرجل نوع من طائر البلشون ، الذى يستدل به على مكان الطائر وسط أى منظر . كان فندق بالاس ، اذن ، صاخبا وصارخا دائما بطريقة تجعل مناظر « نبراسكا » الحلوية الباهرة للعيون فى الشتاء ، تبدو فحسب كشجيرة رمادية نبتت فى مستنقع . كان قائما وحده وسط المروج ، واذا ما تساقط الجليد لم تكن ترى المدينة على بعد مائتى ياردة ، ولكن اذا مانزل المسافر عند محطة السكة الحديد ، كان مضطرا لأن يمر بفنـدق بالاس قبل أن يتمكن من بلوغ مجموعة من المنازل الخشبية التى كانت تؤلف « فورت رومبر » ، ولا يظن أن أى مسـافر يمكن أن يمر على فنـدق بالاس دون أن يتطلع اليه . لقد برهن « بات سكالى » مالك الفندق ، على أنه هو نفسه كان أسـتاذا فى الاستراتيجية عندما اختار الوان طلائه . وفى الحقيقـة كان يحـدث فى الأيام الصحوة عنـدما كانت القطارات السريعة الضخمة العابرة للقارة والمؤلفة من صفوف طويلة من عربات البولمـان المتـارجحة تمـر عبر فورت رومبر ، ان كان الركاب يسحرهم المنظر وتذهب بعقولهم الألوان الحمراء الضـاربة للون البنى والتقسيمات الفرعية لألوان الشرق الخضراء الداكنة التى عبرت فى ضحكة ، عن خزى وشفقة وفزع . ولكن فى نظر مواطنى مدينة المروج هذه وفى نظـر الأشـخاص الذين قد يتوقفون هنـا بطبيعـة الحال ، كان

« بات سكالى » قد قام بعمل بارع . ومع هذا الغنى والبهاء ، لم يكن لهذه الطوائف والطبقات والشخصيات المغرورة التى كانت تتقاطر عبر « رومبر » على قطارات السكة الحديد يوما فى أثر يوم ، لم يكن لها لون مشترك .

وكما لو لم يكن هذا البهاء الواضح لمثل هذا الفندق الأزرق كافيا للاغراء ، فقد كان من عادة سكالى أن يتوجه كل صباح ومساء ليلتقى على مهل بالقطارات التى كانت تتوقف ب « رومبر » ويباشر اغراءاته على أى شخص قد يرى فى يده زكيبة تترنح .

وذات صباح عندما كانت القاطرة المغطاة قمتها بالجليد تجر صفها الطويل من عربات البضاعة وعربة المسافرين الوحيدة بها ، الى المحطة باشر « سكالى » اغراءه العجيب على أفراد ثلاثة كان أحدهم سويديا مترنحا ثاقب البصر ، معه حقيبة ضخمة رخيصة لامعة ، وآخر كان راعى بقر مديد القامة برونزى اللون ، كان فى طريقه الى عزبة لتربية البقر قرب خط « داكوتا » ، وثالث كان رجلا ضئيلا صامتا قادما من الشرق ولم يكن يبدو عليه ذلك ولم يفصح عنه . واستطاع سكالى أن يحيلهم عمليا الى أسرى له . لقد كان رشيق الحركة ، مرحا ولطيفا حتى ان كل واحد منهم ربما أحس أنه قد يكون فى منتهى الوحشية لو حاول الهروب . ساروا فى تؤدة فوق الطوارات الخشبية التى كانت تصدر صريفا ، فى حراسة الرجل الايرلندى الضئيل المتحمس ، وكان سكالى يرتدى غطاء رأس من الفرو السميك ضغطه باحكام الى أسفل فوق رأسه فأدى هذا الى أن برزت أذناه الحمراوان الى الخارج فى صلابة ، كما لو كانت قد قدتا من قصدير .

واخيرا قادهم سكالى فى عناية وحسن ضيافة ، عبر بوابات الفندق الأزرق . كانت الغرفة التى دخلوها صغيرة . لقد بدت كمجرد معبد مناسب لموقد ضخم ، كان يطنطن وسطها ، بجبروت أشبه بجبروت الآلهة ، وعلى نقط عديدة من سطحه كان الحديد مضيئا ، وكان يبرق ببريق أصفر من فعل الحرارة . وبجانب الموقد جلس « جونى »

ابن سكالى ، يلعب لعبة الخمس ورقات مع فلاح عجوز له شارب جمع لونه بين الرمادى والرملى . كانا يتشاجران وكثيرا ما كان الفلاح العجوز يدير وجهه تجاه صندوق من نشارة الخشب ـ قد تلون باللون البنى من فعل عصير التبغ ـ كان خلف الموقد ، وكان يبصق بصورة تنم عن الضجر والانفعال . وبكلمات رقيقة أنهى سكالى لعب الورق ، وبعث بابنه الى الطابق العلوى ومعه جانب من حقائب الضيوف الجدد ، وقادهم هو نفسه الى ثلاثة أحواض من أبرد المياه فى العالم . وصقل راعى البقر والشرقى نفسيهما بهذا الماء حتى صارا فى حمرة النار حتى بدا كما لو كان ذلك الماء نوعا من طلاء المعادن ، فى حين غمس السويدى أصابعه فقط فى حذر وارتعاش . كان واضحا أنه طوال هذه السلسلة من الاحتفالات البسيطة أن أحس المسافرون الثلاثة بأن سكالى كان شديد الكرم . كان يغدق عليهم المزيد من الكرم ، وكان يسلم المنشفة من واحد للآخر بطريقة تنطوى على دافع انسانى .

وبعد ذلك توجهوا الى الغرفة الأولى ، وبينما كانوا جلوسا بالقرب من الموقد ، استمعوا الى دردشة سكالى الفضولية وهو يتحدث الى بناته اللاتى كن يقمن باعداد وجبة الغداء . كانوا يفكرون فى هدوء رجال خبراء يخطون بعناية وسط أشخاص جدد . وعلى الرغم من ذلك فقد أشاح الفلاح العجوز ، الثابت المحصن فى كرسيه بالقرب من أدفأ جزء فى الموقد ، أشاح وجهه عن صندوق نشارة الخشب من وقت لآخر ووجه الى الغرباء حديثا عاديا منمقا ، وعادة ما كانوا يردون عليه بجمل قصيرة وكافية سواء كان المجيب راعى البقر أو الشرقى ، أما السويدى فلم يقل شيئا . كان يبدو مشغولا فى عمل تقييم خفى لكل شخص فى الغرفة . ربما ظن واحد أن لديه احساس الشك السخيف الذى ينقلب الى جريمة . كان يشبه رجلا مذعورا ذعرا شديدا .

وبعد ذلك ، فى العشاء ، تحدث قليلا ووجه حديثه كله الى سكالى . لقد تطوع وذكر أنه قدم من نيويورك حيث اشتغل خياطا لعشر سنوات . بدت هذه الحقائق جذابة فى نظر سكالى ، الذى تطوع

بعد ذلك فذكر أنه عاش فى رومبر لأربع عشرة سنة • فتساءل السويدى عن المحاصيل وأجر العمل ، وبدا أنه كاد ينصت الى اجابات سكالى المسهبة • واستمرت عيناه فى التنقل من رجل الى رجل •

وأخيرا ، وفى ضحكة وغمزة ، قال بأن بعض هذه الجاليات الغربية كانت خطرة جدا ، وبعد أن تفوه بهذه العبارة عدل ساقيه تحت المنضدة وأمال رأسه وضحك ثانية بصوت عال . كان واضحا أن الاشارة لم تكن تعنى شيئا بالنسبة للآخرين . لقد تطلعوا اليه فى صمت وهم يتعجبون .

## ٢

بينما كان الرجال يعودون الى الغرفة الأمامية فى جماعة ، متثاقلين ، كانت النافذتان الصغيرتان تعرضان مشاهد لبحر هائج من الجليد ، وكانت أذرعة الريح الضخمة تقوم بمحاولات ـ قوية ودائرية ولا جدوى من ورائها ـ لتعانق الأوراق وهى تهب مسرعة • ووقف عمود بوابة ، أشبه برجل ثابت وجهه أبيض ، وقف مشدوها وسط هذا الغضب البالغ . وأعلن سكالى فى صوت مخلص عن قدوم عاصفة ، وأعلن ضيوف الفندق الأزرق عن تقبلهم لهذا النبأ وهم يشعلون غلايينهم ، فى زمجرة مصحوبة بتكاسل • لا يمكن لأية جزيرة فى البحر ، فى درجة برودة هذه الغرفة الصغيرة ، أن تخلو من موقدها المدوى • ثم تحدث جونى ، ابن سكالى ، فى نغمة وحدد رأيه فى مقدرته كلاعب ورق ، وتحدى الفلاح العجوز ذا الشارب ذى اللونين الرمادى والرملى بأن يلاعبه لعبة الورقات الخمس ، فوافق الفلاح فى سخرية مرة تنم عن الغرور • وجلسا بالقرب من الموقد وربعا ركبتيهما تحت لوحة خشبية عريضة ، وراقب راعى البقر والشرقى اللعب فى اهتمام ، وظل السويدى بالقرب من النافذة وحده ، ولكن ملامحه كانت تعبر عن ثورة غامضة •

وانتهى فجأة لعب جونى والرجل ذو اللحية الرمادية ، انتهى فجأة بشجار آخر ، ونهض الرجل العجوز وهو يلقى بنظرة سخرية حادة الى غريمه ، وفى بطء زرر سترته ومشى فى عزة نفس خرافية وغادر الغرفة • وفى السكون الحذر الذى ران على كل الرجال ، ضحك السويدى، وكان ضحكه يرن بصورة تكاد تكون صبيانية ، وكان الرجال فى تلك الآونة قد بدءوا يتطلعون اليه شزرا كما لو كانوا يودون أن يعلموا ما الذى آلمه •

وشكلت لعبة جديدة من باب المزاح ، وتطوع راعى البقر بأن يصبح شريك جونى ، ثم تلفتوا جميعهم ليسألوا السويدى أن يكون شريكا للشرقى الضئيل ، فسأل بعض أسئلة عن اللعبة ، ولما علم أنها تحمل عدة أسماء وأنه قد سبق له أن لعبها تحت اسم الشهرة ، قبل الدعوة • وخطا نحو الرجال فى عصبية ، كما كان يتوقع أن يهاجموه ، واخيرا جلس واخذ يتفرس الوجوه ثم ضحك ضحكة مجلجلة . كانت الضحكة غريبة جدا حتى أن الشرقى رفع ناظريه بسرعة وجلس راعى البقر جاداً وقد فغر فاه ، وتوقف جونى ، ماسكا بالورق بأصابع ثابتة .

وبعد ذلك سادت فترة سكون قصيرة ثم قال جونى : « حسن ، لنلعبها .اسرعوا الآن » فجذبوا كراسيهم الى الأمام حتى تجمعت ركبهم تحت اللوحةالخشبية . وبدءوا فى اللعب ، وكان اهتمامهم باللعب قد ادى الى ان نسى الآخرون سلوك السويدى .

كان راعى البقر من ضاربى الموائد ، وكل مرة يمسك فيها باوراق رابحة كان يرمى بها الواحدة فى اثر الآخرى ، فى عنف على المائدة المرتجلة . واتخذ سبيل الحيل فى هيئة استعلاء وكبرياء أثارت ثورات من السخط فى قلوب خصومه • ولا شك أن لعبة بها ضارب مائدة من المؤكد أن تصبح لعبة متوترة . وكانت ملامح الشرقى والسويدى تنم عن الاحتقار كلما كان راعى البقر يرمى بآساته وملوكه ، بينما كان جونى يضحك ويضحك وعيناه تشعان بريقا .

ونظرا لانهماكهم فى اللعب لم يفكر أحد منهم فى الأساليب الغريبة التى كان يتبعها السويدى . لقد كانوا منتبهين انتباها شديدا للعبة ؛ وأخيرا ، خلال فترة هدوء سببها دور جديد فى اللعب ، وجه السويدى كلامه فجاة الى جونى قائلا : « أعتقد انه قتل هنا عدد كبير فى هـذه الغرفة » . فتدلت فكوك الآخرين وتطلعوا اليه .

فقال جونى : « عن ماذا تتحدث بحق الشيطان ؟ »

فضحك السـويدى ثانيـة ضـحكته الصـارخة الملأى بلون من الشـجاعة والتحـدى الزائف ، وأجاب قائلا : « آه ، أنت تعلم تماما ما أعنيه . » .

فقال جونى محتجا : « أكون كاذبا لو كنت أعلم . » وتوقف لعب الورق وحملق الرجال فى السويدى ، وكان واضحا أن جونى قد أحس بأنه ، كابن صاحب الفندق ، يجب أن يقوم بتحر مباشر فقال متسائلا : « والآن ماذا ترمى اليه يا سيد ؟ » فغمز له السويدى بعينه . كانت غمزة مملوءة بالخبث . كانت أصابعه تهتز على حافة المائدة ، ثم قال : « آه ، ربما ظننت اننى لا أفقه شيئا. هل ظننتنى حديث عهد باللعب؟»

فأجاب جونى : « اننى لا أعرف عنك شيئا . » واستطرد قائلا : « وليست لدى أية فكرة على الاطلاق عن أين كنت . ان كل ما أستطيع أن أقوله هو أننى لا أعرف ما ترمى اليه . ولم يقتل أحد على الاطلاق فى هذه الغرفة . » .

ثم تحدث راعى البقر الذى كان يحملق فى ثبات فى السويدى ، وقال : « ما خطبك يا سيدى ؟ » .

فبدا للسويدى بوضوح أنه كان فى خطر بالغ ، فارتعد واستحال لون بشرته أبيض قرب شـفتيه ونظر نظرة تضرع فى اتجـاه الشرقى الضئيل ، وخلال هذه اللحظات لم ينس أن يتخذ هيئة شجاع الخمر، ووجه حديثه الى الشرقى فى تعليق ساخر : « يقولون انهم لا يفقهون ما أعنيه . » .

فاجاب الأخير بعد تفكير طويل وحـذر ، قائلا بلا تأثر : « انني لا أفهمك . » .

وبعد ذلك قام السويدى بحركة عبرت عن ظنه أنه واجه خيانة من الجانب الوحيد الذى كان يتوقع منه الحنان ان لم يكن المعونة ، وقال : « آه ، أرى أنكم جميعا ضدى . أرى ... » .

كان راعى البقر فى حالة من السخط الدفين ، فقال صائحا : « قل » قالها وهو يوقع الكرسى القماش بعنف فوق اللوحة الخشبية واستطرد : « قل ، ماذا تعنيه ، هه ؟ »

فنهض السويدى واقفا بسرعة رجل يهرب من ثعبان على الأرضية وصاح قائلا : « انني لا أريد أن أتشاجر . » واستطرد : « انني لا أريد أن أتشاجر . » .

ومدد راعى البقر قدميه الطويلتين فى تكاسل وتعمد ، وكانت يداه فى جيبيه ، وبصق فى صندوق نشارة الخشب ، وقال متسائلا : « حسن ، من بحق الشيطان فكر فى أنك ستتشاجر ؟ » .

وفى سرعة أسند السويدى ظهره تجاه ركن من أركان الغرفة . كانت يداه فى وضع وقائى أمام صدره ، ولكنه كان يحاول بوضوح أن يسيطر على خوفه ، وقال مرتجفا : « أيها السادة ، أظن انني سأقتل قبل أن اغادر هذه الدار ! » وكان أشبه ببجعة على شفا حفرة من الموت . وكان فى استطاعته أن يرى من خلال النافذتين : الجليد وهو يستحيل الى اللون الأزرق فى ظل الغسق ، والريح تندفع بشدة تجاه الدار ، وكان شيء ما متحرك يدق بانتظام قبالة المائدة كما لو كانت روح تدق .

وانفتح الباب ودلف منه سكالى نفسه . لقد توقف فى دهشة وهو يلاحظ الموقف المفجع الذى كان فيه السويدى ، ثم قال : « ما الخطب هنا ؟ » .

فأجابه السويدى فى سرعة وحماس : « هؤلاء الرجال على وشك أن يقتلونى . » .

فصاح سكالى قائلا : « يقتلوك ! » واستطرد : « يقتلوك ! ماذا تقول ؟ »

فصدرت من السويدى حركة كحركة الشهيد .

واستدار سكالى عابسا تجاه ابنه وقال : « ما هذا يا جونى ؟ »

فاستبدت الكآبة بالفتى وأجاب : « لعنة الله على اذا كنت أعلم » واستطرد : « اننى لا أستطيع أن أفقه شيئا . » وبدأ فى خلط ورق اللعب وكان يضربه ببعضه ضربة غاضبة ، واستطرد قائلا : « يقول ان عددا كبيرا من الأفراد قد قتلوا فى هذه الغرفة أو شيئا من هذا القبيل . ويقول انه على وشك أن يقتل هنا أيضا . لا أدرى ما الذى يؤلمه . انه مجنون ، ومن ثم فلن يستبد بى العجب » .

ثم تطلع سكالى باحثا عن تفسير من راعى البقر ، ولكن راعى البقر هز كتفيه ببساطة .

فقال سكالى ثانية للسويدى : « يقتلك ؟ » واستطرد : « يقتلك؟ أيها الرجل ان بك مسا . »

فانفجر السويدى قائلا : « آه ، أنا أعلم » واستطرد : « أعلم ما سيحدث ، نعم ، أنا مجنون — نعم . نعم ، بلا شك أنا مجنون — نعم . ولكنى أعرف شيئا واحدا ... » وبدا نوع من عرق الأسى والخوف على وجهه ، واستطرد : « أعلم أننى لن أغادر هذا المكان وأنا على قيد الحياة . »

وجذب راعى البقر نفسا عميقا كما لو كان ذهنه يمر بآخر مراحل الهلاك وقال هامسا لنفسه : « حسن ، اننى بائس . » .

واستدار سكالى فجأة وواجه ابنه قائلا : « لقد أتعبت هذا الرجل ! »

كان صـــوت جونى عاليا بما يحمله من غم ، وقال : « ويحك يا الهى ، اننى لم أفعل له شيئا ٠ » ٠

وقاطعهم السويدى قائلا : « أيها الســادة لا تعـكروا صفوكم . اننى سأغادر هذه الدار ٠ سأنصرف لأننى » ـ واتهمهم بنظرته التى صوبها اليهم بصورة مسرحية ـ « لأننى لا أريد أن أقتل ٠ » ٠

واشتد غضب سكالى من ابنه وقال له : « هلا أخبرتنى ما الخطب أيها الشيطان الصغير ؟ ما الخطب ، على أية حال ، أفصح ! »

فصاح جونى فى خيبة أمل قائلا : « يا للعــار ! » واســتطرد : « الم أقل لك اننى لا علم لى ؟ انه ـ انه يقول اننا نريد ان نقتله ، وهذا هو كل ما أعرفه ٠ لا أدرى ما الذى يؤلمه ٠ » ٠

واســـتمر السويدى يكرر قوله : « لا ضير يا ســـيد سكالى ، لا ضير . سأغادر هـــذه الدار . سأنصرف لاننى لا اريد ان أقتـــل ، نعم ، لاشك اننى مجنون ـ نعم، ولكننى اعلم أمرا واحدا ! سأنصرف . سأغادر هـــذه الدار ٠٠ لا ضـــير ، يا ســيد سـكالى ، لا ضـير ٠ سأنصرف » .

وقال سكالى : « لن تنصرف . » واستطرد : « انك لن تنصرف حتى أتعرف على السبب ٠ لو أن شخصا ضايقك فسأتولى أمره ٠ هـذه دارى ولن أسمح بأن يتكدر شخص آمن هنا ٠ » ونظر نظرة مخيفة لكل من جونى وراعى البقر والشرقى ٠

وتحرك السويدى تجاه الباب الذى كان يفضى الى الدرج وهـو يقول : « لا يضير ، يا سيد سكالى ، لا يضير ، سأنصرف . لا أريد أن أقتل ٠ » لقد كان واضحا أن مقصده هو أن يتوجـه فورا بحثا عن حقائبه .

وصاح سكالى بصورة جازمة : «كلا، كلا» ولكن الرجل ذا الوجه الشاحب زلق من جانبه واختفى ، وقال سكالى فى قسوة : « الآن » واستطرد : « ماذا يعنى هذا ؟ »

فصاح جونى وراعى البقر معا : «ويحك، اننا لم نفعل به شيئا !»

وكانت عينا سكالى باردتين وقال : « كلا » واستطرد : « لم تفعلا ؟ » .

وأقسم جونى باغلظ الأيمان وقال : « ويحك ، هذا وغد من أشد الأوغاد الذين رأيتهم وحشية . اننا لم نفعل شيئا على الاطلاق . كنا نجلس هنا نلعب الورق فحسب وهو ... » .

وفجأة تحدث الوالد الى الشرقى وقال متسائلا : « يا سيد بلانك ، ماذا كان هؤلاء الأولاد يفعلون ؟ » .

وفكر الشرقى مرة أخرى وقال أخيرا فى بطء : « لم أشهد أى شيء خطأ على الاطلاق . » .

وبدأ سكالى فى الصياح : « ولكن ماذا يعنى هذا ؟ » وحملق فى ابنه بشراسة وقال : « يا بنى ان لدى من العقل ما يدعنى أجلدك على هذا الأمر » .

وكان جونى قد جن جنونه فقال صائحا فى أبيه : « حسن ، ماذا فعلت ؟ »

## ٣

وأخيرا قال سكالى موجها حديثه الى ابنه وراعى البقر والشرقى. « أظن أن السنتكم قد ألجمت . » وفى نهاية هذه العبارة الساخرة غادر الغرفة .

وفى الطابق العلوى كان السويدى يربط أحزمة حقيبته الضخمة بسرعة . وقد حدث أن كان ظهره مستديرا نصف استدارة تجاه الباب ، فلما سمع ضوضاء هناك استدار ونهض واقفا وصرخ صرخة مدوية . كان وجه سكالى المتغضن يبدو مخيفا فى ضوء المصباح الصغير الذى كان يحمله ، وكان هذا الضياء الأصفر ، الذى كان يشع الى أعلى ، يلون ملامحه البارزة فحسب ، وترك عينيه ، مثلا ، فى ظل غامض . كان أشبه بالقاتل .

وقال متعجبا : « يا رجل ! يا رجل ! هل جننت ؟ »

فرد عليه الآخر قائلا : « آه ، لا ! آه ، لا ! » واستطرد : هناك أناس فى هذا العالم يعلمون تقريبا قدر ما تعلم ــ أتفهم ؟ » .

ووقفا للحظة يحملق كل منهما فى الآخر ، وبدت على وجنتى السويدى الشاحبتين شحوب الموتى ، بدت بقعتان قرمزيتان فاتحتان ذات حافتين مدببتين ، كما لو كانتا قد صبغتا بعناية . ووضع سكالى المصباح على المائدة وأجلس نفسه على حافة السرير . وتحدث فى تفكير عميق وقال : « أنت مجنون ، اننى لم أسمع قط عن مثل هذا الأمر فى حياتى . انه خلط كامل . بشرفى ، لا يمكن أن أفكر كيف طرأ هذا على ذهنك قط . » وعلى الفور رفع عينيه وتساءل : « وهل أنت متأكد من أنهم مقدمون على قتلك ؟ »

وتفرس السويدى الرجل العجوز كما لو كان يرغب فى أن يقرأ أفكاره ، ثم قال أخيرا : « اننى متأكد » كان واضحا أنه يتشكك فى أن هذا الجواب قد يعجل بثورة . وبينما كان يجذب الرباط بشدة اهتز ذراعه كله ، وكان مرفقه يترنح كقصاصة الورق .

وضرب سكالى بيده فى تأثر على خشب الفراش وقال : « ويحك يا رجل ، سيكون عندنا خط ترام كهربى فى هذه المدينة فى الربيع القادم . » .

وردد السويدى فى حماقة : « خط ترام كهربى • » •

وقال سكالى : « وسيقام هنـاك خط سكة حديد جديد من « بروكن آرم » الى هنا ولا داعى لذكر الكنائس الأربعة والمدرسة الضخمة الممتازة المبنية بالطوب ، وهناك أيضـا المصنع الكبير • ويحك ، ستصبح رومبر عاصمة فى مدى سنتين • » •

وبعـد أن انتهى السويدى من اعداد حقيبته اعتدل وقال فى شجاعة : « يا سيد سكالى ، بكم تديننى ؟ » •

فقال الرجل العجوز غاضبا : « لست مدينا لى بشىء • » •

فرد السويدى قائلا : « نعم ، أنا مدين لك . » واخرج من جيبه خمسة وسبعين سنتا وقدمها لسكالى ، ولكن الأخير جذب أصابعه فى رفض ينم عن انفة وازدراء ، ومع ذلك فقد حدث أن آخذ كلاهما يحملق بأسلوب غريب فى الثلاث قطع الفضية على راحة السويدى المفتوحة .

وقال سكالى أخيرا : « اننى لن آخذ نقودك . » واستطرد : « لا ، بعد ما قد جرى هنا . » ثم بدا أنه قد طرأت له فكرة ، فصاح قائلا : « هنا » قالها وهو يلتقط مصباحه ويتحرك تجاه الباب وقال : « هنا ! تعال معى لحظة ! »

فقال السويدى فى ذعر بالغ : « كلا » .

فحثه الرجل العجوز قائلا : « نعم ، هيا ! اريدك أن تأتى وتشاهد صورة ــ عبر البهو فقط ــ فى غرفتى ! » •

ولابد أن السويدى قد أدرك أن ساعته قد دنت ، فتدلى فكه وبدت أسنانه كأسنان الرجل الميت . وأخيرا سار فى أعقاب سكالى عبر البهو ، ولكنه كان يخطو كما لو كانت قدماه مكبلتين بالأغلال .

وسلط سكالى الضوء عاليا على غرفته ، فبدت هنـاك صـورة غريبة لفتـاة صغيرة كانت تميل على سور قد زخرف زخرفة بديعة ،

وكانت أهداب شعرها الهائلة بارزة . كان الرسم رشيقا فى رشاقة خابور مركبة جليد مستقيم ، وفضلا عن هذا فقد كان فى لون الرصاص ، وقال سكالى فى رقة : «هناك» واستطرد : « تلك صورة ابنتى الصغيرة التى توفيت . كان اسمها « كارى » كان لها أجمل شعر رأته عين ! لقد كنت مولعا بها ، هى ... » .

ولما استدار بعد ذلك رأى أن السويدى لم يكن متطلعا الى الصورة بالمرة ، ولكن بدلا من ذلك كان يراقب بحذر الظلام خلفه .

فصاح سكالى فى اخلاص : « انظر يا رجل ! » واستطرد : «تلك صورة ابنتى الصغيرة التى توفيت . كان اسمها كارى . ثم هناك صورة ابنى الأكبر « مايكل » وهو محام فى لنكولن وناجح فى عمله . لقد ربيت ذلك الولد تربية عظيمة وأنا مغتبط لهذا الآن ! انه شاب لطيف . انظر اليه الآن ، أليس شجاعا كالشعلة ، وهو هناك فى لنكولن رجل محترم ومبجل ! رجل محترم ومبجل . » هكذا أنهى سكالى حديثه فى مباهاة . وبينما كان يقول هذا ، ضرب السويدى على ظهره فى مرح .

وابتسم السويدى فى فتور .

وقال الرجل العجوز : « الآن ، هناك شىء واحد فقط غير هذا » وانحنى فجأة على الأرض ودفع ذراعه تحت الفراش . كان فى استطاعة السويدى أن يسمع صوته الخافت وقال : « وددت أن أحافظ عليه تحت سقف دارى لو لم يكن ذلك الولد جونى . ثم هناك المرأة العجوز — أين هو الآن ؟ اننى لا أضعه فى مكان واحد مرتين . آه ، الآن يخرج معك ! » ...

وعلى الفور خرج من تحت السرير فى صورة غريبة ، يجر معه معطفا قديما ملفوفا فى ربطة ، وتمتم قائلا : « لقد بحثت عنه » وانحنى على الأرض وحتوى المعطف واستخرج من قلبه زجاجة ويسكى صفراء ضاربة الى اللون البنى .

وكان أول عمل قام به هــو أن رفع الزجاجة عاليــا فى مواجهــة الضــوء . وواضح أنه لما تأكد من أنه لم يعبث بها أحد ، قدمهــا الى السويدى فى حركة عن الكرم .

كان السويدى الملعور على وشك أن يمسك بحماس بهذا العنصر من عناصر القوة ، ولكنه فجــأة دفع يده بعيــــدا ، ونظر الى ســكالى نظرة فزع .

فقال له الرجل العجوز فى حب : « اشرب » وكان قد نهض على قدميه ووقف الآن فى مواجهة السويدى وران صمت ، ثم قال سكالى ثانية : « اشرب ! » .

وضحك الســـويدى فى وحشية وجــذب الزجاجة ووضعها على فمه ، وبينما كانت شفتاه قد التوتا حول الفتحة واخذ حلقه يعمل ، كان مسلطا نظرته الملتهبة بالكراهية على وجه الرجل العجوز .

## ٤

بعد خروج سكالى ، لاذ الرجال الثــلاثة ، وكانت لوحة اللعب الخشبية لا تزال فوق ركبهم ، لاذوا لفترة طويلة بصمت مشوب بالدهشة . ثم قال جونى : « هذا أجن سويدى شهدته قط . » .

وقال راعى البقر مستهزئا : « انه ليس سويديا . » .

فقــال جونى : « حســن ، من يكون اذن ؟ » واســتطرد : « من يكون اذن ؟ »

فأجاب راعى البقر متعمدا : « هذا رأيى » واستطرد : « انه من الهولنديين » لقـــد كانت عادة كريمة فى البلاد أن يلقبوا كل الأشخاص ذوى الشـــعور الشقراء والذين يتحدثون بلســان ثقيل : بالسويديين

وكنتيجة لذلك لم تكن فكرة راعى البقر مجرد فكرة دون أن يكون لها ما وراءها . وكرر قوله « نعم ياسيدى ، ان من رايى ان هذا الفتى من الهولنديين . » .

وتمتم جونى فى عبوس وقال : « حسن ، على أية حال ، انه يقول أنه سويدى » ثم التفت الى الشرقى وقال : « ما رايك ياسيد بلانك ؟ » .

فأجاب الشرقى : « آه ، لا أدرى . » .

وتساءل راعى البقر : « حسن ، ماذا تظنون الدافع الذى دفعه الى ان يسلك هذا المسلك ؟ » فضرب الشرقى غليونه على حافة الموقد وقال : « ويحكم ، انه خائف » واستطرد قائلا : « كان واضحا أنه كان خائفا من قمة راسه الى أخمص قدميه . » .

فصاح جونى وراعى البقر معا : « مم ؟ »

ففكر الشرقى فى جوابه .

وصاح الآخران ثانية : « مم ؟ » .

« آه ، لا أدرى ، ولكن يبدو لى أن هذا الرجل قد قرأ روايات شعبية مثيرة ، ويظن أنه فعلا وسطها ، اطلاق رصاص ، وقتل ، وكل شىء . »

وقال راعى البقر وقد حل به ذعر شديد : « ولكن هذا المكان ليس بـ « يومنج » ولا بواحد من تلك الأماكن . هذه نبراسكا . » .

وأضاف جونى قائلا : « نعم ، ولكن لماذا لم ينتظر حتى يتوجه الى الغرب ؟ » .

وضحك المسافر الشرقى وقال : « لا اختلاف حتى هناك ــ لا فى هذه الأيام ، ولكنه يظهر أنه فعلا وسط جحيم . » .

وفكر جونى وراعى البقر طويلا .

وعلق جونى أخيرا قائلا : « انه أمر مضحك للغاية . » .

وقال راعى البقر : « نعم ، هذه لعبة غريبة ، ارجو الا نتجمد بالداخل ؛ اذ علينا اذن أن نتحمل هذا الرجل هنا لو ظل معنا طوال الوقت . لن يكون هناك خير فى هذا . » .

وقال جونى : « وددت لو أن أبى لفظه . » .

وعلى الفور سمعوا دقا عاليا على الدرج مصحوبا بنكت رنانة بصوت سكالى العجوز ، وكان هناك ضحك ، واضح أنه صادر عن السويدى . وحملق الرجال الجالسون حول الموقد فى غموض بعضهم فى بعض وقال راعى البقر : « واعجبا ! » وانفجر الباب ودلف سكالى العجوز من الباب فى حيوية ومرح ، وهو يثرثر مع السويدى الذى كان يتبعه ، ويضحك فى جراة . لقد كان دخول الاثنين مصحوبا بصخب كما لو كانا قادمين من قاعة وليمة .

وقال سكالى فى شدة للرجال الثلاثة الجلوس : « هيا الآن . » . واستطرد : « قوموا واعطونا فرصة لنجلس الى الموقد . » فسحب راعى البقر والشرقى كرسيهما فى أدب ليفسحا مجالا للوافدين الجديدين . ومع ذلك فقد سوى جونى نفسه فى وضع أكثر استرخاء ، وظل بلا حراك .

ثم قال سكالى : « هيا ! ابتعد هناك . » .

فقال جونى : « هناك مكان فسيح على الجانب الآخر من الموقد »

فصاح الأب : « أتظن أننا نريد أن نجلس فى تيار الهواء ؟ » .

ولكن عندئذ تدخل السويدى فى خلال ثقته بنفسه وصاح فى صوت مستبد قائلا للأب : « لا ، لا . دع الولد يجلس حيثما يحلو له . » .

فقال سكالى فى احترام : « وهو كذلك ! وهو كذلك ! » وتبادل راعى البقر والشرقى نظرات تعجب .

وشكلت الكراسى الخمسة فى صورة هلال حول جانب واحد من الموقد ، وبدأ السويدى فى الحديث ، فتحدث فى غطرسة واحتقار وغضب ، فلاذ جونى وراعى البقر والشرقى بصمت كئيب فى حين بدا سكالى العجوز متقبلا ومتحمسا له ، وكان يقطع الصمت باستمرار بصيحات تنم عن الود .

واخيرا أعلن السويدى انه ظمآن . وتحرك فى كرسيه وقال انه سيتوجه ليتناول بعض الماء فصاح سكالى على الفور : « سآتى لك به . » .

فقال السويدى فى غرور : « كلا ، سآتى به لنفسى » ونهض ومشى فى هيئة مالك يتفقد الأشخاص الذين يتولون التنفيذ فى الفندق .

وحالما صار السويدى بعيدا عن أن يسمع ما يقال قفز سكالى على قدميه وهمس للآخرين فى مبالغة قائلا : « لما كان فى الطابق العلوى ظن أننى أحاول أن أسممه . » .

وقال جونى : « أقول ، هذا يؤلمنى . لماذا لا تقذف به فى الجليد ؟ » .

فأعلن سكالى : « ويحكم ، انه على ما يرام الآن . » واستطرد : « لقد كان السبب الوحيد هو أنه قادم من الشرق ، وكان يظن أن هذا مكان قاس . هذا هو كل ما فى الأمر ، وهو الآن على ما يرام . » .

وتطلع راعى البقر فى اعجاب الى الشرقى وقال : «أنت على صواب» - واستطرد : « كنت على صواب فيما قلته عن أنه هولندى » .

وقال جون لوالده : « حسن ، ربما كان على ما يرام الآن ، ولكننى لا أرى ذلك . قبل ذلك كان خائفا ، ولكنه الآن شديد الانتعاش . » .

كان حديث سكالى دائما خليطا من اللهجة والأسلوب الايرلندى ، والحنن والأسلوب الغربى ومقتطفات مأخوذة فى صورة غريبة من عبارة شكلية من كتب القصص ومن الصحف • لقد انهال الآن على ابنه بسيل غريب من اللعنات الايرلندية ، وقال : « ماذا أمتلك ؟ ماذا أمتلك ؟ ماذا أمتلك ؟ » قالها متسائلا فى صوت مدو • وصفع ركبته فى تأثر ليوضح أنه هو نفسه كان على وشك أن يجيب وأن على الكل أن ينصتوا• وصاح : «انني أمتلك فندقا » واستطرد : « فندقا • هل تدركون ؟ ان ضيفا تحت سقف دارى له امتيازات مقدسة • يجب ألا يخيفه أحد • يجب الا يسمع أية كلمة قد تجعله يتحامل ويفضل أن ينصرف • أنني لا أقبل هذا • لا يمكن لأى مكان هنا فى هذا البلد أن يقول أنه أخذ قط ضيفا من ضيوفى لأنه كان خائفا من البقاء هنا • » واستدار فجأة وتلفت الى راعى البقر والشرقى وقال : « ألست على صواب ؟ »

فقال راعى البقر : « نعم ، ياسيد سكالى • أظن أنك على صواب •»•

وقال الشرقى : « نعم ، ياسيد سكالى . اظن انك على صواب »

## ٥

فى السادسة مساء ، وقت العشاء ، ثار السويدى كما لو كان عربة حريق • لقد بدا أحيانا كما لو كان على وشك الانفجار فى أغنية عربيدة ، وكان فى جنونه يلقى تشجيعا من سكالى العجوز ، وكان الشرقى شديد التحفظ ، وجلس راعى البقر فى دهشة فاغرا فاه ، وقد نسى أن يأكل ، فى حين أن جونى التهم فى غضبه أطباقا كبيرة من الطعام • ولما أجبرت بنات الدار على استكمال النقص فى البسكويت ، اقتربن بحذر كالهنود ، وبعد أن نجحن فى مهمتهن ، هربن فى فزع أسأن اخفاءه • وسيطر السويدى على الوليمة بأسرها وأعطاها مظهر وليمة عربدة حادة . لقد بدا كما لو كان قد زاد طوله فجاة ، وحدق فى ازدراء قاس فى كل وجه ، وكان صوته يرن فى أرجاء الغرفة . ومرة عندما رشق شوكته كالسنارة ليقطع

البسكويت ، أوشكت الشوكة أن تخرق يد الشرقى التي كانت قد امتدت فى هدوء طلبا لنفس قطعة البسكويت .

وبعد العشاء ، بينما كان الرجال يتقاطرون تجاه الغرفة ، ضرب السويدى سكالى على كتفه بلا رحمة وقال : « حسن ، أيها الولد العجوز . كانت هذه وجبة طيبة تشبع » وتطلع جونى الى أبيه فى رجاء ، اذ كان يعلم ان ذلك الكتف كان واهنا من سقطة قديمة ، وقد بدا فى الحقيقة ، للحظة كما لو كان سكالى على وشك أن يثور لهذا الأمر ولكنه ابتسم فى النهاية ابتسامة باهتة وظل صامتا . لقد أدرك الآخرون من سلوكه انه كان يعترف بمسئوليته عن وجهة نظر السويدى الجديدة .

ومع ذلك فقد تحدث جونى مع ابيه على انفراد وقال له : « لماذا لا تسمح لشخص ليقذف بك الى الطابق الأسفل ؟ » فرد سكالى على ذلك بتقطيبة غامضة .

ولما تجمعوا حول الموقد أصر السويدى على لعبة أخرى للورقات الخمس ، فأعرب سكالى فى بادىء الأمر عن رفضه للفكرة فى رقة ، ولكن السويدى صوب اليه نظرة كنظرة الذئب ، فوافق الرجل العجوز وأخذ السويدى يتفحص الآخرين ، وكان فى نغمته دائما تهديد شديد ، وعلق راعى البقر والشرقى ، علق كلاهما بلا اكتراث ، على أنهما سيلعبان ، وقال سكالى انه سيتوجه على الفور للقاء قطار الساعة ٦ر٥٨ ومن ثم فقد وجه السويدى نظرات تهديد الى جونى ، وللحظة كانت نظراتهما نافذة كالنصال ، ثم ابتسم جونى وقال : « نعم سألعب . » .

وكونوا مربعا ووضعوا اللوحة الخشبية الصغيرة على ركبهم وكان الشرقى والسويدى شريكين مرة أخرى ، وبينما استمر اللعب كان من الملاحظ أن راعى البقر لم يكن ضارب المائدة كالعادة . وفى هذه الأثناء كان سكالى ، وقد وقف بالقرب من المصباح ، قد ارتدى نظارته وأخذ يقرأ جريدة فى مظهر غريب كمظهر قسيس عجوز . وفى الوقت المناسب انصرف للقاء قطار الساعة ٦ر٥٨ ، وعلى الرغم من احتياطاته ، هست

بسرعة ريح قطبية ودخلت الى الغرفة وهو يفتح الباب ، وفضلا عن أنها بعثرت أوراق اللعب ، فقد أبردت اللاعبين حتى النخاع ، فأخذ السويدى يزمجر بشكل مريع . وعندما عاد سكالى أزعج دخوله مشهدا حارا ووديا ، وأخذ السويدى يلعن ثانية ، ولكنهم صاروا على الفور أكثر حماسا وانحنت رءوسهم الى الأمام وكانت أيديهم تتحرك بسرعة . واتخذ السويدى أسلوب ضارب المائدة .

ورفع سكالى جريدته وظل لفترة طويلة منغمسا فى الموضوعات التى كانت بعيدة عنه بعدا فوق العادة . وكان المصباح يحترق احتراقا كبيرا ، وتوقف مرة ليعدل الذبالة . وكانت الجريدة وهو يديرها من صفحة الى صفحة تصدر حفيفا له صوت بطىء مريح . ثم فجأة سمع الكلمتين المروعتين : « أنت تغش ! » .

وغالبا ما تبرهن مثل هذه المشاهد على أنه يمكن أن يكون هناك مضمون درامى فى المحيط . ان أية غرفة يمكن أن تقدم واجهة تراجيدية ، ويمكن لأى موقف أن يكون كوميديا . ومن ثم فقد صار الآن هذا العرين الصغير مخيفا كغرفة تعذيب . ففى لحظة بدلتها الوجوه الجديدة للرجال أنفسهم . كان السويدى يمسك بقبضته الهائلة أمام وجه جونى فى حين كان الأخير يتطلع فوقها فى ثبات الى ذلك المهاجم الملتهب وازداد شحوب الشرقى ، وتدلى فك راعى البقر فى ذلك التعبير عن دهشة خرقاء ، وكان ذلك واحدا من التعبيرات الهامة التى يتصنعها . وبعد الكلمتين كان أول صوت فى الغرفة هو ما أحدثته جريدة سكالى وهى تسقط منسية الى قدميه . وكانت نظارته قد سقطت أيضا من على أنفه ، ولكنه بقبضة أنقذها وهى فى الهواء . وظلت يده ، وهى ممسكة بالنظارة ، فى توازن غريب الشكل بالقرب من كتفه . وحدق لاعبو الورق .

ربما ران سكون خلال لحظة انقضت . ثم ، لو أن أرضية الغرفة قد انشقت فجأة من تحت الرجال لما كانوا قد تحركوا بسرعة أكبر . كان الخمسة قد رموا أنفسهم بسرعة تجاه نقطة مشتركة . فقد حدث أن

جونى، فى نهوضه ليرمى بنفسه على السويدى تعثر قليلا لعنايته الغريزية الغريبة بالنسبة للورق ولوحة اللعب الخشبية ، وكان ضياع لحظة قد أتاح الفرصة لقدوم سكالى ، كما أتاح الفرصة أيضا لراعى البقر أن يدفع السويدى دفعة قوية جعلته يترنح الى الخلف . وتحدث الرجال معا ، وكانت هناك صيحات غضب خشنة وصيحات رجاء أو خوف تنطلق من كل حنجرة . واندفع راعى البقر نحو السويدى ودفعه بشدة ، أما الشرقى وسكالى فقد امسكا بجونى بقوة ، ولكن خلال الهواء القاتم، وفوق الأجساد المهتزة لفارضى السلام، كانت عيون المتشاجرين تتطلع دائما الى بعضها البعض فى نظرات تحد كانت على الفور ساخنة وفولاذية .

وبطبيعة الحال ، كانت لوحة اللعب الخشبية ، قد انقلبت وتبعثرت الآن مجموعة ورق اللعب بأسرها على الأرضية حيث أحذيتهم الطويلة الرقبة قد دهست الشحم فظلت الملوك والملكات وهم يحدقون بأعينهم الحرقاء الى الحرب التى كانت مشتعلة فوقهم .

كان صوت سكالى يتغلب على الصرخات وقال : « قف الآن ! قف ، أقول ! قف الآن . » .

وكان جونى يصيح وهو يكافح ليقتحم الحصار الذى شكله سكالى والشرقى ، وكان يصيح قائلا : « حسن ، انه يقول اننى كنت أغش ! يقول اننى كنت أغش ! اننى لن أسمح لأى انسان أن يقول اننى كنت أغش ، انه ... ! » .

وكان راعى البقر يقول للسويدى : « انصرف الآن ! انصرف ، الا تسمع .... » .

ولم تتوقف صرخات السويدى أبدا وهو يقول : « كان يغش ! لقد شهدته ! لقد شهدته ... » .

أما الشرقى فقد كان يلح فى صوت لم يكن فيه حذر : « انتظر

لحظة ، الا تستطيع ) آه ، انتظر لحظة ، ما جدوى القتال على لعبة ورق ؟ انتظر لحظة ٠٠٠٠ » ٠

وفى هذه الضوضاء لم تتضح جمل كاملة : «يغش» ــ «انصرف» ــ « يقول » : كانت هذه الأجزاء تخترق الصخب ، وترن بشدة . كان واضحا أنه ، بينما كان سكالى يحدث معظم الضوضاء بلا شك ، كان صوته أقل الأصوات التى يمكن سماعها فى هذه المجموعة الصاخبة .

وفجأة ساد سكون عظيم ٠ لقد بدا كما لو أن كلا قد توقف ليلتقط أنفاسه ، وعلى الرغم من أن الغرفة كانت لا تزال ملتهبة بغضب الرجال ، فانه لم يكن هناك من خطر فى صراع سريع ، وعلى الفور شق جونى طريقه الى الأمام ، أوشك أن ينجح فى مواجهة السويدى وقال : « ماذا قلت عما دفعنى للغش ؟ ماذا قلت عما دفعنى للغش ؟ اننى لم أغش ولن أسمح لانسان أن يقول اننى غششت ! » ٠

فقال السويدى : « لقد رايتك ! لقد رايتك ! »

فصاح جونى : « حسن ، سأقاتل أى شخص يقول اننى غششت » ٠

فقال راعى البقر : « كلا ، انك لن تفعلها » واستطرد : «ليس هنا» ٠

فقال سكالى وقد وقف بينهما : « آه ، كن ثابتا ، الا تستطيع ؟ »

كان الهدوء كافيا ليسمح سماع صوت الشرقى ، وكان يردد : « آه ، انتظر لحظة ، الا تستطيع ؟ ما الجدوى من قتال على لعبة ورق ؟ انتظر لحظة ! » ٠

واذا بجونى : يظهر بوجهه الأحمر من فوق كتف أبيه ، وينادى قائلا : « أقلت اننى غششت ؟ » ٠

فكشر السويدى عن أنيابه وقال : « نعم ٠ » ٠

فقال جونى : « اذن ، علينا أن نتقابل ٠ » ٠

فقال السويدى صارخا ، وكان كالمجنون : « نعم ، نتقـــابل » واستطرد : « نعم ، نتقاتل ! سأريك أى الرجال أنا ! سأريك من تريد ان تنازله ! قد تظن اننى لا استطيع أن اقاتل ! قد تظن اننى لا أستطيع ان أقاتل ! سأريك ! أيها النصاب ، يا غشـــاش ورق اللعب ! نعم ، أنت غششت ! أنت غششت ! أنت غششت ! » ٠

فقال جونى في برود : « حسنا ، اذن يا سيد ، علينا بالقتال ٠ » ٠

وكان حاجب راعى البقر قد انتظمت عليه حبـــات العرق من أثر جهوده لوقف كافة أنواع الغارات ، ثم تلفت فى يأس الى سكالى وقال : « ماذا ستفعل الآن ؟ » ٠

كان قد طرأ تغيـير على الوجه الكلتى (*) للرجل العجوز ٠ لقد بدا الآن وكله حماس وكانت عيناه تبرقان .

واجاب فى شجاعة : « سندعهما يتقاتلان » واســتطرد : « اننى لا أستطيع أن أسكت على هـذا طويلا ٠ لقـد أوقفت هـذا الســـويدى اللعين حتى ضقت ذرعا ٠ سندعهما يتقاتلان ٠ » ٠

## ٦

واستعد الرجال لمغادرة الفندق . كان الشرقى عصبيا جدا حتى انه لقى صعوبة كبيرة فى ادخال ذراعيه فى أكمام معطفه الجلدى الجديد. وبينما كان راعى البقر يجذب قبعته المصنوعة من الفراء على اذنيه كانت يداه ترتعشان . وكان جونى وسكالى فى الحقيقة ، الشخصين الوحيدين اللذين لم يظهرا اى اضطراب . وقد تمت هذه الأوليات بدون كلمات .

---

(*) الكلتى Celtic نسبة الى السكان الذين يتحدثون : الويلزية والبريتونية والأرزية والجيلية والمانكسية ( المترجم ) ٠

وفتح سكالى الباب على مصراعيه وقال : « حسن ، هيا » وعلى الفور تسببت ريح مروعة فى أن أخذ لهب المصباح فى النضال عند ذبالته فى حين قفزت من قمة المدخنة هبة من الدخان الأسود . كان الموقد فى منتصف تيار الريح ، وتضخم صوته حتى ساوى زئير العاصفة . كانت بعض أوراق اللعب الملطخة والتى بهـا ندبة قد جذبتهـا الريح من على الأرضية ودفعت بهـا يائسـة تجاه الجـدار البعيد . وخفض الرجال رءوسهم وغرقوا فى العاصفة كما لو كانوا يغرقون فى البحر .

لم يتساقط أى جليد ولكن أخـذت دوامات وسحب عظيمة من صحائف الجليد التى جرفت من الأرض بفعل الرياح المجنونة ، أخذت تجرى جنوبا بسرعة الرصاص . وكانت الأرض المكسوة زرقاء فى لمعان الأطلس الغريب ، ولم يكن هناك من لون آخر الا فى مكان منخفض حيث كانت هناك محطة السكة الحديد السوداء ــ وقد بدت بعيدة بصـورة لا يمكن تصديقها ــ فكان هناك ضوء واحد يلمع كلمعان جوهرة دقيقة . وبينمـا كان الرجال يتخبطون فى جـرف بعمق الفخـذ ، تبين أن السويدى يصيح بشىء . فتوجه اليه سكالى ، ووضـع يدا على كتفه وأصغى اليه ، وصاح قائلا : « ماذا تقول ؟ » .

فصاح السويدى ثانية : « أقول » واستطرد : « اننى لن أحتمل الكثير من هذه العصابة ، أنا أعلم أنكم جميعا ستنهالون على . » .

فضربه سكالى على ذراعه مؤنبا وصاح قائلا : « اسكت يا رجل » وأخذت الريح تقطع الكلمات الخارجة من بين شفتى سكالى ، وتشتتها بعيدا عن الريح .

فقال السويدى صارخا : « أنتم جميعكم عصـابة الـــ » ولكن الريح أيضا أمسكت بما تبقى من هذه الجملة .

وفى الحال أدار الرجـال ظهورهم للريح وتحركوا حول ركن الى الجانب المحمى من الفندق . لقد كانت وظيفة البيت الصغير هى أن يبقى هنا ، وسط هـذا الاكتساح العظيم للجليد ، على شـكل حرف V غير

منتظم لكلأ مغلف تغليفا كثيفا ، وكان الجليد يقرقع تحت الأقدام. ويمكن للمرء أن يتخيل الثلوج الضخمة التى تكومت قبالة جانب هبوب الريح وعندما بلغت الجماعة السلام النسبى لهذه البقعة تبين أن السويدى كان لا يزال يجأر .

« آه ، أنا أعلم أى نوع من الأمور هذا الأمر ! أنا أعلم أنكم جميعا ستنهالون على . أنا لا أستطيع أن أضربكم جميعا ! » .

فهجم عليه سكالى كالنمر وقال : « انك لن تضربنا جميعا بالسوط . عليك أن تضرب ابنى جونى بالسوط ، وأى فرد يضايقك اثناء هذه الفترة سأتولى أمره . »

وأعدت الترتيبات بسرعة وواجه الرجلان كل منهما الآخر وكانا يطيعان الأوامر القاطعة التى كان يصدرها سكالى ، وكان يمكن رؤية وجهه ، فى الظلمة المنيرة برقة ، مسطرا فى الخطوط الصارمة المبهمة المصورة على ملامح المحاربين الرومان المحنكين . وكانت أسنان الشرقى تصطك وأخذ يقفز فوق وتحت كالدمية الميكانيكية ، ووقف راعى البقر كمن قد من صخر .

وخلال هذا السكون ، كان ذهن الشرقى كالفيلم ، يلتقط آخر انطباعات للرجال الثلاثة ـ السيد ذو الأعصاب الفولاذية ، سيد الحفل ، والسويدى ، شاحب بلا حراك ، مخيف ، وجونى ساكن ومع ذلك شرس ، متوحش ومع ذلك شجاع . كان الاستهلال كله فيه مأساة أكبر من مأساة العمل ، وكان هذا المظهر تضخمه الصيحة الطويلة الرخيمة للريح وهى تدفع بسرعة صحائف الجليد المتساقطة الباكية الى الهوة المظلمة فى الجنوب .

وقال سكالى : « الآن ! »

فقفز الخصمان الى الأمام وتطاحنا معا كالثورين ، وسمع هناك صوت ضربات الحماية ، ولعنة مقتصرة من بين الأسنان المطبقة لأحد الخصمين .

اما عن المشاهدين ، فقد انطلق من الشرقى نفس محبوس مع فرقعة تنم عن الراحة ، راحة مطلقة من توتر المبادرة ، وقفز راعى البقر الى الهواء وهو يعوى . ولم يتحرك سكالى كما لو كان من روعة الدهشة والخوف من احتدام القتال الذى كان هو نفسه قد صرح به ورتبه .

ولفترة كان اللقاء فى الظلام يمثل حيرة الأذرع الطائرة حتى أنه لم يقدم مزيدا من التفاصيل أكثر مما قد تقدمه عجلة تدور بسرعة . ومن حين لآخر اذا بوجه ، كما لو كان يضيئه رميض ضوء ، يبرز شاحبا وملطخا ببقع حمراء . وبعد ذلك بلحظة يبدو الرجلان كما لو كانا شبحين ، لو يتفوها لا اراديان بأيمان لخرجت من أفواههما فى همس .

وفجأة تملكت راعى البقر حمية الرغبة فى القتال فاندفع الى الأمام فى سرعة الجواد .

« اهجم يا جونى ! اهجم ! اقتله ! اقتله ! » .

وواجهه سكالى وقال له : « ابتعد » وكان فى استطاعة راعى البقر أن يدرك من نظرته أن هذا الرجل كان والد جونى .

أما الشرقى فكان يبغض أطراد قتال لا يتغير . كان هذا الاضطراب الغامض فى احساسه مركز فى التشوق الى النهاية ، النهاية التى لا تقدر بثمن . ومرة تمايل الخصمان قريبا منه ، وبينما كان ينسحب بسرعة الى الخلف سمعهما يتنفسان كرجلين فوق جواد .

« اقتله يا جونى ( اقتله ! اقتله ! اقتله ! »

كان وجه راعى البقر قد التوى كواحد من تلك الاقنعة المحفوظة بالمتحف والتى تمثل تلك الآلام والكروب .

وقال سكالى فى برود : « كن ثابتا . » .

فجأة كانت هنـــــاك زمجـرة عالية ، غـــير كاملة ، اجتزئت واذا بجسد جوني يترنح بعيدا عن الســـويدي ويســقط في ثقل واهن على الكلأ. كان راعي البقر قد جاء في الوقت المناسب تقريبا ليمنع السويدي المجنون من أن يقذف بنفسه على غريمه الممدد على الكلأ ، وقال راعي البقر وهو يعترض بذراعه ، « كلا ، لا يمكنك » واستطرد : « انتظر لحظة . » .

ووقف سكالي الى جانب ابنه وناداه : «جوني ! جوني ! يابني!» وكانت لصوته صفة الرقة المغمومة ، وتطلع في قلق الى وجه ابنه الدامي الشحم وقال : « جوني ! الا تستطيع أن تستمر في القتال ؟ »

وسادت فترة من الصمت ، ثم أجاب جوني في صوته العادي : « نعم ، أنا ــ هي ــ نعم » .

وبمعاونة ابيه ناضـــل حتى وقف على قدميــه ، وقال الرجـــل العجوز : « انتظر لحظة الآن حتى تسترد قواك . » .

وعلى بعد بضع خطوات كان راعي البقر يحاضر السويدي ويقول : « كلا ، لا يمكنك ! انتظر لحظة ! » .

وكان الشرقي ممسكا بكم سكالي وقال متوسلا : « آه ، هذا كاف . » واستطرد : « هذا كاف ! دع القتال يقف عند هذا الحد . هذا كاف ! » .

فقال سكالي : « بيل ، لا تتدخل الآن » ، فخطا راعي البقر جانبا . كان الخصمان يدفعهما حذر جديد بينما كانا يتقدمان تجاه الالتحام . وحدق كل منهما في الآخر ثم اذا بالسويدي يسدد ضربة خاطفة نقلت معها كل ثقله ، وكان واضحا أن جوني كان شبه أخرق من الوهن ولكنه تخلص منها بمعجزة ، ودفعت قبضـــــته بالسويدي ، الذي فقد توازنه ، ممددا على الأرض .

وانفجر راعي البقر وسكالي والشرقي في هتاف كان أشبه بكورس للحن انتصار عسكري ، ولكن قبل نهايته كان السويدي قد صارع في

رشاقة حتى وقف على قدميه وجاء الى غريمه فى تخاذل جنونى · كانت هناك حيرة أخرى للأذرع الطائرة ، ومرة أخرى يترنح جسد جونى ويسقط كما لو كان ربطة سقطت من فوق سقف · وعلى الفور ترنح السويدى متجها الى شجرة يحركها الريح ومال فوقها ، وكان يتنفس كقاطرة بينما كانت عيناه الوحشيتان اللتان يضيئهما اللهب تتنقلان من وجه الى وجه بينما كان الرجال ينحنون فوق جونى · كانت هذه هى عظمة الوحدة فى موقفه فى هذه الفترة التى أحس بها الشرقى مرة عندما كان يرفع عينيه عن الرجل الذى وقع على الأرض ، اذ شهد ذلك الوجه الغامض الوحيد فى الانتظار ·

وتساءل سكالى فى صـــوت متكسر : « ألا تحس بتحسن بعـــد ، يا جونى ؟ » ·

فلهث الابن وفتح عينيه فى وهن · وبعد لحظة أجاب : « لا ـ أنا لست ـ على ما يرام ـ أبدا · » ثم بدأ فى البكاء من خزيه ومن تعبـــه الجسمانى ، وأخذت الدموع تشق طريقها على وجهه خلال البقع الدموية ، وقال : « كان شديدا ـ شديدا ـ شديد الثقل بالقياس لى · » ·

وانتصب سكالى ووجه كلامه الى الشخص المنتظر ، ثم قال أخيرا : « أيها الغريب ، لقد انتهى كل شىء من جانبنا · » ثم تبدل صـــوته الى صوت خشن مهتز ، وهو عادة نغمة أشد القرارات بساطة ومضاء » ، وقال: « لقد ضرب جونى بالسوط · » ·

وبدون جواب مشى المنتصر فى طريقه الى الباب الأمامى للفندق ·

كان راعى البقر يصوغ ســـبابا جديدا لا يتبدل ، وكان الشرقى متعجبا من أن يجد أنهم قد خرجوا فى ريح بدت آتية مباشرة من قطع جليد قطبية ظليلة · لقد سمع ثانية عويل الجليد وهو يتساقط فى مقبرة الجليد فى الجنوب · لقد علم الآن أنه طوال هذا الوقت كان البرد يتغلغل فيه أعمق وأعمق وتعجب لم لم يمت · لقد أحس بعدم اكتراثه بحال الرجل المهزوم ·

وتساءل سكالى : « جونى ، أتستطيع المشى ؟ » ·

وتساءل الابن : « هل أنا أصبت ـ أصبته أية اصابة ؟ » ·

« أتستطيع المشى يابنى ؟ أتستطيع المشى ؟ » ·

وفجأة كان جونى قويا ·· وتملكه ملل شديد ثم قال : « لقد سالتك عما اذا كنت قد أصبته أية اصابة ! » ·

فأجاب راعى البقر مواسيا : « نعم ، نعم ، يا جونى ، لقد أصيب اصـــابة بالغة · » ·

ورفعوه من على الأرض ، وما أن استوى على قدميه حتى أخذ يترنح رغم رفضه كل المحاولات لمساعدته · ولما استدارت الجماعة حول الركن كانوا شبه فاقدى البصر من تســاقط الجليد السريع · لقد كان يحرق وجوههم كالنار · وحمل راعى البقر جونى خلال الجليد الى الباب · وعندما دخلوا كان بعض ورق اللعب يرتفع ثانيــة من الأرضــية ويصطدم قبالة الجدار ·

واندفع الشرقى الى الموقد · كان شــديد البرودة حتى كاد يتجرأ ويحتضن الحديد المتوهج · لم يكن السويدى فى الغرفة · وهوى جونى فى كرسى وعقد ذراعيه على ركبتيه ودفن وجهه فيهما ، وكان سكالى يدفىء قدما فى اثر الأخرى على حافة الموقد وهو يتمتم لنفسه فى حزن كلتى · وكان راعى البقر قد خلع قبعته الفرو ، وفى هيئة المبهور الحزين كان يجرى بيده خلال خصلات شعره الأشعث · ومن فوق رءوسهم كان فى استطاعتهم أن يســمعوا قرقعة الألواح الخشــبية بينما كان السويدى يذرع غرفته جيئة وذهابا ·

قطع السكون الحزين فتح مفاجىء للباب المؤدى الى المطبخ على مصراعيه· وأعقب هذا على الفور تدفق نسوة · لقد ألقين بأنفسهن على جونى وسط كورس من النحيب ، وقبل أن يحملن غنيمتهن الى المطبخ كان عليهن أن

يحممنه ويعربن عن غضبهن فى ذلك المزيج من الحنان والشتائم الذى هو من مآثر جنسهن ، واستقامت الأم وحدقت سكالى العجوز بنظرة فيها لوم شديد وصاحت قائلة : « عار عليك يا باتريك سكالى ! » • واستطردت : « انه ابنك أنت ، أيضا • عار عليك ! »

فقال الرجل العجوز فى وهن : « الى هناك ، الآن ! اهدأن ، الآن ! • »

« عار عليك يا باتريك سكالى ! » • وكانت الفتيات وقد أجمعن على هــذا الهتاف العدائى ، قد أخذن يتنشقن فى ازدراء فى اتجـاه هذين الشريكين المرتجفين ، راعى البقـر والشرقى • وعلى الفـور حملن جونى بعيدا ، وتركن الرجال الثلاثة فى تفكير حزين •

## ٧

وقال راعى البقر وهو يقطع الصمت الطويل : « وودت لو قاتلت أنا نفسى هنا هذا الهولاندى • » •

وهز سكالى رأسه فى حزن وقال : « كلا ، هذا لن يكون • ليس من الصواب • ليس من الصواب • » •

فقال راعى البقر مجادلا : « حسبن ، لماذا ؟ » • واستطرد : « لا أرى ضررا فيه • » •

فأجاب سكالى فى بطولة حزينة : « كلا ، ليس من الصواب • لقـد كان قتال جونى ، والآن يجب ألا نضرب الرجل لمجرد أنه ضرب جونى • » •

فقال راعى البقر : « نعم ، هذا صحيح تماما • » ثم استطرد : « ولكن من الأفضل •• من الأفضل ألا يبدأ معى من جديد ، لأننى لا أستطيع أن أتحمل أكثر من هذا • » •

وقال سكالى آمرا : « انك لن تقول له أية كلمة • » وحتى هــذه

الأثناء سمعوا خطوات السويدى على الدرج ، وكان دخوله مسرحيا فقد دفع الباب بصفعة ومشى مختالا الى وسط الغرفة · لم يتطلع اليه أحد ، ثم صاح في وقاحة في سكالى قائلا : « حسن ، أعتقد أنك تستطيع أن تقول لى بكم أنا مدين لك · » ·

فظل الرجل العجوز ثابت الجنان ثم قال : « لست مدينا لى بشىء » :

فقال السويدى : « هه ! » · ثم استطرد : « هه ! لست مدينا له بشىء » ·

فقال راعى البقر موجها حديثه للسويدى : « أيها الغريب ، اننى لا أرى مدعاة لأن تأتى مختالا الى هنا · » ·

وعلى الفور كان سكالى العجوز يقظا ، فصاح قائلا : « قف ! » قالها وهو يمسك بذراع راعى البقر بعيـدا ، وأصابعه الى أعلى ، ثم قال : « بيل . أسكت · » ·

فبصق راعى البقر فى عدم اكتراث في صندوق نشارة الخشب وقال متسائلا : « اننى لم أتفوه بكلمة ، أليس كذلك ؟ » ·

فقال السويدى : « يا سيد سكالى · » واستطرد : « بكم أنا مدين لك ؟ » · وكان واضحا أنه قد ارتدى ملابسه تأهبا للرحيل ، وكانت حقيبته فى يده ·

وردد سكالى قوله بنفس الطريقة الهادئة : « لست مدينا لى بشىء · »

فقال السويدى : « هه ! » ثم قال متلفتا الى راعى البقر : « أعتقد أنك على صواب ·· أعتقد أنه اذا كان هناك شىء عن دين بالمرة ، فأنت مدين لى بشىء ، هذا ما أعتقده · » واستطرد قائلا : « اقتله ! اقتله ! اقتله ! » قالها مقلدا ثم قهقه منتصرا : « اقتله ! » وكان يهتز من الضحك الساخر ·

ولكن لعله كان يسخر من الموتى ، فقد كان الرجال الثلاثة بلا حراك صامتين ، وكانوا يتطلعون بعيون جامدة الى الموقد ·

وفتح السويدى الباب ودخل فى مجال العاصفة ، مصوبا نظرة سخرية خلفه الى المجموعة الساكنة ·

وما كاد يغلق الباب حتى قفز سكالى وراعى البقر على أقدامهما وبدآ فى السب · لقد أخـــذا يذرعان الغرفة جيئة وذهابا ويلوحان بأذرعتهما ويضربان فى الهواء بقبضاتهما ، وصاح سكالى : « آه ، ولكن هــذه لحظة عصيبة ! » واستطرد : « كانت هذه لحظة عصيبة ! كان ينظر شزرا ويتهكم! لقـــد كانت ضربة واحدة على أنفه تساوى أربعين دولارا فى نظرى تلك اللحظة ! كيف قاومتها يا بيل ؟ » ·

وصاح راعى البقر فى صوت مرتعد : « كيف قاومتها ؟ » ثم استطرد: « كيف قاومتها ؟ آه ! » ·

وانفجر الرجل العجوز فى حركة مفاجئة وصاح قائلا : « وددت لو ترك لى أمر ذلك السويدى » · واستطرد « لأوقعته على الأرضية الصخرية وضربته بعصا قوية ! » ·

وتأوه راعى البقر فى حنـــان وقال : « وددت لو امسكت برقبته وانهلت عليه دقا·» وانهال بيده على كرسى بضوضاء كضوضاء طلقة المسدس واستطرد : « أدق ذلك الهولاندى هناك حتى لا يمكن أن يعرف نفسه من ذئب ميت ! » ·

« لكننت ضربته حتى ···· » ·

« لكننت أعطيته بعض ما يستحق ······

ثم أطلقا معا صرخة اشتياق جنونية : « أو ــ و ــ وه ! لو كان فى استطاعتنا فقط ····· »

« نعم ! » ·

« نعم ! » ·

« ثم لكنت بعد ذلك ···· »

« أو ــ و ــ وه ! » ·

# ٨

أمسك السويدى بحقيبته باحكام ، وسار فى مواجهة العاصفة كما لو كان يحمل قلاعا ، وكان يقتفى أثر صف من الأشجار الصغيرة العارية المتشابكة التى كان يعلم أنها لابد أن تحدد معالم الطريق العام · كان وجهه غضا من دق قبضات جونى ، وقد أحس بمزيد من الغبطة يفوق الألم من الريح ومن الجليد المتساقط · وأخيرا لاح له عدد من الأشكال المربعة ، وكان يعلم أنها بيوتات الهيئة الرئيسية للمدينة · لقد وجد شارعا وسار على امتداده ، وهو يميل متثاقلا مع الريح ، فى ركن ، كلما أمسكت به ريح رهيبة ·

لعله كان فى قرية مهجورة · اننا نصور العالم كثيفا بانسانية قاهرة تتيه عجبا ، ولكن هنا ، مع قصف أبواق العاصفة ، كان من الصعب تخيل أرض آهلة بالسكان · ومن ثم يعتبر المرء وجود الانسان معجزة ولأضفى سحرا من العجب على ذلك القمل الذى كان يلجأ الى الالتصاق ببصلة مدورة ، أصابتها النار ، وأعاقها الجليد ، وأصابتها الأمراض وفقدت خيرها· كان مفهوم الانسان تفسره هذه العاصفة على أنه هو نفس قاطرة الحياة · كان المرء مختالا أنه لن يموت فيها · ومع ذلك فقد وجد السويدى حانة ·

كان يحترق أمامه ضوء أحمر جموح ، وكانت صحائف الجليد لها لون الدم وهى تتطاير عبر الحدود الدائرية المحيطة بلمعان المصباح · ودفع السويدى باب الحانة فانفتح ودخل · كان أمامه امتداد من الرمال جلس

فى نهايته أربعة رجال حول مائدة يشربون ، وأسفل جانب من الغرفة امتد بار براق كان حارســه يميل بمرفقيه مستمعا الى حــديث الرجال الجالسين الى المائدة . وأسقط السويدى حقيبته على الأرضية وابتسم لحارس البار وقال : « هلا أعطيتنى بعض الويسكى ؟ » فوضع الرجل على البــار زجاجة وكأس ويسكى وكأسا به قطع من الثلج . وصب السويدى لنفسه قدرا غير عادى من الويسكى وشربه على ثلاث جرعات . وعلق حارس البار فى عدم اكتراث : « ليلة سيئة جدا . » وكان يتخذ صفة التظاهر بالجهل التى هى عادة من مزايا فئته ، ولكن ربما شوهد أنه كان يفحص خلسة بقع الدم التى محى نصفها من على وجه السويدى ، وقال ثانية : « ليلة ســـــيئة . » .

فأجاب السويدى بصعوبة : « أواه ، انها ليلة لطيفة فى نظرى » قالها وهو يصب لنفسه مزيدا من الويسكى . وتناول حارس البار عملته ودفعها خلال مستقبلها بآلة الدفع المطلية بالنيكل طلاء رفيعا . دق جرس فظهرت بطاقة معنون عليها « ٢٠ سنتا . » .

واستمر السويدى فى حديثه فقال : « كلا ، ليس هذا بالطقس الشديد السوء . انه لطيف جدا فى نظرى . » .

وتمتم حارس البار فى فتور : « هكذا ؟ » .

وجعلت جرعات الخمر الوفيرة عينى الســويدى تسبحان ، وتنفس تنفسا ثقيلا الى حد ما ، واستطرد قائلا : « نعم ، اننى أحب هذا الطقس. أحبه . انه يلائمنى » . وكان واضحا أن تصميمه يعطى معنى عميقا لهذه الكلمات .

وتمتم حارس البار ثانية : « هكذا ؟ » وتلفت ليحملق حالما فى الطيور التى على صورة ملفات زخرفية وفى ملفات زخرفية على هيئة طيور كانت مرسومة بالصابون على المرايا فى ظهر البار .

وقال السويدى على الفور : « حسنا ، أعتقد أننى سأتناول شرابا آخر » واستطرد : « هل تشرب شيئا ؟ » .

فاجاب حارس البار : « كلا ، اننى لن أشرب » وبعد ذلك تساءل : « كيف جرحت وجهك ؟ » .

وعلى الفور بدأ السويدى يتفاخر بصوت عال : « ويحك . فى عراك لقد كدت أزهق روح رجل هنا فى فندق سكالى . »

وأخيرا ثار اهتمام الأربعة الجالسين الى المائدة .

فقال واحد : « من كان ذلك الشخص ؟ » .

فقال السويدى متباهيا : « جونى سكالى » واستطرد : « ابن الرجل الذى يدير الفندق . سيكون على شفا الموت تماما فى خلال بضعة أسابيع . اننى أستطيع أن أجزم بذلك . لقد أحلته شيئا طريفا . لقد فعلت . لم يكن فى استطاعته النهوض . لقد حملوه الى المنزل . ألا تشربون ؟ » .

وعلى الفور احتاط الرجال أنفسهم بطريقة لبقة وقال واحد : « كلا ، شكرا » وكانت المجموعة مشكلة تشكيلا غريبا : اثنان من رجال الأعمال المحليين المشهورين وواحد مدعى الحى وواحد مقامر محترف من النوع المعروف باسم « طراز قديم » . ولكن اذا ماتفحصت المجموعة قد يعجز المشاهد عن التقاط المقامر من الرجال ذوى الشهرة الذائعة الصيت . لقد كان فى الحقيقة ، رجلا رقيقا فى سلوكه ، اذا كان بين أناس من طبقة متوسطة ، وكان فطنا فى اختياره لضحاياه ، حتى صار فى ذلك المجال من حياة المدينة المقصور على الرجال وحدهم ، صار موضع ثقة وتقدير بالغين . وكان الناس يدعونه كريم الأصل . كان الخوف والاستهزاء اللذان ينظر بهما الناس الى مهنته هما بلا شك السبب فى ان كانت عزة نفسه الهادئة تبدو مثارا للشك عن عزة نفس من كانوا بائعى قبعات أو مسجلى لعبة البلياردو ، أو كاتبى محلات البقالة . وفيما عدا مسافر متهور جاء عرضا بالقطار ، كان مفروضا أن يفتك هذا المقامر فقط بفلاحين مغامرين

أو بهم خرف الشيخوخة ، كانوا يتدفقون مع المحاصيل الطيبة ، الى المدينة وكلهم فخر وثقة فى حماقة مطلقة لا تقبل الطعن • وعندما كان الرجال المهمون في رومبر يسمعون من وقت لآخر عن الطريقة الملتوية لسلب مثل هـذا الفلاح ، كانوا يضحكون فى استهزاء مستمر على الضحية ، واذا فكروا مرة فى الذئب ، فقد كانوا يفكرون بنوع من الفخر لعلمهم بأنه ربما لن يجرؤ قط على أن يهاجم حكمتهم وشجاعتهم • وفضلا عن هذا فقد كان معروفا لدى الجمهور أن هذا المقامر حقيقة له زوجة وولدان يعيشون فى كوخ أنيق فى ضاحية ، حيث كان يحيا حياة منزلية مثالية ، ولو ظن واحد قط أن هناك تناقضا فى شخصيته لهتف الحشد على الفور بأوصاف لأفراد هذه العائلة الفاضلة • كما أن الرجال الذين كانوا يحيون حياة عائلية مثالية أو أولئك الذين لا يحيون حياة عائلية مثالية ، كانوا جميعهم يعلقون على أنهم لا يستطيعون أن يضيفوا شيئا الى ما قيل •

ومع ذلك ، فاذا ما فرض عليه قيد ــ كما يحدث على سبيل المثال ، عندما ترفض ثلة قوية من أعضاء نادى « بوليووج » الجديد أن تسمح له ، حتى كمتفرج ، أن يظهر فى غرف الهيئة ــ كانت الصراحة والرقة التى يتقبل بها الحكم ، تفحم كثيرين من أعدائه ، وتجعل أصدقاءه أكثر تهورا لأن يكونوا مشايعين له • كان دائما يفرق بين نفسه وبين رجل مبجل من رجال رومبر بسرعة وبصراحة حتى بدا فعلا أن سلوكه دعاية مســـتمرة للثناء عليه •

ويجب ألا ينسى المرء أن يعلن الحقيقة الأساسية لوضعه الكامل فى رومبر ، اذ أنه مما لا يمكن دحضه أنه فى كافة الشئون خارج نطاق عمله ، وفى كافة الأمور التى تحـدث على الدوام وعلى وجه العموم بين انســـان وانســـان ، كان هـذا اللص لاعب الورق : كريما جـدا وعادلا جدا ، وأخلاقيا جدا ، حتى أنه يستطيع فى منافسة أن يهزم ضمائر تسعة أعشار مواطنى رومبر •

ومن ثم فقد حـــدث أن جلس فى هـذه الحانة مع تاجرين محليين مرموقين ومع مدعى الحى •

واستمر السويدى فى شرب الويسكى الخام ، وفى أثناء ذلك كان يثرثر مع حارس البار ، ويحاول أن يستميله لينغمس فى الشرب وقال له : « هيا ، اشرب ، هيا ٠٠ ماذا ٠٠ لا ؟ حسن ، اشرب كأسا صغيرة ، اذن ٠ يا الهى ، لقد ضربت الليلة رجلا وأريد أن أحتفل ٠ لقد ضربته ضربا مبرحا أيضا يا سادة ٠ » وصاح السويدى فى الرجال الجالسين الى المائدة قائلا : « ألا تشربون ؟ » ٠

فقال حارس البار : « اسكت ! » ٠

وكانت المجموعة الجالسة الى المائدة ، رغم انتباهها خلسة ، كانت تتظاهر بأنها مستغرقة فى الحديث ، ولكن حدث الآن أن رفع رجل عينيه تجاه السويدى وقال مقتضبا : « شكرا ، لا نريد مزيدا ٠ » ٠

وعند سماع السويدى لهذا الرد نفخ صدره كالديك الرومى وانفجر قائلا : حسن ، يبدو أننى لا يمكننى أن أجد أحدا يشرب معى فى هذه المدينة ٠ يبدو هكذا ، أليس كذلك ؟ حسن ! » ٠

فقال حارس البار : « اسكت ! » ٠

وزمجر السويدى قائلا : « أقول » واستطرد : « انك لن تحاول أن تسكتنى ٠ اننى لن أقبلها ٠ اننى جنتلمان وأريد أناسا يشربون معى ٠ وأنا أريدهم يشربون معى الآن ٠ الآن ــ ألا تفهم ؟ » وضرب البار بجمع يده ٠

لقد جعلت سنوات الخبرة حارس البار عديم التأثر ٠ لقد تجهم فقط ثم أجاب : « أنا أسمعك ٠ » ٠

فصاح السويدى : « حسن ، انصت مليا اذن ٠ هل ترى أولئك الرجال الجالسين هناك ؟ حسن ، انهم سيشربون معى ، ولا تنس ذلك ، والآن شاهد ٠ » ٠

وصاح حارس البار : « هيه ! » واستطرد : « هذا لن يحدث ! » ٠

وتساءل السويدى قائلا : « لماذا لن يحدث ؟ » ومشى الى المائدة ،

وبمحض الصدفة وضع يده على كتف المقامر وتساءل غاضبا : « ما رأيك في هذا ؟ » : « اننى أطلب منك أن تشرب معى • » •

وفي بساطة لوى المقامر رأسه وتحدث من فوق كتفه : « ياصديقى ، أنا لا أعرفك • » •

فأجاب السويدى : « آه ، يا للجحيم ! » واستطرد : « تعال واشرب • » •

فنصحه المقامر في شفقة قائلا : « والآن يا ولدى » واستطرد : « ارفع يدك عن كتفي وانصرف ، واذهب أنت وشأنك • » لقد كان رجلا صغيرا نحيفا ، وبدا عجيبا أن تسمعه يستخدم هذه النغمة ، التى يستخدمها عميل بطل ، مع السويدى الثائر • ولم يتفوه الرجال الآخرون الجالسون الى المائدة بشيء •

« ويحك ! أنت لا تريد أن تشرب معى أيها المتحذلق الصغير؟ سأجبرك اذن ! سأجبرك ! » وأمسك السويدى بحنجرة المقامر في جنون ، وكان يجذبه من كرسيه فنهض الرجال الآخرون • واندفع حارس البار حول ركن من باره • كانت هناك ضجة كبيرة ثم شوهد نصل طويل في يد المقامر ، وصوبه الى الأمام ، واذا بجسد آدمى ، اذا بهذه القلعة من الفضيلة والحكمة والقوة قد طعنت بسهولة كما لو كانت بطيخة ، وسقط السويدى في صرخة تنطوى على الخوف البالغ •

ولابد أن التاجرين المرموقين ومدعى الحى ، لابد أنهم قد تراجعوا على الفور ، الى الخلف بعيدا عن المكان • ووجد حارس البار نفسه يعرج ممسكا بذراع كرسى ويحملق في عينى القاتل •

وقال الأخير وهو يجفف سكينه على منشفة من المناشف المعلقة تحت درابزين البار ، قال : « هنرى » ثم استطرد : « أخبرهم أنهم يستطيعون أن يجدونى • سأتوجه الى دارى وسأكون في انتظارهم • » ثم اختفى • وبعد ذلك بلحظة كان حارس البار في الشارع يصيح عبر العاصفة طلبا للعون ، فضلا عن أنه كان يريد أحدا في صحبته •

كانت جثة السويدى وحدها فى الحانة ، وكانت عيناها مثبتتين على على أسطورة مخيفة كانت تعيش فى قمة آلة النقد : « هذا تسجيل لمقدار مشترياتك . »

## ٩

بعد ذلك بشهور كان راعى البقر يشوى لحم خنزير على موقد فى عزبة تربية بقر بقرب خط داكوتا ، عندما سمع بالخارج صوت طرق سريع لحوافر جواد ، وعلى الفور دخل الشرقى بالخطابات والصحف .

وقال الشرقى على الفور : « حسن » . واستطرد : « لقد حكم على الشخص الذى قتل السويدى بثلاث سنوات . ليست بالمدة الطويلة ، أليس كذلك ؟ » .

« حكم عليه ؟ بثلاث سنوات » قالها راعى البقر وهو يعدل وعاءه الذى يحوى لحم الخنزير ، بينما كان يفكر فى النبأ : « ثلاث سنوات . ليست بالمدة الطويلة . » .

وأجاب الشرقى وهو يحل مهمازه : « كلا ، انه حكم مخفف . » واستطرد : « يبدو أن هناك عطفا شديدا عليه فى رومبر . » .

وعلق راعى البقر مفكرا : « لو كان حارس البار به خير لتدخل فى الأمر ولضرب ذلك الهولاندى على رأسه بزجاجة فى بداية الأمر ولأوقف كل هذا القتل . » .

فقال الشرقى مستهزئا : « نعم ، ولربما حدثت آلاف الأمور . » .

واعاد راعى البقر وعاءه الذى يحوى لحم خنزير الى النار ولكنه استمر فى فلسفته وقال : « انه أمر مضحك ، أليس كذلك ؟ لو أنه لم يقل ان جونى كان يغش لكان على قيد الحياة فى هذه اللحظة . كان أحمق فظيعا :

لقد كانت لعبة تلعب لمجرد التسلية ، أيضا ، ولم يكن من ورائها كسب ٠ اننى أعتقد أنه كان مجنونا ٠ » ٠

وقال الشرقى : « أشعر بالأسى لهذا المقامر ٠ » ٠

فقال راعى البقر : « آه ، وأنا كذلك ٠ » واستطرد : « انه لايستحق شيئا مما حكم عليه به لقتله من تسبب فى القتل ٠ » ٠

« ربما لم يقدم على قتل السويدى لو أن كل شىء سار على الطريق السوى ٠ » ٠

فقال راعى البقر متعجبا : « ربما لم يقدم على القتل ؟ » واستطرد : « لو أن كل شىء سار على الطريق السوى ؟ ويحك ، وعندما قال ان جونى كان يغش وتصرف مثلما يتصرف الأحمق ؟ ثم فى الحانة عندما اندفع تمام الاندفاع لكى يتلقى الضربة ؟ » بهـذه الحجج انتهر راعى البقر الشرقى واستشاط غضبه ٠

فصاح الشرقى فى حدة : « أنت أحمق ! » ثم استطرد قائلا : « أنت أحمق من السويدى بمليون مرة ، والآن دعنى أقول لك شيئا واحدا ٠ دعنى أقول لك شيئا ٠ انصت ! جونى كان يغش ! » ٠

وقال راعى البقر فى دهشة : « جونى » ومرت فترة صمت ثم قال فى جرأة : « ويحك ، لا ٠٠ لقد كان اللعب لمجرد التسلية ٠ » ٠

فقال الشرقى : « سواء لمجرد التسلية أو لغيرها » ثم استطرد : « فقد كان جونى يغش ٠ لقد رأيته ٠ كنت أعلم ذلك ٠ وقد رفضت أن أقف وأكون رجلا ٠ لقد تركت السويدى يقاتل وحده ٠ وأنت ــ أنت كنت فقط تلهث حـول المكان وتريد أن تقاتل ، ثم هنــاك سكالى العجوز هو نفسه ! لقد اشتركنا جميعا فيها ! هذا المقامر المسكين ليس حتى اسما ٠ انه نوع من ظروف الزمان أو المكان ٠ ان كل خطيئة هى نتيجة اشتراك فى عمل ٠ لقد اشتركنا نحن خمستنا فى قتل هذا السويدى ٠ وفى العادة هناك من اثنتى عشرة امرأة الى أربعين امرأة قد لعبن دورا حقيقيا فى كل

جريمة قتل ، ولكن فى هذه الحالة يبدو أن المشتركين هم خمسة رجال فقط ــ أنت وأنا وجونى وسكالى العجوز وذلك المقامر الأحمق السىء الحظ الذى جـاء فقط ليبلغ أقصى درجـــة وذروة الاستفزاز البشرى ويتلقى العقاب كله ٠ » ٠

فاذا براعى البقر ، وقد أحس بأنه أوذى وشق عليه عصا الطاعة ، يصرخ بغباوة فى حيرة من هذه الفكرة الغامضة قائلا : « حسن ، اننى لم أفعل شيئا ، أليس كذلك ؟ » ٠

# العروس تصل
# إلى بلوسكاى

## ١

كان البولمان الفاخر يشق طريقه بسرعة ، وكانت نظرة واحدة من نافذته تكفي للبرهنة على أن سهول تكساس كانت متدفقة شرقا · كانت سهولا شاسعة من الكلأ الأخضر ومساحات ذات ألوان قاتمة بما فيها من أشجار الخضر والصبار ، كانت كلها تكسح الى الشرق . وفوق الأفق ، جرفا ·

ركب هذه العربة عند « سان أنطونيو » زوجان حديثا عهد بالزواج · كان وجه الرجل قد احمر لبقائه عدة أيام تحت تأثير الريح والشمس ، وكان يرتدي ملابسه الجديدة السوداء وبدت منها يداه اللتان كانتا في لون الطوب ، ومن وقت لآخر كان يخفض نظرته في احترام الى زيه ، وقد وضع يدا على كل ركبة كرجل ينتظر في محل حلاق · كانت النظرات التي يصوبها الى الركاب الآخرين نظرات مختلسة وخجولة ·

لم تكن العروس جميلة كما لم تكن صغيرة · كانت ترتدي رداء من الكشمير الأزرق به مساحات صغيرة من المخمل هنا وهناك مع وفرة من الأزرار الصلب · كانت تلوي رأسها باستمرار لتشاهد أكمامها المنتفخة وهي جامدة ومستقيمة وعالية · لقد كانت تحيرها · كان واضحا تماما أنه

سبق لها أن طهت وأنها تتوقع أن تطهو امتثالا لواجباتها • كان غريبا مشاهدة التردد الذى سببه امعان نظر بعض الركاب ، وهم فى غير مبالاة بالعروس وهى تدخل العربة ، وقد ارتسم على هذا المحيا الخالى من الجمال والذى كان دون مستواه ، وكان مصورا فى أسارير هادئة تكاد تكون عديمة التأثر •

كان واضحا أنهما سعيدان جدا ، وقال العريس متسائلا وهو يبتسم فى غبطة : « ألم يسبق لك أن ركبت عربة سكة حديد فاخرة من قبل ؟ » •

فأجابت : « كلا » واستطردت : « لم يسبق لى قط • انها لطيفة ، أليس كذلك ؟ » •

فأجاب : « جدا ! ثم بعد فترة من الزمن سنتوجه الى عربة الطعام لتناول العشاء وستمد أمامنا مائدة ضخمة • انها أعظم وجبة فى العالم - ثمنها دولار واحد • » •

فصاحت العروس : « آه ، أهكذا ؟ » واستطردت : « يتقاضون دولارا ؟ «*» ويحك هذا كثير جدا ـ بالنسبة لنا ـ أليس كذلك ياجاك ؟ » •

فأجاب فى شجاعة : « ليست هذه الرحلة على أية حال • » واستطرد : « اننا سنسافر طويلا • » •

ثم أخذ بعد ذلك يشرح لها عن القطارات فقال : « تلاحظين أن هناك الف ميل من طرف واحد من تكساس الى الطرف الآخر ، وهذا القطار يجرى عبرها ولا يتوقف الا أربع مرات • » وكانت له كبرياء صاحب الملك وهو يتحدث • وأراها تركيبات العربة التى تبهر الأبصار ، وفى الحقيقة لقد زاد اتساع عينيها وهى تتأمل المخمل الأخضر فى لون البحر ، ولمعان النحاس والفضة والزجاج ، والخشب الذى كان فى سواده البراق كسطح

---

(*) كانت القيمة الشرائية للدولار فى القرن التاسع عشر فى أمريكا تفوق بكثير قيمته الشرائية في الوقت الراهن ، وهذا هو السبب فى دهشة العروس • ( المترجم )

بركة من الزيت • وفى طرف واحد كان هناك شكل برونزى يمسك فى ثبات دعامة ديوان منفصل • وفى مناطق فسيحة على السقف كانت هناك تصاوير فى اللونين الزيتونى والفضى •

وجال بخاطرهما أن ما حواليهما كان انعكاسا لجلال زواجهما ذلك الصباح فى سان أنطونيو • وكان وجه الرجل يشرق بصورة خاصة ببهجه جعلته يبدو مضحكا فى نظر الحاجب • الزنجى الذى كان يتطلع اليهما من وقت لآخر من بعيد وهو يضحك ضحكا فاترا فى طرب واستعلاء ، وكان فى حالات أخرى يزجرهما بمهارة بأساليب لا يتضح لهما تماما أنه ما كان يزجرهما • كان يستخدم بلباقة كافة أساليب أعظم لون من ألوان التعاظم الظافرة • لقد ضايقهما ، ولكنهما لم يكونا الا على علم يسير بهذه المضايقة ، وبسرعة نسيا أن عددا من المسافرين كانوا ، على غير المعتاد ، يحدجونهما بنظرات من الغبطة الساخرة • كان من المسلم به أن فى موقفهما شيئا مضحكا لا نهاية له •

وقال وهو يتطلع فى رقة الى عينيهـــا : « من المفروض أن نبلغ « يلوسكاى » الساعة ٣٫٤٢ » •

فقالت كما لو لم تكن على علم بذلك : « آه ، أهكذا ؟ » كان اظهار دهشتها من عبارة زوجها ، جانبا من لطفها كزوجة ، وأخرجت من جيبها ساعة فضية صغيرة ، وبينما كانت تمســـك بها وتتطلع اليها بتقطيبة كدلالة على الانتباه ، اذ بوجه زوجها الجديد يشرق •

فقال لهـــا فى سرور : « لقـــد اشتريتها من سان أنطونيو من صديق لى • » •

فقالت وهى تتطلع اليه بنوع من الحياء والدلال الأخرق : « الساعة الثانية عشرة والدقيقة الســـابعة عشرة • » ولما رأى أحد الركاب هـذه المسرحية ازداد شعوره بالمرارة ، وغمز لنفسه فى احدى المرايا العديدة •

وتوجها أخيرا الى عربة الطعام · كان هناك صفان من الندل الزنوج، مرتدين ملابسهم البيضاء الزاهية وقد خططوا باهتمام لقدومهما ، تخطيطا مصحوبا أيضا باتزان ، وكان سلوكهم سلوك أناس سبق تبصيرهم · لقد كان الاثنان من نصيب ندل حدث أن أحس بغبطة في أن يقودهما الى مكان وجبتهما · لقد كان يتطلع اليهما بأسلوب الربان الأب وكانت ملامحه تشع بحب الخير والرعاية المصحوبة بالطاعة العادية ، التى لم تكن خالصة لهما · ومع ذلك فبينما كانا عائدين الى عربتهما شهدا في وجوه الندل احساسا بالهروب ·

والى اليسار ، على بعد أميال أسفل منحدر أرجواني طويل ، كان هناك شريط من الضباب حيث تحركت « ريو جراند » نابضة بالحياة · كان القطار يقترب منها عند زاوية وكان رأسها « يلوسكاى » ، وعلى الفور كان واضحا أنه ، كلما ازدادت المسافة قصرا من يلوسكاى ، صار الزوج قلقا بالمثل·كانت يداه الحمراوتان بلون الطوب أكثر اصرارا فى ارتفاعهما ، ومن وقت لآخر كان بالأحرى شارد الفكر فى آفاق بعيدة جدا بينما كانت عروسه تميل أماما ، وتوجه اليه حديثا ·

وكحقيقة ، كان « جاك بوتر » قد بدأ يجد ظل عمل يثقل كاهله كما لو كان لوحا من الرصاص · لقد كان هو ، عمدة مدينة يلوسكاى ، رجلا مرموقا ، محبوبا ومهابا فى مدينته ورجلا مشهورا ، كان قد توجه الى سان أنطونيو ليلتقى بفتاة كان يعتقد أنه يحبها ، وهناك ، بعد اللقاءات المعتادة ، أثر عليها بالفعل لتتزوجه دون أن يستشير يلوسكاى فى أى طرف من هذه الصفقة · وهو الآن قادم بعروسه أمام مجتمع برىء بعيد عن الشك ·

من الطبيعى أن يتزوج الناس فى يلوسكاى كيفما يحلو لهم ، وفقا لناموس عام ، ولكن كان هـذا هو رأى بوتر فى واجبه ازاء أصدقائه أو رأيهم فى عمله أو فى قانون غير منطوق لا يتحكم فى الناس فى هذه الأمور، حتى أحس بأنه كان مجرما · لقد اقترف جريمة غير عادية : اذ فى مواجهته لهذه الفتاة فى سان أنطونيو ، مدفوعا بدافعه القوى ، كان قد تخطى كل

الحدود الاجتماعية ، كان فى سان أنطونيو كرجل متخف فى الظلام • وفى تلك المدينة النائية كان من السهل أن يمسك فى يده بسكين لبتر أى واجب من واجبات الصداقة ، فى أية صورة ، ولكن ساعة يلوسكاى ـ ساعة ضوء النهار ـ كانت تقترب •

كان يعلم تمام العلم أن هذا الزواج حدث هام فى مدينته ، اذ يمكن فقط أن يتجاوز حرق الفندق الجديد ، ولا يمكن أن يغفر له أصدقاؤه • لقد فكر مرارا فى استصواب انبائهم ببرقية ولكن تملكه جبن جديد • كان يخشى أن يفعل هذا الأمر • والآن يسرع به القطار تجاه مشهد من الدهشة والطرب والتعنيف • وأطل من النافذة على خط الضباب الذى كان يتحرك فى بطء تجاه القطار •

كان ليلوسكاى نوع من الفرقة الموسيقية النحاسية كانت تعزف فى جد لادخال البهجة على الجمهور • لم يكن يضحك من كل قلبه وهو يفكر فى هذا الأمر • لو أن المواطنين حلموا بقدومه المنتظر مع عروسه ، لطلبوا من الفرقة الموسيقية النحاسية أن تصطف فى المحطة وأن ترافقهما ، وسط الهتافات وضحكات التهانى ، الى منزله المبنى من اللبن •

لقد قرر أن يستخدم كل وسائل السرعة والمهارة فى رحلتهما من المحطة الى داره • ويستطيع داخل تلك القلعة الآمنة ، وقد بلغها ، أن يصدر نوعا من النشرة الصوتية ، ثم لا يختلط بالمواطنين حتى يكون قد مضى وقت قد قل فيه حماسهم •

تطلعت اليه العروس قلقة وقالت : « ما الذى يضايقك يا جاك ؟ » •

فضحك ثانية وقال : « لست متضايقا يا فتاتى ، اننى أفكر فقط فى يلوسكاى » •

فاحمر وجهها لادراكها ما يعنيه •

لقد اجتاح عقلهما احساس متبادل باقتراف جريمة ، تحول الى رقة

أكثر لطفا • وتطلع كل منهما الى الآخر بعينين براقتين فى رقة ، ولكن بوتر غالبا ما كان يضحك نفس الضحكة العصبية وبدا التورد على وجه العروس توردا دائما تماما •

كان خائن مشاعر يلوسكاى يراقب فى ضيق المناظر الحلوية المسرعة. وقال : « لقد أوشكنا أن نصل • » •

وعلى الفور قدم الحاجب وأعلن قرب قدوم موطن بوتر • كان ممسكا بفرشاة فى يده ، وبكل عظمته الوهميـة التى ولى عهـدها . كان ينظف بفرشاته ملابس بوتر الجديدة بينما كان الأخير يتجه هذه الناحية وتلك ، وأخرج بوتر عملة فضية وأعطاها الحاجب كما رأى غيره يفعلون ذلك • لقد كانت مهمة ثقيلة فيها توتر للأعصاب ، كمهمة رجل يركب حوافر لجواده الأول •

وأخذ الحاجب حقيبتهما ، وعندما بدأ القطار فى الابطاء ، تحركا تجاه طوار العربة المغطى • وعلى الفور اندفع الى محطة يلوسكاى قطاران وراءهما سرب طويل من العربات •

فقال بوتر : « سيأخذان مياها من هنا • » قال هذه العبارة من حنجرة مشدودة وفى نغمة حزينة كما لو كان شخصا يعلن نبأ وفاة • وقبل أن يتوقف القطار كانت عيناه قد فحصتا الطوار بطوله وكان سعيدا ومدهوشا لأنه لم يكن هناك من أحد عليه ، ولكن وكيل المحطة ، الذى كان فى هيئة المسرع قليلا والقلق بعض الشىء ، كان يسير تجاه خزانات الماء • وعندما توقف القطار نزل الحاجب أولا ووقف على بعد خطوة بسيطة عابرة •

وقال بوتر فى خشونة : « هيا يا فتاة » وبينما كان يساعدها على الهبوط ضحك كلاهما على نغمة موسيقية غير صحيحة • وأخذ الحقيبـة من الزنجى وسـمح لزوجته بأن تمسك بذراعه • وبينما كانا يسـيران بسرعة مخفيين أنفسهما ، لمحت نظرته المكتئبة أنهم كانوا يفرغون صندوقى أمتعة الركاب ، وكان وكيل المحطة أيضا بعيدا فى المقدمة بالقرب من عربة

الأمتعة ، وتلفت وكان يجرى تجاهه ، وهو يقوم بايماءات • وضحك وزمجر وهو يضحك ، عندما لاحظ أول تأثير لنعيم زواجه على يلوسكاى ، وأمسك بذراع زوجته بثبات الى جانبه ، وهربا • وكان يقف خلفهما ، الحاجب وهو يضحك في حماقة •

## ٢

كان محددا أن يصل قطار كاليفورنيا السريع على خطوط السكة الحديد الجنوبية ، الى يلوسكاى خلال احدى وعشرين دقيقة • وكان هناك ستة رجال فى البار فى حانة « ويرى جنتلمان » ، احدهم طبال يتحدث كثيرا وبسرعة ، وثلاثة من تكساس لم يكن يهمهم أن يتحدثوا فى ذلك الوقت ، واثنان مكسيكيان يقومان بتربية الماشية ، لم يتحدثا • وكان كلب حارس البار راقدا على الممشى الخشبى المتقاطع أمام الباب • كان رأس الكلب على مخالبه ، ويتطلع ناعسا هنا وهناك فى يقظة مستمرة • وكانت عبر الشارع الرملى بعض مساحات بها كلأ أخضر حى ، منظرها عجيب وسط الرمال التى كانت تحترق قريبا منها فى الشمس المتوهجة ، حتى أنها بعثت الشك فى النفوس • كانت تشبه تمام الشبه الحصر الكلأية التى تستخدم لتمثيل المروج على المسرح • وفى أبرد طرف من محطة السكة الحديد جلس رجل بلا معطف فى كرسى مائل ، وأخذ يدخن غليونه• وفيما وراء شاطىء « ريو جراند » الذى شق حديثا بجوار المدينة ، كان فى الامكان مشاهدة سهل ضخم من الخضروات فى لون البرقوق •

وباستثناء الطبال المشغول واخوانه فى الحانة ، كانت يلوسكاى تغط فى النوم • ومال الوافد الجديد على البار فى رشاقة وقص كثيرا من القصص فى ثقة المنشد الذى وفد على ميدان جديد :

«••• وفى اللحظة التى سقط فيها الرجل العجوز فى الطابق الأسفل ،

والمكتب بين ذراعيه ، كانت المرأة العجوز صاعدة ومعها وعائي فحم ، وبطبيعة الحال ٠٠٠٠ »

وقاطع قصة الطبال شاب ظهر فجأة عند الباب المفتوح ، وقال صائحا : « سكراتشي ويلسون ثمل ، وحل وثاق كلتا يديه » ٠ وعلى الفور وضع المكسيكيان كأسيهما واختفيا تدريجيا من الباب الخلفي للحانة ٠

فأجاب الطبال مازحا في براءة : « وهو كذلك ، أيها الرجل العجوز ٠ لنفرض أنه لكذلك ، تعال وتناول شرابا على أية حال ٠ » ٠

ولكن كان للخبر تأثير واضح في مخيلة كل من بالغرفة حتى اضطر الطبال الى أن يعترف بأهميته ٠ لقد صار الجميع خاشعين على الفور ، فقال في حيرة : « أقول » واستطرد : « ما يعني هذا ؟ » فقام رفاقه الثلاثة باشارة استهلالية لحديث بليغ ، ولكن الشاب الذي كان عند الباب سبقهم الى هذا ٠

فأجاب وهو يدلف الى الحانة : « انه يعني يا أصدقائي » واستطرد : « انه في الساعتين القادمتين لن تصبح هذه المدينة منتجعا صحيا ٠ » ٠

وتوجه حارس البار الى الباب وأغلقه ، ومد يده خارج النافذة وجذب الشيش الخشبي وسده ، وعلى الفور ساد المكان وجوم رزين كما لو كان معبدا ، وأخذ الطبال يجيل النظر من شخص لآخر ٠

وصاح : « ولكن أقول » واستطرد : « ما يعني هذا على أية حال ؟ انت لا تعني أنه سيكون هناك قتال بالرصاص ؟ » ٠

فأجاب شخص متجهما : « لا أعرف : أيكون هناك قتال أم لا ٠ » واستطرد : « ولكن ستكون هناك فترة اطلاق للنيران ـ فترة طيبة لاطلاق النيران ٠ » ٠

ولوح الشاب الذي كان قد أنذرهم ، لوح بيده وقال : « آه ، سيكون

هناك قتال سريع بما فيه الكفاية ، اذا كان هناك من يريده . ان أى فرد يمكن أن يجد قتالا هناك فى الشارع . هناك قتال فى الانتظار . » .

وبدا الطبال يتأرجح بين اهتمام رجل غريب واحساس بالخطر الشخصى .

وتساءل : « ماذا قلت .. ما اسمه ؟ » .

فأجابوا فى كورس : « سكراتشى ويلسون » .

« وهل سيقتل أحدا ؟ ماذا أنتم فاعلون ؟ هل غالبا ما يحدث هذا ؟ هل يثور فى صخب حواليه مثل هذا مرة كل أسبوع أو ما شاكل ذلك ؟ هل يستطيع أن يقتحم ذلك الباب ؟ » .

فأجاب حارس البار : « كلا ، لا يمكن أن يقوى على ذلك الباب . » واستطرد : « لقد حاول ذلك ثلاث مرات ، ولكن اذا ما أتى فمن الأفضل أن تنبطح على الأرض أيها الغريب ، اذ من المؤكد تماما أنه سيطلق عليه النار وقد تخترقه رصاصة . » .

وبعد ذلك أخذ الطبال يراقب الباب بشدة . لم يحن الوقت بعد ليستدعيه للانبطاح على الأرض ، ولكن كاحتياط بسيط مشى بجانب الجدار وقال ثانية : « هل سيقتل أحدا ؟ » .

ضحك الرجل ضحكة خافتة مشوبة باستهزاء من السؤال .

« لقد خرج ليطلق الرصاص ، وخرج ليثير القلق . لا أرى أية فائدة فى اختباره . » .

« ولكن ماذا تفعلون فى حالة مثل هذه ؟ ماذا تفعلون ؟ » .

فأجاب رجل : « ويحك ، هو وجوك بوتر ... » .

فقاطعه الرجال الآخرون فى كورس قائلين : « ولكن جاك بوتر فى سان أنطونيو • » •

« حسن ، من هو ؟ وما دخله بالموضوع ؟ » •

« آه ، انه عمدة البلد • وهو يخرج ويقاتل سكراتشى عندما يشاهد دمعة من هذه الدموع • » •

فقال الطبال وهو يجفف حاجبه : « نجاح باهر ! » واستطرد : « عليه عمل باهر يؤديه • » •

وخفتت الأصوات حتى صارت همسا • لقد أراد الطبال أن يسأل مزيدا من الأسئلة التى كانت نابعة من قلق ودهشة متزايدة ، ولكن عندما حاول توجيهها تطلع اليه الناس فقط فى انفعال وطلبوا منه أن يظل صامتا • وران عليهم سكون انتظار متوتر • وفى الظلال العميقة للغرفة كانت عيونهم تلمع وهم ينصتون الى أصوات قادمة من الشارع • وأشار رجل ثلاث اشارات الى حارس البار ، فتحرك الأخير كالشبح وناوله كأسا وزجاجة • وصب الرجل كأسا كاملة من الويسكى ، ووضع الزجاجة دون أن يحدث صوتا • وجرع الويسكى جرعة واحدة وتلفت ثانية تجاه الباب فى سكون ثابت . ورأى الطبال أن حارس البار قد أخرج من تحت البار زجاجة وينكستر ، بلا جلبة ، ثم رآه يشير اليه فعبر الغرفة على أطراف أصابعه •

وقال له حارس البار : « من الأفضل أن تأتى معى خلف البار • » •

فقال الطبال وهو ينضح عرقا : « كلا ، شكرا » واستطرد : « أفضل أن أبقى حيثما أستطيع أن أندفع الى الباب الخلفى • » •

عند ذلك أشار حارس البار اشارة لطيفة ولكن بحزم، أطاعها الطبال، ولما وجد نفسه جالسا على صندوق ورأسه دون مستوى البار ، نزل على روحه بلسم عند مشاهدته التركيبات الزنكية والنحاسية التى كانت تحمل شبها لرسم درع • وجلس حارس البار مستريحا فوق صندوق مجاور •

وقال هامسا : « تلاحظ » واستطرد : « هنا أن هذا الـ «سكراتشي ويلسون» شخص غريب وهو ممسك بالبنـدقية ـ عجيب جدا ، وعندما يستمر فى حرب التعقب ، لا يكون نصيبنا الا ثقوبا ـ وهو أمر طبيعى ٠ لعله آخر عضو فى العصابة القديمة التى اعتادت أن تسكن على امتداد النهر هنا ٠ انه الرعب اذا ما ثمل ، ولكن عندما يكون رزينا فهو على ما يرام ـ شخص بسيط ـ لن يؤذى ذبابة ـ أرق شخص فى المدينة ٠ ولكنه اذا ما ثمل ـ يا الهى ! » ٠

كانت هناك فترات من الصمت ، وقال حارس البار : « وددت لو كان جاك بوتر قد عاد من سان أنطونيو » واستطرد : « لقد أصاب ويلسون مرة ـ فى ساقه ـ وقد يأتى ويستأصل شأفة هذا الأمر ٠ » ٠

وعلى الفور سمعوا من بعيد صوت طلقة نارية أعقبتها ثلاث صرخات مدوية حلت على الفور رباط الرجال فى الحانة المظلمة . وكان هنـاك وقع أقدام تمشى متثاقلة ، فتطلعوا الى بعضهم بعضا وقالوا : « ها هو قادم ! » ٠

# ٣

دار رجـل حول ركن وســار فى منتصف الشــارع الرئيسى فى يلوسكاى ، لقد كان رجلا يرتدى قميصا من الفانلة القرمزية اللون المائلة الى الســواد ، اشــتراه ليزهو به ، وكانت قد صنعته له خصيصا احدى النسوة اليهوديات من الجانب الشرقى من نيويورك ٠ كان الرجل يحمل فى كلتا يديه مسـدسا طويلا ثقيلا لونه أزرق مشوب بالسواد ٠ وغالبا ما كان يصرخ ، وكانت هـذه الصرخات ترن فيما يشبه بالقـرية المهجـورة ، تطير مجلجلة فوق الأســطح فى حجم بدا أن لا عـلاقة له بالقوة الصوتية لرجل ٠ لقد بدا كما لو أن السكون المحيط قد شـكل قبرا فوقه ٠ أخذت هذه الصرخات ترن ازاء جدران الصـمت ، وكانت

الحدائة ذى الرقبة الطويلة حافات حمراء مزينة برسومات مذهبة من النوع الذى يعشقه فى الشتاء صغار الأطفال الذين يركبون مركبات الجليد على جوانب هضاب « نيو انجلند » ٠

كان وجه الرجل يلتهب غضبا من فعل الويسكى ٠ وكانت عيناه ، وهما تدوران ، وان كانتا مشوقتين لاكتشاف كمين ، تتصيدان مداخل المنازل والنوافذ ٠ سار بحركة قطة تزحف فى منتصف الليل ٠ وكما خطر له ، أخذ يزأر متوعدا من يتولى التبليغ عنه ، وكان المسدسان الطويلان فى يديه فى سهولتهما كما لو كانا قشتين ، يتحركان فى سرعة كهربية والأصابع الصغيرة فى كل يد تلعب أحيانا كما تلعب أصابع الموسيقى ٠ كانت تظهر من ياقة قميصه المنخفضة حبال رقبته وهى تستقيم ثم تسقط كلما حركته العاطفة ٠كانت الأصوات الوحيدة هى دعواته المرعبة ٠ كان الطوب اللبن الساكن يحمى تصرفهم عند مرور هذا الشىء الصغير وسط الشارع ٠

لم تكن هناك دعوة لقتال ـ ما من دعوة لقتال ٠ يطلع الرجل الى السماء ٠ لم تكن هناك أية استمالات ٠ أخذ يجار ويثور ويحرك مسدسيه هنا وفى كل مكان ٠

لم يكن كلب حارس البار فى حانة « ويرى جنتلمان » يقدر تطور الأحداث ٠ كان لا يزال بعد يغط فى نومه أمام باب سيده ٠ وعند مشاهدة الرجل للكلب توقف ورفع مسدسه ضاحكا ٠ وعند رؤية الكلب للرجل نهض وجرى منحرفا برأس مكتئب وهو يزمجر ، وما كاد يصرخ الرجل حتى انفجر الكلب فى الجرى ، وما كاد أن يدخل الممشى حتى سمع ضوضاء عالية وصفيرا ، واذا بشىء قد بصق على الأرض أمامه مباشرة ٠ عوى الكلب ، وبينما يدور فى رعب ، جرى بسرعة فى اتجاه جديد ٠ ومرة أخرى كانت هناك ضوضاء وصفير ورمل يرفس أمامه بطريقة خاطئة ٠ ولما كان الخوف قد تملك الكلب ، فقد استدار واضطرب كحيوان فى حظيرة ٠ ووقف الرجل يضحك وسلاحاه عند اليتيه ٠

وأخيرا استهوى الرجل باب حانة « ويرى جنتلمان » المغلق ، فتوجه اليه ودق عليه بمسدسه طالبا شرابا ٠

ولما ظل الباب بلا حراك ، التقط قصاصة ورق من الممر وسمرها على الاطار بسكين ، ثم أدار ظهره في استهزاء لهذا الملجأ الشعبي واتجه الى الجانب المواجه من الشارع ٠ وبسرعة ورشاقة استدار هناك على عقبيه وأطلق النار على قصاصة الورق ، ولكنه أخطأها بنصف بوصة ، وأقسم لنفسه وانصرف ٠ وأخيرا ، أطلق الرصاص ، في راحة ، على نوافذ أخلص صديق ٠ كان الرجل يلهو بهذه المدينة كما لو كانت دميته ٠

ولكن لم تكن هناك من دعوة لقتال ٠ لقد جال بخاطره اســـــم جاك بوتر ، غريمه القديم ، وانتهى الى انه قد يكون أمرا سارا لو أنه توجه الى دار بوتر ، وعن طريق اطلاق النار يغريه لأن يخرج ويقاتله ٠ وتحرك لتحقيق رغبته ، وهو يترنم بموسيقى الراس التى يعرفها الآباش ٠

وعندما بلغ هدفه كان منزل بوتر يمثل نفس الواجهة الساكنة التى تمثلها كل البيوت الأخرى المصنوعة من اللبن ٠ ولما اتخذ موقفا استراتيجيا صاح الرجل متحديا ، ولكن هذه الدار اعتبرته كما لو كان صنما كبيرا ٠ لم تقدم له أية دلالات عن وجود قاطنيها ٠ وبعد انتظار طويل صاح الرجل بمزيد من صيحات التحدى كان يمزجها بنعوت غريبة ٠

وعلى الفور ظهرت صورة رجل ، تقدم يغلى من شدة الغضب فوق سكون دار ٠ لقد استشاط غضبا لهذا الأمر كما لو كان ريحا شتوية توجه هجماتها الى كوخ فى مروج الشمال ٠ كان لا بد أن يكون صـوت الصخب قد امتد لمسافة بعيدة كما لو كان قتالا اشترك فيه مائتا مكسيكى٠ وكما دعته الضرورة ، توقف ليلتقط أنفاسه أو ليحشو مسدسه ٠

## ٤

سار بوتر وعروسه فى خجل وبسرعة ، وكانا أحيانا يضحكان معا فى استحياء وفى صوت خفيض ٠

وقال لها أخيرا : « الناصية القادمة يا عزيزتى • » •

وبذلا جهود فردين يسيران منكسى الرأس ازاء ريح قوية • كان بوتر على وشك أن يرفع أصبعا ليشير الى أول ما يبدو من المنزل الجديد، وهما يســـتديران حول الناصية ، اذا بهما وجها لوجه مع الرجـل ذى القميص القرمزى المائل الى السواد ، الذى كان يحشو بطلقات الرصاص مسدسا كبيرا • وعلى الفور أســـقط الرجل مسدسه على الأرض ، وفى سرعة البرق استل مسدسا آخر من جرابه ، وكان السلاح الثانى موجها الى صدر العريس •

وران سكون ، وبدا فم بوتر كمجرد مقبرة للسانه • لقد أبدى حركة على الفور ليخلص ذراعه من قبضة المرأة ، وأسقط الحقيبة على الرمال • أما العروس فقد استحال وجهها أصفر كقماش قديم • لقد كانت عبدا لطقوس بشعة ، وأخذت تحملق فى الثعبان الخيالى •

وواجه الرجلان أحدهما الآخر على قيد ثلاث خطوات ، وكان الرجل صاحب المسدس يبتسم فى شراسة جديدة هادئة •

وقال : « حاولت أن تنقض على » وكرر قوله : « حاولت أن تنقض على ! » وكانت عيناه قد صارتا تنذران بشر مستطير • ولما قام بوتر بحركة بسيطة دفع الرجل بمسدسه فى خبث الى الأمام ، وقال : « كلا ، لا تفعلها يا جاك بوتر • لا تحرك أصبعا تجاه المسدس بعد • لا تتحرك قيد أنملة • لقد حان الوقت لأسوى حسابى معك ، وسأقوم بتسويته بطريقتى الخاصة ، حتى أتسكع على الدوام دون أى تدخل • ومن ثم فاذا لم تشأ أن يصوب اليك الرصاص ، فكر فيما أقوله لك • » •

تطلع بوتر الى عدوه وقال : « اننى لن أطلق عليك النـــار » • واستطرد : « لن أطلق حقا • » كان صلبا وفى ثبات ، ولكن ، مع ذلك ، أخذت تطفو فى مكان ما فى مؤخرة ذهنه ، صورة البولمان والمخمل الأخضر فى لون البحر والنحاس والفضة والزجاج البراق والخشب الذى كان

يلمع لمعانا قاتما كلون سطح بركة من الزيت ـ كل بهاء الزواج ومحيط العقار الجديد · واستطرد قائلا : « أنت تعلم أنني أقاتل اذا لزم الأمر القتال يا سكراتشي ويلسون ، ولكن ليس معي سلاح · ستقوم أنت بكل اطلاق للنار أنت بنفسك · » ·

فاستحال وجه العدو الى لون داكن وخطا الى الأمام وأخذ يطلق النار في الهواء جيئة وذهابا أمام صدر بوتر ، وقال : « لا تقل لى انك لا تحمل سلاحا معك أيها الجرو · لا تقل لى أكذوبة مثل هذه · لا يشاهد رجل على الاطلاق فى تكساس بدون سلاح · لا تظننى صبيا · « وأخذت عيناه تشعان ببريق وكانت حنجرته تعمل كالمضخة · » ·

فأجاب بوتر : « لا أخالك صبيا » ولم يكن عقباه قد تحركا بوصة الى الخلف ، واستطرد : « اننى لا أخالك صبيا ملعونا » أقول لك اننى لا أحمل سلاحا واننى لصادق · واذا كنت ستطلق النار على فالافضل أن تبدأ الآن ، انك لن تتاح لك فرصة مثل هذه مرة أخرى · » ·

لقد نم المزيد من التعليل الاضطرارى عن غضب ويلسون ، ولكنه صار أهدأ ، ثم قال متهكما : « اذا لم تكن تحمل سلاحا فلماذا لا تحمل سلاحا · لا تنسى هذا · » ·

فأجاب بوتر : « اننى لا أحمل سلاحا لأننى عدت لتوى من سان أنطونيو مع زوجتى · لقد تزوجت · » واستطرد : « ولو اننى فكرت أن شخصا أخرق مثلك سيجول حولى وأنا عائد بزوجتى لدارى لحملت معى سلاحا · لا تنس هذا » ·

فقال سكراتشى : « تزوج ! » قالها وهو لا يفقه بالمرة ·

فقال بوتر بوضوح : « نعم ، تزوجت · أنا متزوج · » ·

فتساءل سكراتشى : « متزوج ؟ » وبدا له لأول مرة أنه شاهد المرأة الواهية الكتومة الصوت الى جانب الرجل الآخر ، فقال : « كلا ! » كان

ككائن قد سمح له بالتطلع الى عالم آخر • وخطا خطوة الى الخلف وذراعه التى بها المسدس قد سقطت الى جانبه ، وتساءل : « أهذه هى الزوجة ؟ » •

فأجاب بوتر : « نعم ، هذه هى الزوجة • » •

ومرت فترة أخرى من الصمت •

وقال ويلسون أخيرا وفى بطء : « نعم ، سأعتبر كل شىء منتهيا الآن • » •

فرفع بوتر حقيبته وقال : « اذا قلت ذلك يا سكراتشى ، فكل شىء منته • أنت تعلم أننى لا أثير القلق • » •

فقال ويلسون : « حسنا ، اننى موافق على أن الأمر منته ، يا جاك • » كان يتطلع الى الأرض ثم استطرد : « متزوج ! » لم يكن تلميذا فى الشهامة ، بل شهد هذه الحالة الغريبة فحسب ، وكان كمجرد طفل ساذج من السهول الغابرة • والتقط مسدسه الأيمن ، ووضع كلا السلاحين فى جرابهما وولى ، وكانت قدماه تخلفان وراءهما آثارا أشبه بالقمع فى الرمال الكثيفة •

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٩٧٥/٢٩٩٩

## ● هذا الكتاب

يحوى أروع أعمال « ستيفن كرين » أحد عمالقة الادب الأمريكى فى أواخر القرن الـ١٩ ومستهل القرن العشرين .الذى يعد دعامة من دعامات المدرسة الانطباعية فى الأدب العالمى · ويضم المجلد رواية طويلة عنوانها «وسام الشجاعة الأحمر» ، أجمع النقاد على أنها أعظم رواية صورت الحرب تصويرا صادقا وكانت سببا فى شهرة كاتبها وذيوع صيته كمراسل حربى ·

كما يضم أيضا أربع قصص مختارة هى :

* « الوجه المقلوب » ، وتصور حزن ضابطين على زميل لهما لقى حتفه فى ميدان القتال ، فدفناه ، ثم استأنفا واجبهما القتالى ·

* « القارب المكشوف » ، وقد استوحاها « كرين » من تجربة خاضها بنفسه عندما جنحت به سفينة كان يستقلها ·

* « الفندق الأزرق » ، وتتناول دنيا القمار والمقامرين والمصير الذى ينتظرهم ·

* العروس تصل الى يلوسكاى ، وتصور الصراع بين المثل والحقائق ، ذلك الصراع الذى كان يقود جهاد « كرين » كفنان ويضفى على حياته وفنه كل ما يسودهما من سخرية مرة ·

وقد صيغ كل هذا الانتاج الأدبى الرائع فى أسلوب سلس ممتع يشد القارىء ويؤكد له ثبوت قدم «كرين» كأحد البارزين فى تصميم تكنيك القصة الحديثة ·

الثمن ٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العا